الجامعـة الاســـــلامية بغــــــزة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
كليـــــــــــــــة الآداب
ماجســـــــــتير تـــاريخ



The Islamic University of Gaza
Deanship of Research and Graduate Studies
Faculty of Literature
Master of History

انتهاكات الصليبيين لحقوق الإنسان في بلاد الشام

(٤٩٠-٥٩٠هـ/١٠٩٦-١١٩٤م)

Crusader Violations of Human Rights in The Levant

(490-590 A.H/1096-1194 A.D)

إِعدادُ الباحِثِ:

أكرم عاطف محمد المصري

إشراف:

الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين

قُدمَ هذا البحثُ اِستِكمَالاً لِمُتَطلباتِ الحُصولِ عَلى دَرَجَةِ الْمَاجِستِير فِي برنامج التاريخ بِكُليةِ الآداب فِي الْجَامِعَةِ الإسلامِيةِ بِغَزة- فلسطين

صفر/١٤٤١هـ- أكتوبر/٢٠١٩م

إقــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

انتهاكات الصليبيين لحقوق الإنسان في بلاد الشام

(٤٩٠-٥٩٠هـ/١٠٩٦-١١٩٤م)

Crusader Violations of Human Rights in The Levant

(490-590 A.H/1096-1194 A.D)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism، and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis، unless otherwise referenced، is the researcher's own work، and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name	أكرم المصري	**اسم الطالب:**
Signature	أكرم المصري	**التوقيع:**
Date		**التاريخ:**





الجامعة الإسلامية بغزة

The Islamic University of Gaza

عمـادة البحث العلمي والدراسات العليا

هاتف داخلي: 1150

الرقم Ref ....

التاريخ Date ....ج س غ/35/

06/11/2019م

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناء على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **أكرم عاطف محمد المصري** لنيل درجة الماجستير في كلية **الآداب**/ برنامج **التاريخ** وموضوعها:

انتهاكات الصليبيين لحقوق الإنسان في بلاد الشام (490-590ه/1096-1194م)

Crusader violations of human rights in the Levant (AC1194-(H590-490/1096

وبعد المناقشة التي تمت اليوم **الاربعاء 8 ربيع الأول 1441هـ** الموافق **2019/11/06م** الساعة **العاشرة صباحا،** في **قاعة مؤتمرات مبنى طيبة** اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ. د. رياض مصطفى شاهين	**مشرفا ورئيسا**	....
د. غسان محمود وشاح	**مناقشا داخليا**	....
د. نسيم زريق أبو شلوف	**مناقشا خارجيا**	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية الآداب/برنامج التاريخ.**

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا



أ. د. بسام هاشم السقا

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine Tel: + 970 (8) 264 4400 هاتف Fax: + 970 (8) 264 4800 فاكس ص.ب. 108 الرمال. غزة. فلسطين

public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps

التاريخ: 2 /12 /2019م

الرقم العام للنسخة	3108069	اللغة	ع	ماجستير ☑	دكتوراه ☐

الموضوع/ استلام النسخة الإلكترونية لرسالة علمية

قامت إدارة المكتبات بالجامعة الإسلامية باستلام **النسخة الإلكترونية** من رسالة

للطالب/ة/ أكرم عاطف محمد المصري

رقم جامعي: 120152974 قسم: التاريخ كلية: الآداب

وتم الاطلاع عليها، ومطابقتها بالنسخة الورقية للرسالة نفسها، ضمن المحددات المبينة أدناه:

- تم إجراء جميع التعديلات التي طلبتها لجنة المناقشة.
- تم توقيع المشرف/المشرفين على النسخة الورقية لاعتمادها كنسخة معدلة ونهائية.
- تم وضع ختم "عمادة الدراسات العليا" على النسخة الورقية لاعتماد توقيع المشرف/المشرفين.
- وجود جميع فصول الرسالة مجمَّعة في ملف (WORD) وآخر (PDF).
- وجود فهرس الرسالة، والملخصين باللغتين العربية والإنجليزية بملفات منفصلة (PDF +WORD).
- تطابق النص في كل صفحة ورقية مع النص في كل صفحة تقابلها في الصفحات الإلكترونية.
- تطابق التنسيق في جميع الصفحات (نوع وحجم الخط) بين النسخة الورقية والإلكترونية.

ملاحظة: ستقوم إدارة المكتبات بنشر هذه الرسالة كاملة بصيغة (PDF) على موقع المكتبة الإلكتروني.

والله ولي التوفيق،

توقيع الطالب

أكرم المصري

إدارة المكتبة المركزية

ملخص الدراسة

تناولت هذه الدراسة انتهاكات الصليبيين لحقوق الإنسان في بلاد الشام، في الفترة التي تخللت بداية الغزو الإفرنجي في العام ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، وصولاً حتى تاريخ ٥٩٠هـ/١١٩٤م.

ولقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة، وفصل تمهيدي يحتوي على أهم مصادر الدراسة، وأربعة فصول، واستخدم الباحث المنهج التاريخي ليركز على إظهار انتهاكات الصليبيين بحقوق أهالي الشام في مختلف جوانب حياتهم، ولهذا قسم الفصول بعناوين تحمل في طياتها الأوضاع المختلفة لحياة الناس، والتي أصابها الصليبيون بشكل مباشر وكان فيها هدر واضح لحقوق الموطنين، نتيجة جرائم هؤلاء الغزاة، سواء أثناء تقدمهم نحو مدن الشام، أو فترة مكوثهم في البلاد وتحديداً فترة حدود الدراسة وهي المائة سنة الأولى لغزوهم البلاد.

ولقد تناول الباحث قضية انتهاكات الفرنج للحقوق السيادية في بلاد الشام، على المستويين العام والخاص، ومنها حصار الفرنج البري والبحري للمدن، وارتكابهم المجازر الجماعية للأهالي، واعتقالاتهم التعسفية لهم، وتعذيبهم وقتلهم للأهالي، وإهمال الفرنج الرعاية الصحية للمواطنين، وكذلك انتهك الفرنج حقوق المرأة والطفل، ومنها حرمان المسلمين من الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية، وكما تعدى الفرنج على الثروات الزراعية، والحيوانية، والمائية للسكان، وفرضوا عليهم الضرائب، ودمروا الأسواق، وقتلوا العلماء، ومنعوا حرية العبادة، وقطعوا طرق الحجاج، ودمروا المساجد، وتعدوا على موتى المسلمين، ولم يسلم من شرهم البيزنطيين واليهود، وكل هذه الجرائم كان لها الأثر المباشر على موقف حكام المسلمين في التعامل مع هذه الأحداث، وأيضاً على نشوء المقاومة الشعبية، وعلى الأدباء والشعراء.

وقد أنهى الباحث دراسته بخاتمة، وجاء بما توصل إليه من نتائج، ورصد بعدها المصادر والمراجع التي اقتبس منها الباحث معلوماته في كافة مواضيع الدارسة.

Abstract

This study illustrates the Crusaders' violations of human rights in the Levant, during the period between the beginning of the Frankish invasion in 490 AH / 1096 AD, up to the date of 590 AH / 1194 AD.

This study is divided into an introduction, an introductory chapter containing the most important sources of study, and four chapters. The researcher used the historical approach to show the Crusaders' violations of the rights of the people in Levant in many aspects of their lives. For this reason, the chapters are entitled with titles bearing the different conditions of people's lives, which the Crusaders were directly involved in the loss of the rights of citizens, as a result of the crimes of these invaders, both during their advance towards the cities of Levant, or during their stay in the country, specifically during the period of covering study term; the first hundred years of their invasion to the country.

The study addresses the Franks' violations of sovereign rights in the Levant, both public and private, including the land and sea siege of cities, and the mass massacres of the people, and arbitrary arrests, torture and killing, and Franks' negligence of health care for citizens, as well as the violation of the rights of women and children. This includes denying Muslims from celebrating social events. Franks also encroached on the agricultural, animal and water resources of the population, imposed taxes on them, destroyed markets, killed scholars, prohibited freedom of worship, cut off the pilgrims' roads, destroyed mosques, and transgressed against the dead Muslims. Their evil crimes also harmed the Byzantines and Jews, and had a direct impact on the attitude of Muslim rulers in dealing with these events, and lead to the emergence of popular resistance, and had impact on writers and poets.

The conclusion of his study sets a number of findings, and then lists the sources and references from which the researcher quoted his information relevant to all subjects of the study.



{ يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}.

المجادلة:[١١].

إهــــداء

- إلى الذين لا يعلو فضل على فضلهم بعد الله سبحانه وتعالى النبض الساكن في عروقي أمي وأبي.
- إلى شريكة الحياة وصاحبة الفضل الأول والأخير في هذا الإنجاز زوجتي المخلصة.
- إلى حياتي وكل عمري وامتدادي بعد الممات أبنائي وبناتي الأعزاء:

عاطف، يزن، محمد، زين، إيمان، اسلام، إسراء، منيرة، إخلاص، منة الله، نور الهدى، هبة، ليان، إيلين.

- إلى سندي في هذه الحياة إخوتي وأخواتي الذين أكن لهم كل حب وتقدير.
- إلى من قضوا نحبهم على ثرى فلسطين الحبيبة... شهدائنا الأطهار.
- إلى رمز التضحية والصمود، الذين ما وهنوا لما أصابهم ... أسرانا البواسل.

أهدي عملي المتواضع هذا

الباحث

أكرم عاطف المصري

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين؛ سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، يقول تعالى في كتابه العزيز: { **وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**}.

أما بعد، بداية أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور/ **رياض مصطفى شاهين،** الذي شرفني بقبوله الإشراف عليّ في إعداد هذه الأطروحة، حيث إنه لم لم يألو جهداً بنصائحه وإرشاداته طيلة فترة كتابتي للأطروحة، فكان لهذه النصائح أثرها في خروج هذه الرسالة بأبهى حُلة، فله مني كل تقدير.

كما وأتقدم بوافر الامتنان وعظيم العرفان إلى عضوي لجنة المناقشة كل من:

الدكتور/ **غسان محمود وشاح** (مناقشاً داخلياً) حفظه الله.

الدكتور/ **نسيم زريق أبو شلوف** (مناقشاً خارجياً) حفظه الله.

وذلك لقبولهما مناقشة هذه الأطروحة، والسماح لي الإفادة من خبراتهم العلمية والأكاديمية، كما وأتقدم بجزيل الشكر والامتنان لكل من ساهم في إنجاح هذه الأطروحة.

وأخيراً لا أنسى أن أشكر كل من أشغلتهم وأتعبتهم في إعداد رسالتي، وأيضاً لمن تعلمت على أيديهم الكثير من علوم التاريخ في هذه الكلية، وأخص بذلك أساتذة قسم التاريخ والآثار بالجامعة الإسلامية، الذين لم يبخلوا بجهدهم في سبيل التعليم والمعرفة، سائلاً المولى عز وجل أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم جميعاً.

الباحث

أكرم عاطف المصري

فهرس المحتويات

المقدمة:

تعد جرائم الصليبيين في بلاد الشام انتهاك فاضح لحقوق الإنسان، حيث مكث الاحتلال الصليبي في بلاد الشام وفلسطين قرابة قرنين من الزمن، انتهك خلالها الصليبيون حقوق الناس الدينية والعلمية، فدمروا المساجد والمؤسسات الدينية، وحرقوا المكتبات، وانتهكوا حرية العبادة والتعليم، ومنعوا الآذان، وتعددت مواقفهم في قتل الحجاج، كما انتهكوا الحقوق الاقتصادية فدمروا الأراضي الزراعية ونهبوا المحاصيل وسلبوا المواشي، وأقاموا على كثير من أراضي المواطنين المستوطنات الصليبية، وسيطروا على طرق التجارة.

وانتهك الصليبيون الحرية الاجتماعية، وصارت نساء المسلمين سبايا في أيديهم، تباع وتشترى، وكذلك فعلوا بالأطفال الذين لم يقتلوا، ولقد عذبهم الصليبيون أشد العذاب، ونكلوا أيضاً برجال المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة، واستخدم الصليبيون أدوات القتل المحرمة آنذاك، وطاردوا السكان في الشوارع والأزقة، وفي الأسواق والبيوت والمساجد.

وكما انتهك الصليبيون حقوق المواطنين المدنية والسياسية، وحاصروا المدن وارتكبوا المذابح، وانتهكوا أيضاً الاتفاقيات والمعاهدات، وقتلوا الأسرى، وأجهزوا على الجرحى، فهذه التجربة تحتاج إلى توثيق ورصد من المصادر العربية التي عايشت الأحداث، وكذلك من المصادر الأوروبية كالمؤرخين، ومنهم الذين كانوا مرافقين للحملات الصليبية على بلاد الشام.

سنتناول في مواضيع هذه الدراسة المدن التي وقعت فيها المجازر، والقتل البشع من قبل الصليبيين بحق العرب في منطقة الشام، والتي خلَّفَت أثار مباشرة وغير مباشرة على سكان بلاد الشام، وعلى مجريات الحياة العامة، وكذلك أثرت على المستوى الثقافي، حيث ظهر ذلك جلياً في كتابات شعراء المسلمين، وحتي في كتب تاريخ الغربيين، وكان لهم رأي في هذه الاعتداءات، لذا كانت هذه الأحداث جديرة بالبحث والدراسة.

أهمية الدراسة:

١. تقدم هذه الدراسة رؤية واضحة عن الانتهاكات الصليبية المتنوعة بحقوق الإنسان في بلاد الشام.
٢. قلة الدراسات الأكاديمية الجادة التي تناولت هذا الموضوع بخصوصيته.
٣. تبين الدراسة مدى الإجرام الصليبي بحق المسلمين، وطرق القتل والحصار المنهجي مع سبق الاصرار على مثل هذه الجرائم.
٤. تضع هذه الدراسة معلومات مهمة عن الإرهاب الصليبي للدارسين في مجال الحروب الصليبية، في ما يتخلل زمن حدود الموضوع.

أهداف الدراسة:

١. إبراز الانتهاكات الصليبية بحقوق الإنسان في بلاد الشام.
٢. كشف الستار عن البشاعة الصليبية والأعمال اللاأخلاقية التي اقترفوها بحق أهل الشام.
٣. التعرف على أسماء قادة المجموعات العسكرية الإجرامية الصليبية في الشام.
٤. التعرف على المدن التي تعرضت للحصار والابادة الجماعية من قبل الصليبيين في المشرق العربي.
٥. ابراز أهم أقوال المؤرخين والمفكرين الغربين ومنهم من شارك في الحملات الصليبية، وعبَّروا فيها عن استيائهم من جرائم الجيش الصليبي.
٦. محاولة إبراز طبيعة الانتهاكات الصليبية لحقوق المدنيين، في أثناء هجومهم على أي بلد عربية في بلاد الشام.
٧. الكشف عن أسلوب الفرنج الذي اتخذوه في السيطرة على مدن الشام، بدءاً بالحصار ثم اقتحامهم للأسوار، وإبادة لأي إنسان وجدوه من غير رأفة.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث في دراسته منهج البحث التاريخي.

حدود الدراسة:

١. **الحد المكاني:** بلاد الشام.

٢. **الحد الزماني: (٤٩٠-٥٩٠هـ/١٠٩٦-١١٩٤م).**

العقبات التي واجهت الباحث وكيف تغلب عليها

إن عدم كتابة أحد من المؤرخين أو الباحثين عن انتهاكات الصليبيين لحقوق الإنسان، سواء في بحث صغير أو دراسة تخص هذا الموضوع، كان له الأثر في أن يواجه الباحث ندرة في هذه الأفكار والتي تمس حقوق الإنسان بشكل مباشر، ولكن الباحث حاول قدر المستطاع أن يربط بين أفعال الصليبيين وتصرفاتهم المتنوعة والمتناثرة، والتي ذكرتها المصادر التاريخية، ورصدها تحت عناوين تصنف انتهاكاتهم بحق أهالي الشام.

الدراسات السابقة:

لقد استفاد الباحث من بعض الدراسات السابقة ونذكر بعض منها:

١- هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، رياض مصطفى شاهين، كلية الآداب، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، الجامعة الإسلامية بغزة، ولقد كان لهذه الدراسة أثر مهم في إطلاع الباحث على الأنواع المتعددة للأسلحة المدمرة التي استخدمها الفرنج في بلاد الشام، والتي كانت أداة رئيسة في قتل وإبادة آلاف السكان من أهالي بلاد الشام.

٢- المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام، عبد الحميد جمال الفراني،(١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، الجامعة الإسلامية بغزة، حيث أمدت هذه الدراسة بمعلومات قيمة عن مواقف ظهرت فيها إعتداءات للفرنج على أهالي الشام، وكيف قاوم أهالي الشام هجمات الفرنج المتكررة عليهم مدنهم المختلفة.

٣- الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)، حسام حلمي الأغا، الجامعة الإسلامية بغزة، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، حيث أمدت هذه الدراسة بمعرفة عن أحوال اليهود والنصارى في بلاد الشام، وعن موقفهم من العدوان الصليبي الذي طال مصالحهم كما أضر بالمسلمين.

٤- الأسرى المسلمون والصليبيون وطرق معاملتهم بين الإطار القانوني والواقع التاريخي(٤٩٠-٥٨٦هـ/١٠٩٧-١١٩١م)، منى حماد، الجامعة الأردنية.

واستفدت من هذه الدراسة بأنها جاءت بمعلومات مهمة عن طرق معاملة الفرنج للأسرى في بيت المقدس، وهذه الجوانب أفادت الدراسة في المبحث الثالث من الفصل الأول، والتي تتحدث عن انتهاكات الفرنج لحقوق الأسرى في بلاد الشام.

تقسيمات الدراسة:

قسم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة، وفصل تمهيدي، وأربعة فصول، وخاتمة تحتوي على أهم النتائج التي توصل لها، وقائمة للمصادر والمراجع، وملاحق تحتوي على خرائط وصور، ولقد تضمن الفصل التمهيدي دراسة لأهم مصادر البحث، والتي أمدت البحث بمعلومات مهمة عن انتهاكات الصليبيين بحق أهالي الشام.

وجاء الفصل الأول من هذه الدراسة بعنوان انتهاكات الصليبيين للحقوق السيادية في بلاد الشام، وخلال ذلك تطرق الباحث إلى توضيح هذا المفهوم، وناقش في مجالات انتهاكاتهم للحقوق السيادية العامة لسكان الشام، ومنها انتهاك حرية الحركة والتنقل، وذلك باتخاذهم أسلوب الحصار البري والبحري للمدن، وتطرق أيضاً إلى انتهاكات الفرنج لحق الحياة والأمن العام، وكيف قتلوا الأجنة في بطون أماتهم، واقترفوا مجازر وإبادة جماعية، وكانوا مدججين بالأسلحة الفتاكة ضد أهل الشام.

وكما ناقش الفصل الأول انتهاكات الفرنج لحق الأمن العام في بلاد الشام، وعالج قضية تهجير الصليبيين القسري لسكان الشام واضطهادهم، وحرمانهم من مزاولة الحكم الذاتي لبلادهم، وكما أشار أيضاً الانتهاكات الصليبية للحقوق الشخصية للأهالي، ومنها حقوق الأسرى، التي شملت إعدامهم، وأنشاء الفرنج لهم معتقلات التعذيب الميدانية، واعتقلوا المواطنين مقابل المال والأشغال الشاقة، ومن ناحية أخرى أضاع الفرنج حق الرعاية الصحية للسكان.

أما الفصل الثاني فقد تطرق لدراسة انتهاكات الصليبيين للحقوق الاجتماعية، والتي تضمنت تعديات الفرنج على حقوق المرأة والطفل، وحرموا المسلمين من الاحتفال بمناسباتهم الاجتماعية، وتطرق الباحث انتهاك الفرنج حرمات شهر رمضان المبارك، وشمل هذا الفصل

أيضاً اعتداءات الصليبيين على الحقوق الاقتصادية، منها تعديات الفرنج على الحقوق الزراعية، والثروة الحيوانية والمائية، فرضوا الضرائب ودمروا الصناعة والأسواق، ومن ناحية أخرى استولوا على أموال وأراضي المسلمين في مدن الشام.

ودارت دراسة الفصل الثالث حول انتهاكات الصليبيين لحقوق المسلمين العلمية والدينية، ومنها موقف الصليبيين من علماء المسلمين، عندما قتلوهم ولاحقوهم وأسروهم، بالإضافة إلى انتهاك الفرنج لحرية العبادة، وفيها تطرق الباحث إلى موضوع تنصير الفرنج الإجباري للمسلمين، واستهزاءهم من الإسلام، وقطعهم طرق الحجاج، وكيف خرب الصليبيون عمارة العبادة، وآثار المسلمين، من ضمنها تدميرهم للمساجد والآثار الإسلامية قطعهم طرق الحجاج، ولم يسلم من أيديهم حتى مقابر المسلمين وموتاهم، وفيها وضح الباحث هذه القضايا، وأعطى فكرة واضحة عن موقف الصليبيين من البيزنطيين واليهود في بلاد الشام.

أما الفصل الرابع فقد ناقش نتائج وآثار الانتهاكات الصليبية في بلاد الشام على موقف على حكام المسلمين، الذين ثاروا نصرة لإخوانهم، لما وصلتهم رسائل نداءات واستنجاد إخوانهم في بلاد الشام، وكذلك أثرها على نشوء المقاومة الشعبية، في البلاد، وكيف تعامل الأهالي مع هذا الغزو المفاجئ، الذي استمر حتى وصل بيوت الشاميين، ولقد اشتمل الجزء الأخير من هذا الفصل على تأثير هذا العدوان على الأدباء والشعراء، الذين تأثروا لما حدث معهم، وسمعوا عنه، من مشاهد تقشعر له الأبدان، وكتبوا بذلك أشعارهم، معبرين عما يجول بخاطرهم، من حزن وهم بسبب اعتداءات الفرنج على بلاد الشام، وعبَّروا عن فرحهم عند انتصار المسلمين على الجيش المعتدي عليهم، وكتبوا أيضاً أشعارهم فيما أثار حنينهم للديار التي هجروا منها، ولهذا الشعر أهمية كبيرة في توثيق الأحداث والمعارك التي دارت رحاها بين المسلمين والفرنج واعتداءات الفرنج، وتأتي أبيات الشعر معبرة عن الشعور الداخلي لأهالي الشام اتجاه قادة المسلمين الذين خلصوهم من سطوة المحتلين.

الفصل التمهيدي

دراسة تحليلية لمصادر الدراسة

الفصل التمهيدي: دراسة تحليلية لمصادر الدراسة

تمهيد:

إن دراسة انتهاكات الصليبيين لحقوق الإنسان في بلاد الشام منذ احتلالهم هذه البلاد، تفرض على الباحث الرجوع إلى مصادر ذات العلاقة المباشرة بالموضوع ، وذلك لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تفيد في إثراء هذه الدراسة، ومدها بالمعلومات خلال كافة الفصول، ولقد اعتمد الباحث في دراسته على مصادر تاريخية، وجغرافية، وتاريخية أجنبية:

أولاً: المصادر التاريخية العربية

١- **ابن القلانسي:** أبو يعلى، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت: ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، صاحب كتاب " تاريخ دمشق"، وهو أديب وشاعر ومؤرخ، وكان من أعيان دمشق ومن أفاضلها البارزين، ولي رئاسة ديوانها مرتين، وله تاريخ للحوادث حتى توفي(١)، وكان يكتب له في سماعه أبو العلاء المسلم بن القلانسي، وبذلك كان يسمى، ودفن في دمشق بجبل قاسيون، وله تاريخ للأحداث ابتدأ به من سنة(٤٤١هـ/١٠٤٩م)، إلى حين وفاته(٢).

جمع ابن القلانسي مواد كتابه على شكل مذكرات يومية، واتضح طابع الاختصار لديه، فهو المصدر العربي الذي وصلنا، وقام برواية الأخبار من وجهة نظر عربية صريحة ومنصفة، وفيها اعتدال كبير(٣)، ولقد أوضح ابن القلانسي عن أهمية تاريخه أن ما رواه حول دخول الشام تحت السلطان السلجوقي، ثم أحداث الحروب الصليبية زمن الحملتين الأولى والثانية، وهي أحداث عاصرها وكان شاهد عيان لها، ولأهمية هذه الروايات تمت ترجمتها إلى كل من الإنكليزية والفرنسية، ولقد وضح عن منهجه في كتابه بقوله: "قد انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ، ورتبته وتحفظت من الخطأ والخطل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات، ونقلته وأكدت الحال فيه بالاستقصاء والبحث"(٤).

---

(١) اليافعي، مرآة الجنان(ج٣/٣٠٨)؛ ابن القلانسي، تاريخ دمشق لابن القلانسي(ص١٣)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(ج١/٩١).

(٢) ياقوت، معجم الأدباء(ج٣/١٢١٤).

(٣) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/٢٠).

(٤) المصدر السابق(ج١/١٨).

لقد ساهم هذا المصدر في توفير الكثير من المعلومات القيمة التي أثرت مواضيع مختلفة في هذه الدراسة في كافة الفصول، وخصوصاً في الفصلين الأول والثاني، لأن ابن القلانسي أورد معلومات مهمة جداً عن بداية الغزو الافرنجي لبلاد الشام، وكيف أنهم حاصروا المدن براً وبحراً، وشكلت معلوماته مادة أساسية في صلب هذا الموضوع، وبين كذلك طبع الفرنج في القسوة وغدر الأهالي.

٢- **العماد الأصفهاني:** أبو عبد الله، المعروف بعماد الدين الكاتب الأصبهاني، محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله بن علي(٥١٩-٥٩٧هـ/١١٢٥-١٢٠١م)، صاحب كتاب " الفتح القسي" وهو مؤرخ، وعالم بالأدب، ومن كبار الكتاب، ولد في أصبهان[١].

وسافر العماد الأصفهاني إلى بغداد فتأدب وتفقه، واتصل بالوزير عون الدين ابن هبيرة، فولاة إدارة البصرة، ثم إدارة واسط، ومات الوزير، فضعف أمره، فرحل إلى دمشق، واشتغل عند السلطان نور الدين في ديوان الإنشاء، وبعثه نور الدين رسولاً إلى بغداد، أيام المستنجد، وصار العماد له معرفة بنجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، عرفه بتكريت حين كان نجم الدين والياً عليها، ثم لحق بصلاح الدين بعد موت نور الدين، فكان معه في بدرجة وكيل وزارة، إذا انقطع الفاضل بمصر لمصالح صلاح الدين وقام العماد مقامه، ولما توفي صلاح الدين سكن العماد في دمشق، ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية، وتوفي بها[٢].

وكتب الأصفهاني كتب كثيرة، منها "خريدة القصر"، و"الفتح القسي في الفتح القدسي"، و"البرق الشامي"[٣]، واعتمدت هذه الدراسة على الكتابين الأخيرين، ولقد قسم الأصفهاني كتاب الفتح القسي إلى مجموعة أحداث متسلسلة ضمن سنوات متتالية، وأما كتاب البرق الشامي فيشتمل على كتابة مفصلة للأحداث التاريخية، ويوصف الكاتب فيه الأحداث على شكل مدونات خاصة به، وما كان يراه ويحدث معه[٤].

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء(ج٦/٢٦٢٣)؛ الزركلي، الأعلام(ج٧/٢٦).

(٢) ياقوت، معجم الأدباء(ج٦/٢٦٢٣)؛ الزركلي، الأعلام(ج٧/٢٦).

(٣) الزركلي، الأعلام(ج٧/٢٧).

(٤) عماد الدين، البرق الشامي(ج٣/٥٩).

ويعد كتابي " الفتح القسي"، و" البرق الشامي" من المصادر المهمة لدراسة أوضاع الفرنج في عهد صلاح الدين، ولقد أمدا هذان المصدران متن الدراسة بمواضيع كثيرة ومهمة، في كل فصول الدراسة في حصار الفرنج للمسلمين وقتلهم في مدنهم، وفي موضوع أسرى المسلمين، وحصار عكا، وذلك لأن العماد الأصفهاني كان من شهود العيان الذين عاصروا الغزو الصليبي لبلاد الشام، وأورد المعلومات اللازمة التي وضحت الصورة عن انتهاكات الفرنج لحقوق الانسان المتعددة في الشام.

ومؤلف كتاب "سنا البرق الشامي" هو: الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، أبو إبراهيم (ت: ٦٤٣هـ)، ويقع الكتاب في تسع وسبعين ورقة، من القطع الكبير، ويذكر أنه انتهى من اختصاره للبرق عام(٦٢٢هـ/١٢٢٤م)، يذكر وصول العماد إلى الشام في (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، ويتبع ذلك وصول شاور إلى دمشق عام(٥٦٣هـ/١١٦٧م)، ثم يذكر حملة اليمن، وفجأة يذكر موت نور الدين محمود (٥٦٩هـ /١١٧٤م)[1].

٣- **ابن الأثير**: المؤرخ الإمام، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الموصلي، المعروف بابن الأثير(٥٥٥-٦٣٠هـ/١١٦٠-١٢٣٣م)، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل، وتجول في البلدان، وعاد إلى الموصل، وتوفي بها، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، ومن تصانيفه " الكامل في" اثنا عشر مجلداً، مرتب على السنين، بلغ فيه عام ٦٢٩هـ[2].

وتاريخ ابن الأثير تاريخ حولي لأنه يتناول الأحداث والأخبار بحسب تواريخها، أما الأحداث المهمة فيعطيها عناوينها ضمن السنة، وكان لا ينتقل بالأحداث من سنة إلى أخرى إلا للضرورة، وقد أقام ابن الأثير في كتابه الكامل توازنًا بين أخبار المشرق والمغرب، وقد حرص على تعليل بعض الأحداث التاريخية، واعتمد على (٣٢) مصدراً، وطبع الكتاب عدة طبعات[3].

ويقول ابن الأثير: " بدأت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان،

---

(١) البنداري، مختصر سنا البرق الشامي(ص١).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٧/٢١٦)؛ الزركلي، الأعلام(ج٤/٣٣١).

(٣) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي(ج١٦/١٤٦).

متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا، ولا أقول إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ، فإن من هو بالموصل لا بد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب ولكن أقول إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ومن تأمله علم صحة ذلك" [1].

وترجع أهمية كتاب الكامل لابن الأثير، في أنه كان معاصراً للغزو الفرنجي لبلاد الشام، وعاش أحداث العدوان، وامتاز باطلاعه الشمولي على التطورات الواقعة، وكما أنه دون تفاصيل الوقائع بصور ودقيقة ومتسلسلة، وفي ذلك قال:" أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه، ولم أكن كالخابط في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الحصبا واللآلي.. وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها فأما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شيء ترجمة فإنني أفردت لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة" [2]، ولقد أفاد تاريخ ابن الأثير في إمداد هذه الدراسة بشكل كبير في ما يخص جميع الفصول والمباحث، وذلك لارتباطه الوثيق بعناوين الرسالة ومواضيعها، التي تخص انتهاكات الفرنج في بلاد الشام.

٤- **ابن شداد:** بهاء الدين أبو المحاسن، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي(٥٣٩-٦٣٢هـ/١١٤٥-١٢٣٤م)، صاحب كتاب" النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، وهو قاضي حلب، والملقب بهاء الدين، الفقيه الشافعي، توفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم، وكان شداد جده لأمه، وكان يكنى أولاً: أبا العز، ثم غير كنيته وجعلها: أبا المحاسن، ولد في الموصل ليلة العاشر من شهر رمضان، وحفظ بها القرآن الكريم في صغره[3].

وفي سنة إحدى وتسعين اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن، يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر، وقدم إليه إلى حلب، وأولاه قضاء حلب ونفوذها، وعزل عن قضائها

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج١/٦)

(٢) المصدر السابق(ج١/٧).

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان(ج٧/٨٤)؛ ابن العديم، زبدة الحلب(ص٤٣١)؛ ياقوت، معجم الأدباء(ج٦/٢٨١٦).

زين الدين أبا البيان بن نائب محيي الدين بن الزكي، وحل عنده بهاء الدين في رتبة مستشار الوزارة[1].

وله كتاب في الأقضية سماه: "ملجأ الحكام عند التباس الأحكام"، ذكر في أوائله أنه حج، وزار بيت المقدس والخليل، ثم دخل دمشق أثناء محاصرة السلطان صلاح الدين قلعة كوكب، فذكر أنه سمع بوصوله فاستدعاه إليه[2]، وجاء في تاريخ ابن كثير أن أبو المحاسن كان رجلاً فاضلاً أديباً مقرئاً ذا وجاهة عند الملوك، أقام بحلب وولي القضاء بها، وله تصانيف وشعر[3]، وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن مجلدة في الأيام الصلاحية وكتب فيها من الفتوح واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين[4].

وبرزت أهمية كتاب "النوادر السلطانية" أنه جاء في الفصل الثاني معلومات تؤكد انتهاكات الصليبيين للحقوق الاجتماعية من خلال اعتداءاتهم على المسلمين في رمضان، غير مكترثين لحرمة الشهر الفضيل، وأيضاً ودعمت معلومات هذا المصدر خلال سطور الفصل الثالث عن دور العلماء في مقاومة الفرنج، وكما أثرى الفصل الرابع من كتاب ابن شداد عن أثر انتهاكات الفرنج على المقاومة الشعبية.

٥- **ابن العديم:** كمال الدين أبو القاسم ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي(٥٨٨-٦٦٠هـ/١١٩٢-١٢٦٢م)، وهو المؤرخ والمحدث والمعروف بابن العديم، صاحب كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب، ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق، وتوفي بالقاهرة، من كتبه أيضاً: "بغية الطلب في تاريخ حلب"، وهو كتاب كبير جداً، اختصره في كتاب آخر سماه " زبدة الحلب في تاريخ حلب"[5]، وعرف ابن العديم بالأمير الوزير والرئيس الكبير، وسمع الحديث، وحدث وتفقه وأفتى ودرس وصنف، وكان إماماً في فنون كثيرة، وقد ترسل إلى الخلفاء والملوك مراراً عديدة، وكان يكتب حسناً طريقة مشهورة،

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٤٣١).

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان(ج٧/٨٧).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٣/١٦٧).

(٤) أبو شامة، الروضتين(ج١/٢٩).

(٥) ابن خلكان، الوافي بالوفيات(ج٧/٨٩)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة(ج٧/٢٠٨-٢٠٩)؛ الذهبي، تاريخ الاسلام (ج٥٢/٢٢٧-٢٢٨)؛ الزركلي، الأعلام(ج٥/٤٠).

وصنف لحلب تاريخاً مفيداً قريباً في أربعين مجلداً، وكان جيد المعرفة بالحديث، حسن الظن بالفقراء والصالحين كثير الإحسان إليهم[1].

وكتاب زبدة الحلب مرتب على الحروف والأسماء، وضمّنه ما وصل إليه، ووقف عليه من ذكر أمراء حلب وولاتها وملوكها ورعاتها، وبعض من عثر عليه من الوزراء والقضاة، سوى الملوك والرعاة، إلى غير ذلك[2]، مما أفاد الباحث كثيراً في جمع المعلومات الأولية عن للأحداث التي وقعت في بلاد الشام أثناء غزو الفرنج لها، وتحديداً الفصلين الأول والثاني منها عن اعتداءات الفرنج على مدن الشام، وتدميرهم للبنية الاقتصادية، تهجيرهم القسري للأهالي، واستيلائهم على الثروة الحيوانية ونهب أراضي المسلمين.

٦- **أبو شامة:** أبو القاسم شهاب الدين، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة (٥٩٩-٦٦٥هـ/١٢٠٢-١٢٦٧م) صاحب كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، وهو مؤرخ، ومحدث، وأصله من القدس، ومولده في دمشق، وبها منشأه ووفاته، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفية، ودخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه، فمرض ومات[3].

قال أبو شامة :" أردت أن أجمع من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حصلته، وأتقن فيه ما خبرته، فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين، وهو "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر، وهو ثماني مائة جزء في ثمانين مجلداً، فاختصرته، وهذبته، وزدته فوائد من كتب أخرى جليلة، وأتقنته، ووقف عليه العلماء، وسمعه الشيوخ والفضلاء ومر بي فيه من الملوك المتأخرين ترجمة -الملك العادل- نور الدين فأطربني ما رأيت من آثاره وسمعت من أخباره.. وسيرة - الملك الناصر- صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين -رضي الله عنهما- في المتقدمين"[4].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٣/٢٣٦)؛ الزركلي، الأعلام(ج٥/٤٠).

(٢) أبو الفداء، اليواقيت والضرب في تاريخ حلب(ص١).

(٣) الزركلي، الأعلام (ج٣/٢٩٩)؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى(ج٨/١٦٧).

(٤) أبو شامة، الروضتين(ج١/٢٩).

وقد أفادت كتاب الروضتين في مواضيع الدراسة إفادة مهمة، وخاصة في المعطيات التاريخية التي جاء بها الفصل الأول عن حصار الفرنج[1] لمدن الشام، وارتكابهم المجازر فيها، وفي الفصل الثاني أورد هذا المصدر معلومات عن انتهاكات الصليبيين[2] لحقوق الثروة الزراعية، وفرضهم الضرائب، ونهبهم أموال أهل الشام، وأمد هذا المصدر الفصل الثالث بمعلومات انتهاكات الفرنج بحقوق العلماء، وقطع طرق الحج، وكما ساهم في دعم الفصل الرابع بمعلومات توضح أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين.

٧- **ابن واصل:** جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل المازني التميمي الحموي الشافعي(٦٠٤- ٦٩٧هـ/١٢٠٨-١٢٩٨م)، مؤلف كتاب " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، وهو مؤرخ كبير من مؤرخي القرن السابع الهجري(١٣م) وطنه الأصلي حماة، ولكنه طاف في دمشق وبيت المقدس، وحلب والكرك، وبغداد ومكة، والمدينة والقاهرة، وأقام في عاصمة مصر سنوات طويلة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وشهد أثناء مقامه فيها حملة لويس التاسع الصليبية عليها، واحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك، وما عاصر ذلك من غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد، وانتهاء الخلافة العباسية على أيديهم، ثم انتقالها إلى القاهرة، ثم اتصل بالظاهر بيبرس وأرسل سفيراً عنه إلى - منفرد بن فردريك الثاني- امبراطور الدولة الرومانية[3].

---

(١) الفرنج أو الإفرنج وهم أقوام من أصول أوروبية وخصوصاً من فرنسا، وانجلترا، وألمانيا، وإيطاليا. انظر: ديورانت، قصة الحضارة(ص٤١٣); عنان، دولة الاسلام في الأندلس(ص٧٨).

(٢) الصليبيون: هم جماعات الفرنج الذين اجتاحوا بلاد الشام، وخيطوا الصلبان على أكتافهم اليمنى، مقتفين حسب إعتقادهم خطى عيسى عليه الصلاة والسلام عندما صلب، وفعلوا ذللك طاعة لأمر البابا أوربان، بعد ما أقسموا للذهاب إلى الشام، وجعلوه (شعار الرب)، ورمز انتصاره، لذا صنعوها من الجوخ المذهب، والحرير، أو أي نسيج فاخر، وقد حاكها الحجاج، والفرسان، والعامة على أكتافهم وأرديتهم. مجهول، أعمال الفرنجة(ص١٨); الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس(ص٣٧).

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب(مج١/٤).

وتميز ابن واصل بأنه مؤرخ، وعالم بالمنطق والهندسة والأصوليين، ويعد من فقهاء الشافعية، وكان مولده ووفاته في حماة في سوريا، على الرغم من إقامته مدة طويلة في مصر [١].

فهذا كتاب " مفرج الكروب" أوردت فيه أخبار ملوك بنى أيوب، وجملة من محاسنهم ومناقبهم، إذ كانوا أعظم ممن تقدمهم من الملوك شأناً، وأجلهم سلطاناً، وممن فتح الله تعالى بهم القدس الشريف من أيدى الكافرين، وأذل بسيوفهم أعناق الملحدين[٢]، لذلك اعتبر هذا الكتاب كمصدر أساسي لدراسة تاريخ بنى أيوب بصفة خاصة ودراسة تاريخ بلاد الشام في القرنين السادس والسابع بصفة عامة وهما قرنان حافلان بأحداث العدوان الصليبي على المنطقة العربية، ويتكون كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب إلى خمسة أجزاء كما اتضح من عنوانه ومحتوياته في التأريخ لدولة بنى أيوب منذ قيامها إلى زوالها.

وتكمن أهمية كتاب مفرج الكروب لهذه الدراسة في أنه مصدراً أساسياً في الفصل الأول عن حصار الفرنج لمدن الشام، واضاعتهم لأمن البلاد، واستخدامهم السلاح الفتاك، وفي الفصل الثاني عن تدميرهم لاقتصاد بلاد الشام، وأمد الفصل الثالث بمعلومات عن انتهاك الفرنج لحقوق العلماء، وتهجيرهم للسكان، وأمدَّ هذا المصدر الفصل الرابع من الدراسة بأول خطبة في المسجد الأقصى بعد فتح بيت المقدس تحت عنوان أثر الانتهاكات الصليبية على المقاومة الشعبية.

٨- **أبو الفداء:** إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (٦٧٢-٧٣٢هـ/١٢٧٣-١٣٣١م)، صاحب كتاب " المختصر في أخبار البشر"، ويعد مؤرخ وجغرافي، بالإضافة إلى أنه قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، وعلم الهيأة، ونَظَّمَ الشعر وليس بشاعر، وأجاد أيضاً الموشحات، وحيث أنه ولد ونشأ في دمشق، ورحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر من دولة المماليك، وأحبه، وأقامه سلطاناً مستقلاً في حماة، بحيث لا يجرؤ أحد أن ينازعه السلطة، وخصه شعار الملك، وتقرب منه

---

(١) الزركلي، الأعلام(ج٦/١٣٣).

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب(ج١/١).

العلماء، ورتب لبعضهم المرتبات، وحسنت سيرته، واستمر إلى أن توفي بها[1].

وترجم كتاب أبي الفداء أو " المختصر في أخبار البشر" إلى الفرنسية واللاتينية، وقسم منه ترجم إلى الانجليزية، وطبع له عدة طبعات، وقسم إلى ستة أجزاء، وجاء في مستهل هذا الكتاب تاريخ معظم الأنبياء بدءاً من آدم -عليه الصلاة السلام- وما يهمنا من هذا المصدر أنه أفاد بإمداد هذه الدراسة بمعلومات مهمة عن فترة الغزو الصليبي لبلاد الشام، والتي اقتبست لتثري المعلومات في كل فصول الرسالة، فتجد في الفصل الأول معلومات من هذا المصدر عن حصار المدن وارتكاب الفرنج مجازر جماعية، وفي الفصل الثاني عن منع الفرنج من الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية، فرض ضرائب الفرنج على أهل الشام، وقتلهم تجار المسلمين في الأسواق، وفي الفصل الثالث أمدت معلومات المصدر عن اعتقال الفرنج علماء المسلمين ومطاردتهم، ومحاولة الفرنج في تنصير الناس بالإكراه، وقد استفاد الفصل الرابع من الدراسة من كتاب المختصر في موضوع أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين، وأثرها على المقاومة الشعبية، وفي الشعر الذي يعني باستغاثة أهل الشام وطلبهم العون.

٩- **الذهبي:** محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله، حافظ، مؤرخ، تركمانيّ الأصل، مولده ووفاته في دمشق(٦٧٣-٧٤٨هـ/١٢٧٤-١٣٤٨م)، أرخ كتاب "تاريخ الاسلام"، حيث رحل إلى القاهرة، وطاف كثيراً من البلدان، وكف بصره سنة ٧٤١هـ، واشتهر بالعلم والورع، وكان له نظر ثاقب في العلل والرجال، وأتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعَرَّف تراجم الناس، وأبان الإبهام في تواريخهم والإلباس، بالإضافة إلى أن تصانيفه كبيرة وكثيرة، تقارب المائة[2]، منها:

تاريخ الإسلام الكبير مكون من(٣٦) مجلداً، منه دول الإسلام جزآن، والمشتبه في الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب، وسير النبلاء من مكون أربعة أجزاء، والعبر في خبر من غبر، مكون من خمسة أجزاء، وطبقات القراء، والإمامة الكبرى، والكبائر، وتذهيب تهذيب

---

(١) الزركلي، الأعلام(ج١/٣١٩).

(٢) ابن شاكر، فوات الوفيات(ج٣/٣١٥)؛ الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ(ص٢٢).

الكمال، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، الإعلام بوفيات الأعلام، وتجريد أسماء الصحابة، والرواة الثقات، الطب النبوي، المرتجل في الكنى[١].

وأسهم تاريخ الذهبي في هذه الدراسة بمعلومات مهمة تخللت الفصول: منها ما جاء في الفصل التمهيدي لتعريف بعض الأعلام، وأمدت الفصل الأول بمعلومات عن ارتكاب الصليبيين مجازر وإبادة جماعية لأهالي الشام، واهمالهم حق الرعاية الصحية، وجاءت معلومات المصدر في الفصل الثالث عن ملاحقة الفرنج لعلماء المسلمين واعتقالهم، وكذلك تنصير الفرنج الإجباري للمسلمين، وفي الفصل الرابع عن أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين، وتعريف أماكن جغرافية.

١٠- **المقريزي:** أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس بن الْعَلَاء بن المحيوي الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي(٧٦٦-٨٤٥هـ/١٣٦٥-١٤٤١م)، وهو مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة- من حارات بعلبك في أيامه- وكان جده من كبار المحدثين، وانتقل ولده إلى القاهرة، وولي بها بعض الوظائف المتعلقة بالقضاء، وكتب التوقيع في ديوان الإنشاء، وأنجب صاحب الترجمة، ونشأ ومات في القاهرة، وولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة مرات وحفظ القرآن، واتصل بالملك الظاهر برقوق، فدخل دمشق مع ابنه الناصر وعرض عليه قضاؤها فأبى، وعاد إلى مصر[٢].

وله مؤلفات كثيرة، وجاء فيها ما أفاد هذه الدراسة، وهي كالتالي:

أ- اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين والخلفاء

يتكون هذا المصدر من ثلاثة أجزاء، وقال المقريزي عنه:" أحببت أن أضع لمن ملك القاهرة من الخلفاء ديواناً يشتمل على جمل خبرهم ، ويعرب عن أكثر سيرهم"[٣].

حيث زود كتاب "اتعاظ الحنفا" في هذه الدراسة بالكثير من المعلومات المهمة، منها في الفصل الأول عن قتل الفرنج لحكام المسلمين، وتهجيرهم الأهالي بالقوة، ومنع حكام الشام من مزاولة الحكم، وأما الفصل الثاني فقد استفاد من هذ المصدر عن ونهب الفرنج أموال الأهالي،

(١) ابن العماد، شذرات الذهب(ج١/٦١)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج١/١٨٢).

(٢) الزركلي، الأعلام(ج١/١٧٧)؛ السخاوي، الضوء اللامع(ج٢/٢١).

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج١/٤).

وانتهاكهم المناسبات الاجتماعية، وتعديهم على حقوق الثرة الزراعية، وكذلك فرضهم الضرائب على الناس، وأيضا تدميرهم اقتصاد بلاد الشام، وكذلك أمد هذا المصدر الفصل الثالث في توضيح مدى حقد الفرنج على العلم والعلماء في الشام، الرابع أنه كيف أثرت الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين، وعلى المقاومة الشعبية.

ب–السلوك لمعرفة دول الملوك

يتكون كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" من سبعة أجزاء، ويشتمل على تأريخ أحداث الفترة منذ أَن زَالَت الدولة الفاطمية وانقرضت، إلى أن وصل ذلك بذكر من حكم مصر بعدهم من ملوك الأكراد الأيوبيين، وسلاطين الأتراك، فِي كتاب يحصر أخبارهم وأعلامهم الذائعة، ويحتوى على أَكثر الأحداث في أيامهم، من غير اهتمام بالتراجم والوفيات، وسلك فيه المؤلف التوسط، وقلل من الاختصار المخل والإسهاب الممل(١).

وأفاد هذا المصدر الدراسة التي بين أيدينا في أنه أمد الفصل الأول بمعلومات عن أسر الفرنج للأطفال، والنساء، في بلاد الشام، وكذلك انتهاكهم الثروة الحيوانية للمسلمين وهذا ما جاء به الفصل الثاني، أما الفصل الثالث فقد أعطى هذا المصدر معلومات مهمة عن موقف الفرنج السيئ اتجاه علماء المسلمين، وكذلك ذكرت الدراسة في الفصل الرابع عن أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين، وأخذت معلومات قيمة من هذا المصدر تحدثت عن ذلك.

ج– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " خطط المقريزي"

أورد المقريزي في كتابه " المواعظ والاعتبار" الكثير عن أحداث بلاد الشام، وعلى الرغم من ذلك قال في مقدمة الكتاب:" فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية، وعن الأمم الماضية والقرون الخالية.. وأمّا عنوان هذا الكتاب أعني الذي وسمته به فإني لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة متفرّقة فلم يتهيأ لي إذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين، لعدم ضبط وقت كل حادثة لا سيما في الأعصر الخالية، ولا أن

---

(١) المقريزي، السلوك(ج١/١٠٣-١٠٤).

أضعها على أسماء الناس.. فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء، وهي النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخه العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته"[١].

وأما ما أفاد هذه الدراسة من هذا المصدر فقط ما جاء في الفصل الأول عن الحصار الصليبي البحري لمدن الشام، فقد أورد معلومات في ما يخص اعتداءات الفرنج على المدن.

ثانياً: كتب الجغرافيا والرحلات

١-ابـــن جبيـــر: أبـو الحسـين، محمـد بـن أحمـد بـن جبيـر الكنـاني الأندلسـي (٥٤٠-٦١٤هـ/١١٤٥-١٢١٧م)[٢]، وكاتب وشـاعر، وهـو عربـي أندلسـي، ولـد فـي بلنسـة شـرقي أسبانيا، وأسرته من بني كنانة وهي من القبائل العربية العريقة والكبيرة، وبرع في الأدب، وأولع بالترحل والتنقل، لذا زار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨-٥٨١هـ، وهي التي ألف فيها كتابه " رحلة ابن جبير"، ومات في الإسكندرية في رحلته الثالثة، وقد جاء هذا الكتاب حافلاً بالمشـاهد والتجـارب التـي اكتسـبها اثنـاء تجوالـه فـي عجائـب البلـدان والمـدن، ورؤيتـه لغرائـب المشاهد، واطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية، والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الحقبات من الزمن، وقد استرعى اهتمام المستشرقين لما لـه من قيمة عالية، فترجموا أول شيء القسم المختص منه بصقليّة الى الفرنسية وطبع في سنة (١٢٦٢هـ/١٨٤٦م)، ثم طبع كله[٣].

وترجع أهمية كتاب " رحلة ابن جبير"، والذي كتبه أثناء زيارته في بلاد الشام، حيث أشار في الفصل الأول إلى قطع الفرنج للطرق، ومشاهدته أيضاً اعتقال الفرنج لنساء المسلمين، وأنه دخل مارستان[٤] المسلمين وعبر عن مدى اهتمامهم بالطب في حين تبين إهمال الفرنج للصحة العامة، وأشار في الفصل الثاني عن تناقض عادات الفرنج التي تميزت بالاختلاط عن عادات المسلمين، ووضح لنا صورة احتفال الفرنج بأعيادهم وطقوسهم الدينية، وتعديهم على

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار(ج١/٥-١٠).

(٢) الزركلي، الأعلام(ج٥/٣١٩).

(٣) ابن جبير، الرحلة(ج١/٥).

(٤) مارستان جمعها مارستانات، أي مصحة أو مستشفى أو دار المرضى. أنظر: مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة(ج٣/٢٠٦٠).

الثروات الحيوانية والمائية لأهالي الشام، ذكر أن الفرنج كانوا يفرضون الضرائب على أهالي الشام، وكما تحدث عن أحوال مدينة عكا التي عانت من ظلم الصليبيين في البر والبحر، وأمد هذا المصدر هذه الدراسة في الفصل الثالث بمعلومات مهمة عن تصرفات الفرنج العدوانية على مساجد المسلمين، في المقابل كان اهتمام واضح للمسلمين في المدارس والتعليم.

٢-ابن منقذ: أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، أبو المظفر(٤٨٨-٥٨٤هـ/١٠٩٥-١١٨٨م)، مؤلف كتاب "الاعتبار"، وهو عالم شجاع، ويدعى مؤيد الدولة، وأمير، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر بقرب حماة، يسميها الصليبيون "Sizarar"، وله تصانيف في الأدب والتاريخ، منها: لباب الآداب، والبديع في نقد الشعر، والمنازل والديار، والنوم والأحلام، والقلاع والحصون، و أخبار النساء، والعصا[١].

ولد ابن منقذ في شيزر، وسكن دمشق، وانتقل إلى مصر سنة(٥٤٠هـ/١١٤٥م)، وقاد عدة هجمات على الصليبيين في فلسطين، وعاد إلى دمشق بعد تسع سنوات، ومكث فيها إلى أن ملك صلاح الدين هذه المدينة، فدعاه السلطان إليه، فأجابه وقد تجاوز الثمانين، وتوفي في دمشق، وكان مقرباً من الملوك والسلاطين، وله ديوان شعر، وكتب سيرته وتاريخه في كتاب سماه "الاعتبار"، وترجم إلى الفرنسية والألمانية، ويوصف ابن منقذ بأنه شاعر أهل الدهر، ومالك عنان النظم والنثر، متصرف في معانيه، لاحق بطبقة أبيه، ليس يستقصى وصفه بمعان، ولا يعبر عن شرحها بلسان[٢].

زادت أهمية كتاب "الاعتبار" لأن ابن منقذ يعد من شهود العيان على جرائم الفرنج، حيث رأى بأم عينه انتهاكاتهم بحق المسلمين في بلاد الشام، ولقد أورد في الفصل الأول بأن ابن منقذ شاهد الفرنج وهم يعتقلون المسلمين والمسلمات ويبيعونهم كالعبيد، ويقدم المقتدرين والأغنياء ويفدونهم بالأموال، وكما أثرى هذا المصدر الفصل الثاني بمعلومات قيمة أيضاً عندما استنكر ابن منقذ عادات الفرنج الاجتماعية التي اختلفت بالمطلق عن أعراف المسلمين، وكذلك عن نهبهم أراضي المسلمين في الشام، وأمدت الفصل الثالث بمعلومات عن قتل الفرنج لعلماء أهل الشام، واستهزائهم بالإسلام وتحديداً في المسجد الأقصى.

---

(١) الزركلي، الأعلام(ج١/٢٩١)؛ ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/٣٣١).

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان(ج١/١٩٦)؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق(ج٨/٩٠).

وجاء الكتاب الثاني لابن منقذ بعنوان " ديوان أسامة ابن منقذ" ليمد هذه الدراسة في الفصل الرابع، وخصوصاً في مبحث تحت عنوان "أثر انتهاكات الفرنج على الشعراء"، بالكثير من الشعر العربي، ولأن أسامة عندما عاد من مصر إلى دمشق بصحبة عشيرته، أصاب السفينة التي كانت تحملهم عطب عند عكا وهي في يد الصليبيين، فنهب الفرنج ما معهم من متاع، وعذبوهم حتى وصلوا دمشق، وكانوا قد فقدوا كل ما حملوه معهم من مصر، وكان لذلك الحادث أثر كبير وأليم في نفس أسامة، ولذلك كان اتصاله بنور الدين محمود حاكم دمشق[١].

٣-ياقوت: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله(٥٧٤-٦٢٦هـ/١١٧٨-١٢٢٩م)، صاحب كتاب "معجم البلدان" وهو مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب، وأصله من الروم، وأسر من بلاده صغيراً، واشتراه من بغداد تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي، وأما نسبه يرجح انتقاله إليه من مولاه هذا فرباه وعلمه، وشغله بالأسفار في متاجره، ثم أعتقه وعمره اثنان وعشرون سنة ثم وأبعده، واشتغل بنسخ الكتب بالأجرة، وعطف عليه مولاه بعد ذلك، فأعطاه شيئاً من المال، واستخدمه في تجارته فاستمر إلى أن توفي مولاه، فاستقل بعلمه، ورحل رحلة واسعة حتى وصل خراسان وصار فيها يتاجر، ثم رحل إلى حلب، وأقام فيها إلى أن توفي[٢].

ومن كتب ياقوت: "معجم البلدان"، وكتاب "إرشاد الألباء إلَى معرفة الأدباء"، و"إرشاد الأريب" ويعرف "بمعجم الأدباء"، وكتاب "المشترك وضعاً والمفترق صقعاً"، وكتاب "المقتضب من كتاب جمهرة النسب"، وكتاب "المبدأ والمال"، وكتاب "الدول"، وكتاب "أخبار المتنبي ومعجم الشعراء"[٣].

ويعد كتاب " معجم البلدان" موسوعة مهمة للتعريف بالأماكن والبلاد والمدن، والبحار والأنهار وكل ما له علاقة بالجغرافيا، وذلك نظراً لشموله في تحديد البلاد، وغزارة المعلومات وترتيبها الأبجدي، لذا كان بمثابة العمود الفقري في تعريف أماكن البلاد وحدودها في هذه الدراسة.

---

(١) ابن منقذ، ديوان أسامة(ص٩).

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان(ج١٢٧/٦).

(٣) الزركلي، الأعلام(ج١٣١/٨); ابن المستوفي، تاريخ إربل(ج٣١٩/١).

ثالثاً: المصادر الأجنبية " اللاتينية"

اعتمدت هذه الدراسة في الحصول على معلوماتها من المصادر الغربية المترجمة، إلى جانب المصادر العربية، ومؤرخين المصادر الغربية هم من الفرسان، أو القسس الذين رافقوا الجيوش الغازية، ومنهم من عناصر الجيش الصليبي، أو النصارى الذين رافقوا فرسان الحملة الأولى إلى بلاد الشام، ومصادرهم التاريخية الآتية:

١- المؤرخ المجهول[١]:

هو مؤرخ قد عاصر الحملة الصليبية، ودون تاريخها في كتاب بعنوان: (Gesta Iherusalem Expugnantium) " أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس"، وقد عبر المؤلف المجهول عن مشاهداته للأحداث المختلفة ببلاغة ووضوح[٢].

يتناول كتاب أعمال الفرنجة تاريخ الجماعات الصليبية، التي خرجت استجابة لدعوة أوربان الثاني، وهي الجماعات التي تسمي في التاريخ الغربي " بالحجاج"، رغم أن هذه الجماعات توجهت للقتال بحجة استرداد بيت المقدس، لذلك أطلق على عنوان هذا الكتاب " حجاج بيت المقدس"، ومن المؤكد مشاركة صاحب مذكرات هذا الكتاب في الحملة الصليبية الأولى، وكان يرى أحداثها في بلاد الشام بأم عينه، وظل هذا الكتاب ولم يكتب اسم مؤلفه عليه، ولم يشار إلى وقت كتابته، وتناول الفترة منذ دعوة كليرمونت، وينتهي بوقعة عسقلان ١٠٩٩م، عقب فتح بيت المقدس[٣].

وامتازت كتابة المؤرخ المجهول بصحة رواياته عن غيره ممن دونوا من اللاتين المعاصرين له، ولذلك رجع إليه معظم المهتمين والذين كتبوا عن أحداث تلك الفترة، ومنهم روبرت الراهب ، وتوديبود، وراؤول ده كان[٤] وترجم حسن حبشي الكتاب بعنوان " أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس"، وكما ترجمه سهيل زكار وكتبه في المجلد السادس من "

---

(١) كان تابعاً لبوهيمند النورماندي، وينحدر من أسرة نورماندية تبعت أسرة تنكريد أوف هوتفيل إلى إيطاليا في القرن ١١م، وكان منطبقة الفرسان، وظل في خدمة بوهيمند حتى نهاية(٤٩١هـ/١٠٩٨م)، ثم التحق بقوات ريموند كونت صنجيل إلى بيت المقدس. انظر: توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(هامش١/ص١٨).

(٢) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٩٠).

(٣) المؤلف المجهول، أعمال الصليبيين وحجاج بيت المقدس(ص٩).

(٤) جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى(ص٤).

الموسوعة الشامية"، واقتبس من هذا الكتاب الكثير المؤرخين والأدباء المعنيين الغزو الصليبي على بلاد الشام، وأفاد هذا المصدر اللاتيني هذه الدراسة بكثير من الحقائق وخصوصاً في الفصل الأول الذي تناول حصار الفرنج البري والبحري، بالإضافة إلى ارتكاب الفرنج مجازر جماعية في مدن بلاد الشام بعد اقتحام أسوارها.

وأفاد أيضاً في الفصل الأول، في موضوع الحصار الصليبي البري لمدن الشام، وكيف ضايقوا على الأهالي، وارتكبوا بحقهم الإبادة الجماعية، أمد هذا المصدر الفصل الثاني بمعلومات مهمة عن انتهاك الفرنج لحقوق الثروة الزراعية، والحيوانية، والمائية، وكذلك ساعد الفصل الثالث بقضية تنصير الفرنج الإجباري للمسلمين في الشام، وأيضاً أورد كتاب المؤرخ المجهول معلومات الفصل الرابع عن أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين، وكيف أعدموا أسرى المسلمين، وأهملوا حق الرعاية الصحية.

٢-ريموند أجيل (Raymond d' Agiles)[١]

مؤلف كتاب" تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس"، (١٠٩٨-٤٩٢هـ/١٠٩٩م-٤٩٣م)، وللكتاب اسم " تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس (Historia Francorum qui Ceperunt Ierusalem)، يعد كتابه من المصادر الأساسية للحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، وكان من الشهود العيان، ومن كبار الفرسان المقربين للقائد ريموند صنجيل: كونت تولوز، وأحد المشاركين في أحداثها، مما أضفى على كتاباته أهمية خاصة [٢].

ولهذا الكتاب ترجمات عديدة منها ترجمة حسين محمد عطية بعنوان ريموند أجيل تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، حيث ترجمه سهيل زكار، ونشرت كذلك في المجلد السادس من كتابه الموسوعة الشامية، بعنوان: تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس، وعلى الترجمة الأولى اعتمدت الرسالة.

---

(١) ساهم ريموند بنصيب في المعارك التي دارت في بلاد الشام ، وكان من المقربين من مجالس زعماء الفرنج، ولقد بدأ بتسجيل أحداث الحملة بالاشتراك مع أحد فرسان كونت سان جيل واسمه بونس ده بلازون، واهتما بصفة خاصة بتدوين الأحداث التي تتعلق بكل من كونت تولوز والأسقف أدهيمار ، وبعد عودة ريموند إلى فرنسا أتم بمفرده تدوين الكتاب بعد مقتل زميله بلازون في الشام سنة(٤٩٢هـ/١٠٩٩م). انظر: نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى(ص٦).

(٢) بواعنة، رؤية المؤرخين الفرنج لواقع المسلمين إبان الحروب الصليبية(ص٦٠).

وامتاز أسلوبه بالبساطة، إلا أن الكاتب تملكته العاطفة الدينية فكان غالباً يميل إلى الاقتباس من الاناجيل ليؤكد عدالة أعمال الفرنج بأهالي الشام، وكذلك تميز أسلوب ريموند بالوصف التفصيلي للأحداث والوقائع، وانسياقه لتبرير جرائم الفرنج بحق بمواطني الشام ليضفي عليها الشرعية، ومثّل انتصارات الفرنج بأنها معجزات، وكذلك أهمل الكثير من تواريخ الوقائع. ظهرت أهمية هذا المصدر أنه استحضر الكثير من الحقائق التاريخية، والتي لزمت في تأكيد المعلومات المعنية بجرائم الفرنج، وكيف أنهم حاصروا مدن المسلمين، وقلاعهم، كما استهله الفصل الأول بالدراسة، وأنهم نفذوا المجازر، والاعدامات الجماعية للمواطنين، ومثلوا بالجثث في بلاد الشام، وخدم هذا المصدر الفصل الثاني في عن حوادث سطوة قوات الفرنج على أموال المواطنين.

٣- توديبود بطرس (Petrus Tudebodus-Pierre Tudebode)

صاحب كتاب تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس istoria de Hierosolymitano) (Itinere، وربما يكون هذا المؤرخ من مواطني بواتييه بفرنسا، وأنه قدم إلى بلاد الشام بصحبة جماعة كان يقودهم جاستون دي بيرن والذين شكلوا جزء من قوات ستيفن بلوا وشارتر، وكونوا جميعاً جيش هيوفير ماندوا ملك فرنسا، ويحتمل أنه من في أمالفي من جنوب إيطاليا، تحت إمرة كونت بلوا وروبرت النورماندي حين حمل بوهيمند[١] الصليب[٢].

وترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية جون هيوج هيل، ولوريتال هيل، ونقله إلى العربية حسين محمد عطية، وقدمه جوزيف نسيم يوسف، وعلى هذا الكتاب اعتمدت هذه الدراسة.

ولقد بدأ توديبود تاريخه بالحديث عن دعوة أوربان الثاني لسكان أوروبا في تشكيل الحملة الصليبية الأولى، واستعداد أمرائهم لذلك، حتى وصولهم إلى القسطنطينية، وانتهى

---

(١) بوهيمند(١٠٥٠-١١١١م): قائد نصراني اتصف بالقوة والحكم وتولى حكم أنطاكية وهو ابن روبرت جوسيكارد، والبيرادا. الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٤٣)؛ توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٩١).

(٢) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٢٨).

المؤلف حديثه عن معركة عسقلان التي انتصر فيها الفرنج على الأفضل قائد جيش الفاطميين[1].

واستفادت هذه الدراسة من هذا الكتاب في معلومات الفصل الأول، والتي زودتها بمواضيع عديدة منها: حصار الفرنج البري والبحري لمدن الشام، وارتكابهم المجازر الجماعية بحق الأهالي، وكذلك في إعدامهم لأسرى المسلمين، وكما أفادت الفصل الثاني في اقتباس المعلومات المتعلقة في انتهاك الفرنج لحقوق النساء، والأطفال، ونهب الفرنج للثروة الحيوانية، وفي فرضهم الضرائب على المسلمين، وكذلك نهبهم البضائع من التجار، وأمد هذا المصدر الفصل الثالث عن اعتداءات الفرنج على مقابر المسلمين، وموتاهم، في بلاد الشام، وعن تنصير الفرنج الإجباري للمسلمين، وجاء للفصل الرابع بمعلومات عن أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين.

٤– فوشيه دو شارتر (Fulcher of Chartres)

ولد الشارتري في فرنسا سنة (٤٤٩هـ/١٠٥٨م)، حيث أنه استجاب هذا القس لدعوة البابا لتحرير القدس من قبضة المسلمين، وانضم إلى حملة الفرنج الأولى على بلاد الشام وشارك فيها وكان في مجموعات بلدوين الأول، وقسيسه الخاص، ورافقه في حروبه وأسفاره، ومن المحتمل أنه كان مستشاراً له، حتى انتهوا باحتلال بيت المقدس، وفيها قضى بقية حياته، وكتب تاريخه هذا، إلى أن انقطع عن الكتابة في عام(٥٢٠هـ/١١٢٧م)، ويرجح أنه توفي في ذلك العام عن عمر يقارب الثمانية والستين عاماً[2].

نظر فوشيه الشارتري للحملة الصليبية بكل تأييد على أنها حرب مقدسة، تحاكي ما حدث مع بني اسرائيل، والمكابين قديماً، واعتبر أن جيش النصارى الذين اجتاحوا بلاد العرب جماعة مستضعفة، عملوا على الدفاع عن أنفسهم ضد عدو قوي معتدي، كما اعتبر الصليبيين كلهم متدينون وحجاجاً، سواء كانوا مسلحين أم بدون سلاح، وكل من مات منهم شهيداً، وكل رجع عن الحجة جباناً، ونظر لسكان البلاد أنهم أعداء عيسى عليه السلام، ووصفهم كفار

---

(١) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بت المقدس(ص٣٠).

(٢) الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس(ص١٠).

ووثنيون، وقساة، بحيث لم يبد أي عاطفة اتجاه أهل الشام في حال وقوع المجازر بحقهم من الصليبين[١].

دون الشارتري كتاب تاريخ الحملة إلى القدس (Gesta Francorum Iherosalem Peregrinantium)، والذي تميز بأنه من مصادر أوليه، لأنه شاهد الأحداث بنفسه، أو جمعها من مصدر موثوق به، ولذا نقل عنه الكثير من المؤرخين والباحثين في تلك الحقبة الزمنية، ولكتاب تاريخ الحملة إلى القدس ترجمات عديدة، حيث ترجمه من اللغة اللاتينية إلى الانجليزية: الأخت فرنسيس ريتا ريان، وترجمه إلى اللغة العربية، منها ترجمة سهيل زكار في المجلد السادس من الموسوعة الشامية، وترجمة زياد جميل العسلي والتي اعتمدت عليها هذه الدراسة بكثير من المعلومات والتفاصيل في كافة فصولها، وكما ترجمه إلى العربية قاسم عبدو قاسم[٢].

وجاءت أهمية هذا المصدر في دعم الفصل الأول للدراسة بالمعلومات عن حصار الفرنج البري والبحري لمدن الشام، ودعوة قساوة الفرنج الأوروبيين للانتقام من المسلمين في الشام، الأمر الذي دفعهم لتنفيذ المجازر الجماعية واقتحام البيوت، واعتقال الأهالي من رجال ونساء في كل مدينة يحتلونها، كما أنهم قتلوا الأجنة في بطون أمهاتهم، ليستخرجوا الداهم الذهبية التي ابتلعها النساء والرجال بعد قتلهم، وكذلك هجروا الناس قسراً من مدنهم، بالإضافة إلى إهمالهم حق الرعاية الصحية للمواطنين، وكما استفاد الفصل الثاني للدراسة من إيراد الشارتري معلومات ضرورية عن انتهاك الصليبين لحقوق المرأة والطفل، وكيف حرموا المسلمين في الشام من الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية الخاصة بهم، واستيلائهم على الثروة الحيوانية، وعلى أموال وأراضي المسلمين.

وأورد كتاب الشارتري معلومات خدمت الفصل الثالث من هذه الدراسة في تنصير الفرنج الإجباري للمسلمين، وفي استهزاء الفرنج من الإسلام، وفي اضطهاد الصليبيين للنصارى واليهود في الشام، وكذلك دعمت معلوماته للفصل الرابع من الدراسة في أن الانتهاكات الصليبية كان لها الأثر المباشر على المقاومة الشعبية.

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ص٥).

(٢) الساحلي، الاستيطان الافرنجي وتأثيره على البيئة السياسية والاقتصادية(ص٥٣).

٥-وليم الصوري (William of Tyre)

ولد وليم الصوري في بيت المقدس حوالي عام (٥٢٤هـ/١١٣٠م)، وهو ينتمي لأسرة فرنسية شاركت في الحملة الصليبية الأولى، وأتقن اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية، وتوجه وليم في بداية عمره إلى أوروبا طلباً للعلم، وتلقى علومه في فرنسا، وخصوصاً في باريس، وشارتر، وأورليان، وذهب إلى إيطاليا، وعلى هذا أمضى عشرين عاماً في أوروبا، وبعدها عاد إلى فلسطين عام(٥٦٠هـ/١١٦٥م)، وصار من مؤرخي العصور الوسطى، وقد أفادته توليه المناصب المختلفة في جعله جزءاً من تلك الأحداث التي أرخها، حيث شغل مشرفاً على ديوان الرسائل في بيت المقدس، وسفيراً للملك عموري، وإلى جانب توليه لمراكز دينية وكهنوتيه، لدرجة أنه شغل منصب رئيس أساقفة صور[١].

بدأ الصوري في سنة (٥٦٥هـ/١١٧٠م)، أي قبل وفاته بأربع سنوات بكتابة تاريخ المملكة اللاتينية منذ الدعوة الصليبية حتى توليه الحكم عام (٥٥٧هـ/١١٦٢م)، واعتبر هذا النشاط الكتابي من منطلق جهاد ديني نصراني، من وجهة نظره ، وبهذا يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللاتينية قبل الملك عموري، وأرخ للنشاط الصليبي بعد استقرار الفرنج في الشرق[٢].

ومن كتبه المهمة في دراسة أوضاع الفرنج في بلاد الشام كتاب " تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحر (Histoira Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum)، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية، ويتحدث عنوان (A History of Deeds Done Beyond the Sea)، ويعتبر هذا الكتاب موسوعة في تاريخ الحروب الصليبية؛ لأنه يتناول فترة امتدت حتى عام(٥٨٠هـ/١١٨٤م)، واعتمد وليم في تدوينه على مؤلفات المؤرخين الذين عاصروا مجريات هجمات الفرنج على بلاد الشام، ومنهم فوشيه الشارتري، وريموند أجيل، وعلى روايات شهود العيان والوثائق الملكية، ورسائل الملوك ورجال الدين اللاتين في القدس[٣].

---

(١) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٤٩).

(٢) الصوري، الحروب الصليبي(ج١/٣٢).

(٣) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٣١).

ينقسم كتاب الحروب الصليبية لوليم الصوري من أربعة أجزاء، وكما ترجمه حسن حبشي، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتب، في الجزء الأول عام(١٤١١هـ/١٩٩١م)، والجزء الثاني عام (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، والجزء الثالث عام (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، والجزء الرابع عام (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ولقد جاء هذا المصدر في الكثير من المعلومات المهمة والضرورية لهذه الدراسة، وخصوصاً في الأول منها عن جرائم الفرنج وانتهاكهم لحق الحياة في بلاد الشام، وكيف حرموا أهل الشام من مزاولة الحكم لبلادهم، وإعدامهم لأسرى المسلمين، عذبوا الكثير منهم في المعتقلات الصليبية، وإهمال هؤلاء الفرنج حق الرعاية الصحية في الشام، وكما زودت معلومات هذا المصدر في كتابة الفصل الثاني عن انتهاكات الصليبيين لحقوق المرأة والطفل، وتعدي الفرنج على الثروة الحيوانية، والمائية، وفرضهم الضرائب على مواطني، ونهبهم الأموال والأراضي من يد أصحابها.

وكما أتاح كتاب الصوري لهذه الدراسة من الاستفادة من معلومات دقيقة عن تنصير الفرنج الإجباري للمسلمين في الشام، واعتداءاتهم على مقابر المسلمين وموتاهم، وأيضاً تدمير الفرنج للمساجد والآثار الإسلامية، وقطعهم طرق الحجاج، وكذلك واضطهاد الصليبيين لنصارى الشام، وجاء هذا المصدر بمعلومات وفيرة ومهمة لتوثيق العديد من مواضيع الفصل الرابع ودعمتها، فمنها عن أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين، وعلى المقاومة الشعبية.

الفصل الأول

انتهاكات الصليبيين للحقوق السيادية

في بلاد الشام

الفصل الأول: انتهاكات الصليبيين للحقوق السيادية في بلاد الشام

المبحث الأول: مفهوم الحقوق السيادية

أولاً: الحق لغةً

الحق لغةً مضاد الباطل، يقال: كانوا حكاماً فياصل يحُزون في الحكم الفاصل، وهذا الأمر فيصل أي مقطع للخصومات(١)، قال عز وجل: **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}**(٢)، وحذر عز وجل من كتمان الحق بقوله: **{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}**(٣).

ثانياً: الحق اصطلاحاً

يصطلح مفهوم الحق في الأعراف الدولية والقانونية بأنه مجموعة من الحقوق والحريات العامة، التي يتمتع بها الفرد كإنسان، أي بوصفه إنساناً، ومثال ذلك: مجموعة الحقوق المنصوص عليها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، في سنة (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م)(٤).

ثالثاً: السيادة لغةً

السيادة لفظة تدل على السلطة والشرف، فيقال: ساد قومه يسودهم سيادة وسودداً وسيدودة، فهو سيدهم(٥) وذو السيادة هو سيد قومه(٦)، وتعني أيضاً الهيمنة والغلبة والسيطرة، وسيادة القانون احترامه، وسيد القوم خادمهم، وسيد قراره صاحبه(٧) قال سبحانه تعالى:

---

(١) السراج، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب(ص٢٤٥).

(٢) سورة الأنبياء: [١٨].

(٣) سورة البقرة: [٤٢].

(٤) مجمع اللغة العربية المصري، معجم القانون(ص١٤).

(٥) الفارابي، منتخب من صحاح الجوهري(ج١/ص٢٤٧٩).

(٦) مسعود، معجم الرائد(ص٤٥٧).

(٧) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة(ج١/١١٣٢).

{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ}(١)، وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي..)(٢).

وتعبر السيادة عن المُلاك الأصليين، حيث قال الشاعر أبو زيد: " المالُ تزري بأقوامٍ ذوي حسبٍ .. وقدْ يسوِّدُ غيرَ السَّيِّدِ المالُ(٣)، وجاءت بمعنى الرفعة والارتقاء في قول الشاعر عبد الرحمن الأنباري(٤): " والعلم نور يهتدى بضيائه ... وبه يسود الناس فوق الناس"(٥)، وجاءت في سياق قول الشاعر عن الحاكم المُحتَقَر:

وما سقطت يوماً من الناس أمة　　　إلى الذل إلا أن يسود ذميمها(٦).

رابعاً: السيادة اصطلاحاً

السيادة هي السلطة العليا المطلقة التي تفردت وحدها بالحق في إنشاء الخطاب الملزم المتعلق بالحكم على الأشياء والأفعال(٧)، وأن الأمة وحدها لها حق ممارسة الإرادة والمُسَير لها في ذلك الحكم، في صورة سن القوانين لتنظيم الحياة، وفق ما يمليه العقل(٨).

وأول من أوضح معنى نظرية السيادة- الفقيه- جان بودان في كتابه عن الجمهورية عندما أورد:" إن الدولة إنما هي حق الحكم على الأسر فيها، وحق إدارة شؤونها المشتركة بينها وذلك على أساس السلطان السيد"(٩) وإن اختيار الأمة لمن يحكمها، يستمد حكامها سلطتهم بإرادة أبناء أمتهم، أي أن السلطة تكونت بإرادة الشعب، هي التي أوجدتها، وهي التي تستطيع

---

(١) سورة الأحزاب: [٦٧].

(٢) الترمذي، سنن الترمذي (٣٠٨/٥): رقم الحديث ٣١٤٨.

(٣) القيسي، إيضاح شواهد الإيضاح(ج١/٥٤٨).

(٤) كان إماما ثقة صدوقا غزير العلم، ورعاً زاهداً تقياً عفيفاً لا يقبل من أحد شيئا، وكان خشن العيش خشن المأكل لم يتلبس من الدنيا بشيء، توفي سنة وخمسمائة وسبع وسبعين. ابن شاكر، فوات الوفيات(ج٢/٢٩٣).

(٥) ابن شاكر، فوات الوفيات(ج٢/٢٩٥).

(٦) الحميري، التيجان في ملوك حمير(ج١/٢٦٣).

(٧) الصاوي، نظرية السيادة وأثرها على شرعية الأنظمة الوضعية(ص١٠).

(٨) الخالدي، نقض النظام الديمقراطي(ص٣٠).

(٩) العيسي، السيادة بين مفهومها التقليدي والمعاصر(ص٤٠).

بمقتضى دستورها أن تفرض غيرها أو سحبها[1]، وأي حكم يريد أن يفرض سلطته على أي شعب بالقوة ودون رضاهم هو اعتداء وانتهاك لحقوق المواطنين فيه، والدولة ذات السيادة الكاملة هي التي تمارس جميع مظاهر السيادة الداخلية والخارجية، دون تدخل من أي جهة أخرى، مع التزام الدولة بأعراف الدول[2].

خامساً: الحقوق السيادية

تُعَرَّفُ الحقوق السيادية بأنها: حقوق تفرضها سيادة الدولة على مياهها الإقليمية، وعلى سائر أرضها، بحيث تخضع تلك المياه والأراضي لولايتها خضوعاً تاماً، وتكون السيادة هنا سيادة إقليمية، لأنها تعبر عن ممارسة الدولة لسلطة مطلقة على إقليمها[3]، وحتى الفضاء الذي يعلو أرض الدولة يتبع لها، والمياه الإقليمية المجاورة للشاطئ ضمن نفوذ وسيادة الدولة التي تمتلك الشاطئ، ما يترتب عليه خضوع السفن الحربية لقضاء تلك الدولة، وكذلك السفن التجارية ينطبق عليها قوانين هذه الدولة طالما كانت تبحر في المياه التابعة لها[4].

وتتضمن إذن الحقوق السيادية للإنسان في الأرض، والمنافذ والمائية لبلده، ولكن الصليبين انتهكوا تلك الحقوق لسكان الشام على نطاق شامل، الأمر الذي أضر بالمستويين العام والشخصي للأهالي، أما على المستوى العام فقد حاصروا الناس لأسابيع وأشهر عديدة، وقيدوا حرية تنقلهم، وارتكبوا المجازر الجماعية، وقتلوا حكامهم، ومنعوهم من حكمهم الذاتي لبلادهم، وأضاعوا الأمن العام للمدنيين، وتفشى الخوف في صفوف المواطنين[5]، ما سَهَّل للصليبيين إنتهاك الحق السيادي الخاص، والذي يعبر عنها بالحقوق المدنية، وذلك بعد أن تواصلت إعتداءاتهم، والتي طالت كل فرد على المستوى الشخصي، مثل: الإعتقالات، والسبي،

---

(١) عبد الكريم، الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة(ص١٠١).

(٢) ملندي، القانون الدولي العام(ص٧٧).

(٣) عبد الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية(ص١٨٢).

(٤) عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي(ج١/ص٢٩٦).

(٥) عندما هجم الفرنج بقيادة بلدوين حاكم مدينة بيت المقدس على مدينة عكا، حيث إنهم حاصوا الأهالي، وأخافوهم، ومنعوا عنهم المعونات التي تأتي من مصر، وكان حاكم عكا في تلك الفترة زهر الدولة بنا الجيوشي ، الذي فر إلى دمشق بسبب تهديدات الفرنج له، اتعاظ الحنفا(ج٣/٣٤).

والتعذيب، والإسترقاق، والإستعباد، والإعدام الجماعي بغير سبب، ولا قانون، وإهمالهم الجانب الصحي للمواطنين، ويجمل ذلك العماد الأصفهاني عندما يوصف هذا الحال: " وما زالوا يواصلون بالقواطع، ولا يرتاعون للروائع، ولا يريمون مقام المقامع، ويطالبون من الأرواح بالودائع، حتى انتقل القتال من السور إلى الدور، ومن القوارع إلى الشوارع" [١].

والتاريخ يكشف في صفحاته عن سلوك وأفعال الصليبيين التي اقترفوها في بلاد الشام، وهي ما ينافي شرع المولى عز وجل في بسط سيادة الحكم، وجعلهم غير أكفاء لسيادة البشرية على حالهم الشركي لقوله عز وجل: { **اتَّخذُوا أَحْبَارهم وَرُهْبَانهمْ أَرْبَابًا من دون الله والمسيح ابْن مَرْيَم وَمَا أمروا إِلَّا ليعبدوا إِلَهًا وَاحِدًا**}[٢].

(١) العماد الأصفهاني، الفتح القسي(ج١/٢٧٥).

(٢) سورة التوبة: [٣١].

المبحث الثاني: انتهاكات الصليبيين للحقوق السيادية العامة لسكان الشام

سطر المؤرخون في كتاباتهم جوانب متعددة، تكشف صورة انتهاكات الصليبيين للحقوق السيادية في بلاد الشام، فمثلاً: وضح العماد الأصفهاني صورة هجوم الصليبيين على عكا[1]: فقال: "عرف عن أمر هذه المدينة أن العدو قصدها ورصدها، ونزلها ونازلها، وقابلها وقاتلها... وتواصلت إليها جموعه أفواجاً، وجلب البحر نحوها على أمثال أمواجه أمواجاً... وما زالوا يقاتلون أبراجها بالأبراج... ويقارعونها ليلاً ونهاراً، ويبكمون أفواه خنادقها أحجاراً، ويناجونها بألسنة المجانيق الطوال، ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الآجال، ويكافحونها قراعاً، ويدبون إليها للمضايقة خطأً وساعاً، ويناطحونها بالكباش[2]... ويرمونها بكل منجنيق عظيم الخلق"[3].

أولاً: الحصار الصليبي وإنتهاك حرية الحركة والتنقل لسكان الشام

لقد ضمن الشرع الإسلامي حرية التنقل للإنسان، للسعي وراء رزقه، في البر والبحر، وحث المولى عز وجل على حرية السفر والترحال، لقضاء حاجات الناس، من خلال العمل والزيارات، مؤيداً لهذه الحرية ولم يسمح لأي قوة على الأرض منع هذا الحق، لأن الأرض ملكه، والخلق خلقه، قال تعالى: { **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**}[4]، وقال عز وجل: { **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**}[5]، يتبين من مقصد الآية الكريمة بأن الله عز وجل أوهب للإنسان الحق في حرية الحركة والتنقل والإقامة داخل حدود دولته، والحق في مغادرة أي بلد بما في ذلك بلده العودة إليها، ولا يجوز حرمان أحد تعسفاً من حق الدخول إلى بلده والخروج منها.

---

(١) عكا: مدينة فلسطينية، لها سور حصين وميناء على البحر المتوسط، وبها مسجد كبير، يزرع بها أشجار الزيتون بكثرة. المقدسي، أحسن التقاسيم(ج١/١٦٢).

(٢) الكباش أداة من أدوات القتال، استخدمها الصليبيون في دك حصون وقلاع المسلمين، وهي كباش حربية ضخمة، معلقة في حبال، وتشد إلى الوراء، ثم تخلى فتنطح الأسوار. ديورانت، قصة الحضارة(ج٩/٧٢).

(٣) الفتح القسي(ص٢٧٠).

(٤) سورة الملك: [١٥].

(٥) سورة العنكبوت: [٥٦].

اختلفت طبيعة مدن الشام منذ فجر الإسلام، فكانت ذات طابع بري تواجه بلاد العدو من جهة البر، ومنها بحري تواجهه من جهة البحر، ومنها ما يجتمع فيه الأمران، وتقع المعارك مع مواطنيها في البر والبحر، وثغور سواحل الشام كلّها مجتمعة فيها الأمران عند الهجوم البري والبحري[1]، فلما قصد الصليبيون الشام، وساروا إلى القسطنطينية ليشقوا طريقهم إلى بلاد المسلمين، ويسيروا في البر، فيكون أسهل عليهم[2].

انتهك الصليبيون الحقوق السيادية للبر والبحر في بلاد الشام، وبفعل سيطرتهم العسكرية للمناطق البرية التي استمدت دعمها من الأسطول البحري، والذي كان له دور كبير في حصار البلاد، مُنِع الناس من ممارسة حرية التنقل وقيدت حركتهم[3].

حقيقةً أن الطريقين البري والبحري قد سلكهما الصليبيون لضرب الحصار على الشام، وتعمدوا إهانة كرامة المواطنين في هذا الجانب، لأنهم فعلوا كل ما يتنافى مع قوله تعالى: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**}[4]، ومن أشكال الحصار الصليبي وانتهاك حرية تنقل المواطنين سواء من بداية محاصرتهم للمدن، أو خلال زمن مكوثهم في البلاد، كما أخبر ابن جبير في رحلته، وهو سائر مع رفقته في الطريق إلى بانياس[5] عندما كانت تحت سيطرة الفرنج قائلاً: " اعترضتنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح، أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان، فسألنا عن ذلك فقيل لنا: هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج، وهم الحواسة والقطاع"[6]، ويبدو أن الصليبيين عندما خبروا المناطق قطعوا الطرق، فمنذ غزوهم ديار الشام كانت سياستهم هي حصار المدن ومنع حركة التنقل للسكان، ومن أنواع حصار الصليبيين:

---

(١) ابن خردابة، المسالك والممالك(ج١/٢٥٣).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤١٦).

(٣) المصدر السابق(ج١٠/٩٤).

(٤) سورة الإسراء: [٧٠].

(٥) بانياس: مدينة لبنانية، بنى قربها الصليبيون حصنين منيعين، هما: بنين وهونين، وهما بين بانياس وصور. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج٣/٥٤٢).

(٦) الرحلة (ص٢٤٦).

١- الحصار الصليبي البري لمدن الشام

حشد الصليبيون قواتهم على شواطئ الشام، وكانت الخطة الهجومية لديهم هي اقتحام المعاقل العربية بطريقة مباغتة من ناحية البر، ولكن الأهالي كان لديهم خبر وصولهم؛ فاستعدوا لأوقات عصيبة تعصف في البلاد، وتلى ذلك هجوم بلدوين[١] على مدينة سروج[٢]، وحاصرها بآلاته الحربية؛ فأبى سكانها الاستسلام له، إلا بعد شروط الحفاظ على حياتهم؛ مقابل دفع جزية للصليبيين؛ ولكنهم سيطروا على المدينة وطرقها الرئيسة؛ لتسهيل حركة جيشهم في شمال الشام ومنطقة الفرات[٣]، ومنعوا المسلمين من التنقل بحرية وأمان، كما وصف أبي شامة في كتاب الروضتين:" وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر"[٤].

وعندما وصل الصليبيون إلى مدينة أنطاكية[٥] سنة(٤٩١هـ/١٠٩٧م)[٦]، أطبقوا عليها الحصار، فمن شدة حصانتها، لا يمكن أن يحتلها عدو من الخارج إذا ما توفرت فيها الإمدادات والغذاء[٧]، وشرع الفرنج في حفر خندقاً؛ بسبب غارات المسلمين المدافعين، ثم بنوا سوراً على جزء من الجبل يمنعهم من النزول إليهم[٨]، ويبدو أنهم فرضوا حظر التجول لسكان المنطقة، وهذا أكده توديبود في كتابه تاريخ الرحلة حيث قال: " والآن، سددنا أمام المسلمين كل المسالك،

---

(١) بلدوين: هو شقيق جودفري الأصغر، وكان قد انفصل عن الحملة الصليبية الأولى في آسيا قبل وصولها أنطاكية، وعندما إحتل الفرنج الشام، أسس إمارة الرها عام(٤٩٢هـ/١٠٩٨م)، وهي أول إمارة صليبية، وتولى حكم القدس إثر وفاة شقيقه، وشن الحرب التوسعية وارتكب المذابح، وسيطر على مدن عديدة في الشام منها القيصرية، وطرسوس، والرملة وعكا، وطرابلس، وبيروت، وصيدا. الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس (ص٨).

(٢) سروج: مدينة تقع في سورية، تقع على نهر الفرات، وفيها البساتين والمياه المطردة. ابن جبير، الرحلة(ج١/٢٠٠).

(٣) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٢٦٥).

(٤) الروضتين في أخبار الدولتين(ج١/١١٧).

(٥) أنطاكية: تقع في أقصى شمال سوريا، سميت مدينة العواصم، زمن الغزو الصليبي كانت محاطة بسور ضخم من الحجارة، وفي داخل السور ومزارع وبساتين، وداخلها جبل يتخرق الماء من عيون له فيه تنزل في قناة إلى المدينة والأسواق والمنازل، العزيزي، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك(ج١/٦٤).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ج٨/٤١٥)؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر(ج٨/٢٨٥)؛ معلوف، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (ص٥١).

(٧) الشارتري، تاريخ الحملة(ج١/٥٣).

(٨) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٣٨-٢٤٠).

وقطعنا عليهم كل الطرق، فيما عدا جزء من نهر العاصي حيث تقع القلعة والدير، ولو توفرت المنعة لهذه القلعة؛ فلم يكن أحد من الترك ليتجرأ على النزوح خارج المدينة؛ لذلك اجتمع رجالنا للتشاور وأجمعوا قائلين: " فليقع اختيارنا على واحد منا يمكنه الاحتفاظ بالقلعة والاحداق بالعدو من جهة الجبل، والسهل، ويسد عليه مداخل ومخارج أنطاكية"[١].

وامتد حصار الصليبيون لأنطاكية تسعة أشهر متتالية[٢] وبعد أربعين عاماً تكرر ذلك الحصار في هجوم آخر عليها[٣]، يظهر أن جشع قيادتهم العسكرية، واستهانتهم بدماء المسلمين، هو الذي دفعهم لارتكاب الجرائم، لأنهم حثوا جنودهم وأمروهم لافتعال الانتهاكات بحق أهل الشام، منهم كندفري، وأخوه بيمند، وابن أخته طنكريد وصنجيل[٤] وبلدوين وغيرهم، وعندما جمعهم بيمند وقال لهم: " هذه أنطاكية، إن فتحناها لمن تكون؟ فاختلفوا، وكل منهم طلبها لنفسه، فقال: الحل أن يحاصرها كل رجل منا أسبوعاً، والذي تفتح في جمعته فهي له، واتفقوا على ذلك"[٥].

بلغ عدد الصليبيين مليون شخص استولوا على أنطاكية ومعرة النعمان[٦]، وهذا العدد ما أكده أبى شامة في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين[٧] وأورد مؤرخ الحملة الصليبية ريموند أجيل: أن الجيش الصليبي كان مكون من مائة ألف رجل قد أجرموا بحق السكان المدنيين[٨]، منهم الفرسان الذين قطعوا الطرق، ومنعوا حرية تنقل المواطنين، ويظهر أنه في

---

(١) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص١٧٠).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣٦٠)؛ توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٢٣٩)

(٣) حدث ذلك سنة٥٣١هـ، وضيقوا على أهلها بسبب خوفهم من استرداد المسلمين لها، خصوصاً عندما قاتلهم عماد الدين في بارين. ابن واصل، مفرج الكروب(ج١/٧٦).

(٤) كان من شياطين الإفرنج ورءوسهم، وصل إلى الشام، ليحج القدس، فأخذ بأرض صيداء وذهبت حينئذ عينه، ودار في بلاد الشام بزي التجار. الذهبي، تاريخ الإسلام(ج٣٤/٦٦).

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٣٩).

(٦) معرة النعمان: تقع في سوريا وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، ماؤهم من الآبار، وعندهم الزيتون الكثير والتين ومنها كان أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري. ياقوت، معجم البلدان(ج٥/ص١٥٦).

(٧) الروضتين (ج١/١٨٤).

(٨) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٨٦).

تلك الأثناء كان التدفق البشري مستمر من أوروبا إلى الشام، وكانت حركة الغزاة كالمد والجزر لجموع الصليبيين المنتشرين في شمال الشام، والذين أخذو بالتدفق والإنتشار، ولتسهل سيطرتهم على المناطق قطعوا الطرق واستولوا على غالبية الحصون(١).

ولاقت معرة النعمان سنة(٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، نصيبها من الحصار الفرنجي، وتابعوا تدمير أسوارها وأبراجها، وسووها بالأرض(٢)، وطوروا وسائل الحصار عسكرياً، أكثر من حصارهم لأنطاكية، وقطعوا الأشجار، لمدة ثلاثة أيام متواصلة، وأغلقوا الطرقات، وذاق أهلها ويلات الحصار، رغم دفاعهم عنها(٣)، ونصبوا السلالم على الأسوار، وبنوا الحصون الخشبية الضخمة، وقربوها نحو الأسوار؛ فواجهوا مقاومة محدودة؛ ولكن الصليبيين أخذوا يقذفوا المدينة بالأحجار الضخمة بالمجانيق، والرماح، واستعملوا النبال الحديدية في قتل المدنيين والمقاومين على حد سواء(٤)، ويبدو أنهم طوقوا المدينة من كل جهاتها، ومنعوا حركة المغادرة، والدخول إليها، وتتالت غاراتهم المكثفة على المواطنين في حمص(٥)، وأغلق الجيش الصليبي جميع أبواب المدينة، ولم يبق غير باب واحد(٦)، لكي يتمكنوا من إحكام قبضتهم عليها، ونفذوا إجراءات التفتيش والاعتقال، وإهانة الناس، وفي أثناء ذلك قرروا الوصول إلى مدينة القدس(٧)، حيث إنهم أخذوا يتجمعون قبلها في كفر طاب(٨)، والرملة(١) انطلقوا ليحاصروا بيت المقدس(٢).

---

(١) ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/١٧٨).

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٣٩).

(٣) المصدر السابق(ج٢/٣٧).

(٤) المؤلف المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (ص١٠٤– ١٠٥).

(٥) مدينة سورية تبعد مسافة خمسة أيام من حلب، نفس المسافة من دمشق. ابن حوقل، صورة الأرض(ج١/١٨٥).

(٦) ابن العديم، زبدة الحلب (ج٧/٣١٧٢).

(٧) بيت المقدس: مدينة فلسطينية احتلها الصليبيون سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)، كانت وقتها تحت حكم الفاطميين المصريين بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي. ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ج٤/٣٦٣)؛ توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص١٠).

(٨) كفر طاب: من مدن الشام، يشرف عليها جبل، وهي قرب معرة النعمان، وسميت بذلك لأن حواليها أرضاً كريمة وثماراً كثيرة من زيتون ورمان وكروم وأشجار، وهي أرض صحيحة الهواء، ليس لها ماء إلا من الأمطار، ومن سكنها لا يكاد يمرض، ومن قلة مائها يتبايع فيها الماء. الحميري، الروض المعطار(ص٥٠٠); ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٥٣٤).

تجمعت قوات الإفرنج أمام أسوار بيت المقدس، وأمر جودفري[٣]، وكونت الفلاند[٤]، وكونت نورماندي، وريموند[٥]، بتطويق المدينة من جميع جهاتها[٦]، وحاصر الفرنج المدينة حصاراً يدعو إلى الإعجاب، وأطبق روبرت النورمندي الخناق عليها من ناحية الشمال، وكان يسانده روبرت كونت فلاندرز، ومن الناحية الغربية جودفروي وتنكريد[٧]، أما الكونت صنجيل فقد عسكر في الناحية الجنوبية على جبل صهيون قبالة كنيسة القديسة مريم[٨].

كشف المؤرخ الصليبي المجهول عن نية النصارى ورأيهم في حصار القدس بقوله: " حاصرنا المدينة من جميع جهاتها، غير أنه قبل استيلائنا عليها أعلن الأساقفة، والقساوسة، بمواعظهم وخطبهم، وجوب القيام بطواف احتفالي حول أسوار بيت المقدس، تمجيداً للرب، وأن يصحب هذه الطقوس، إخراج الصدقات والصيام[٩]، هذا ما يؤكد أن الصليبيين حاصروا الناس بدوافع الوحشية، والهيمنة، والاستقواء، غير مكترثين بمأساة أهالي البلد، وهذا يدل على أن

---

(١) الرملة مدينة فلسطينية، فهي مدينة حسنة عامرة وبها أسواق وتجارات ودخل وخرج ومنها إلى يافا التي على ساحل البحر نصف يوم، ومن الرملة إلى نابلس يوم. الإدريسي، نزهة المشتاق (ج١/٣٦٥).

(٢) الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان(ص٣٠٨)؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص١٣٦).

(٣) جودفري دي بويون(١٠٦٠-١١٠٠م) كان الفرنج يتصوره بأنه البطل المفضل في قيادة الجيش الصليبي، وهو ابن الكونت يوستاش، وقائد الجيش في الهجوم على بيت المقدس، وأول حاكم لها تحت اسم حامي القبر المقدس. انظر: توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٦٨)، الفيتري، تاريخ بيت المقدس(هامش٢/ص٣٠).

(٤) روبرت كونت الفلاندرز (ت: ١١١١م)، وهو ابن روبرت الفريزي، كان له دور كبير في معارك الصليبيين في بلاد الشام. توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٨٤).

(٥) ريموند كونت صنجيل، وهو ريموند الرابع كونت تولوز، ويطلق عليه المؤرخون المعاصرون " كونت سانجيل، وكان من أكبر الصليبيين سناً، وأغناهم، وقد أمضى بقية حياته في بلاد الشام، ومات سنة ١١٠٥م في طرابلس . انظر: توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٨٣).

(٦) أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢٣٥).

(٧) يعد تنكريد من أهم الشخصيات التي رافقت بوهيمند النورماندي إلى الشام، وهو ابن اخته إما (Emma)، وقد خلف تنكريد خاله في حكم أنطاكية ، في فترة أسر بوهيمند التي استمرت أربع سنوات بعد (١١٠٠م)، ورافق تنكريد في أعماله العسكرية، وكرجل دين. توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٩٤).

(٨) المؤلف المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١١٤-١١٥).

(٩) المصدر السابق(ص١١٧).

العقلية العدوانية متأثرة بما يمليه عليهم رهبانهم وقساوستهم، ما دفع الجندي الصليبي لإرتكاب المزيد من الجرائم بحق المسلمين، حيث قال لهم الناسك: " إن الرب قادر على كل شيء، حتى أنه إذا أراد، فإنكم ستستطيعون تسلق السور بسلم واحد، إنه مع أولئك الذين يعملون من أجل الحق"(١).

وقد أطبق الصليبيون حصارهم على بلدة منبج(٢) وقيدوا حركة تنقل الأهالي وفرضوا عليهم منع التجوال(٣) شهراً كاملاً، واستعد واليها لدفع سبعة آلاف دينار، فأخذها الصليبيون بالقوة، كما طوقوا مدينة دمشق(٤)، فلم ينالوا منها شيء، فرحلوا عنها شبه منهزمين(٥).

٢- الحصار الصليبي البحري لمدن الشام

تمكن الصليبيون من فرض حصار بحري على موانئ الشام، واعتدوا على حق السيادة البحرية لمواطني البلاد من خلال محاصرتهم في البحر، ومن المعلوم أن هذا النوع من الحصار يمنع الدعم والإغاثات للسكان، وكذلك يقوض الملاحة البحرية والصيد، ويعرقل الحركة التجارية ما يحول دون نقل البضائع، وتقييد التنقل، وإن كان في الظاهر هو حصار عسكري هدفه منع وصول النجدة من مصر، أو من الشام(٦).

وارتكب الصليبيون جريمة القرصنة البحرية أثناء حصار عرقة(٧) والذي دام أربعة أشهر، من قبل الجيش الصليبي، ثم حاولوا هدم سورها في أكثر من مكان، ولم يقدروا عليها(٨) وكذلك

---

(١) أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢٣٦).

(٢) منبج: مدينة في سوريا تقع على نهر الفرات، كثيرة المزارع، وأرضها خصبة. الاصطخري، المسالك والممالك (ج١/٦٢).

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٨٩).

(٤) مدينة دمشق من أكبر بلاد الشام وأحسنها مكانا وأعدلها هواء وأطيبها ثرى وأكثرها مياها وأغزرها فواكه وأعمها خصباً، وأوفرها مالا وأكثرها جنداً وأشامخها بناءً ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (ج١/٣٦٦).

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/٣).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٦١).

(٧) عرقة: تقع على ساحل البحر شمال دمشق، وهي من أعمالها، وبين عرقة وبين طرابلس من جهة الجنوب اثنا عشر ميلاً، وبين عرقة وبين بعلبك ستة وستون ميلاً. العزيزي، المسالك والممالك(ص١٠٠).

(٨) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(ج٢٨/٢٥٦).

واجهت مدينة اللاذقية[١] حصار صليبي بحري مشدد عليها مستخدمين مراكبهم المحملة بالبضائع والجنود، رافعين راية الصليب، حيث استقبلهم حاكم طرابلس عنده بضعة أيام[٢].

وتوسعت دائرة الحصار الصليبي، وقيدوا حركة الملاحة البحرية في الشام، وامتدت حتى شواطئ لبنان، وعندما انتقلوا إلى جبيل[٣] حاصروها براً وبحراً، بأكثر من تسعين مركباً، وكان على قيادة الجيش الصليبي بلدوين حاكم القدس، حيث إنهم حاصروا جبيل وقاتلوا أهلها سنة (٤٩٧هـ/١١٠٣م)[٤].

وكان حاكم مدينة الرها[٥] الصليبي يطمع في خيرات بيروت[٦]، فقرر الاستيلاء عليها، وجهز الخطط، وقسم جيشه لاقتحام المدينة، وأطبق حصارها، ودخل في معركة مع سكانها، واستبسل الأهالي بكل قوة في الدفاع عن المدينة، ولم يفلح الصليبيون في مرادهم، فرحلوا عنها صاغرين[٧]، ثم نقلوا جيشهم إلى مدينة صيدا[٨]، ودخلوها بالأمان؛ بعد تطويقها من كل الجهات براً وبحراً[٩].

---

(١) اللاذقية: مدينة في سورية على ساحل بحر الشام، تتبع نفوذ مدينة حمص قبيل العدوان الصليبي، مع حكم المسلمين لها، وهي غربي جبلة، وصارت من أعمال حلب خلال الاحتلال الصليبي. ياقوت، معجم البلدان(ج٥/٥).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٣١).

(٣) جبيل تصغير جبل، بلدة مشهورة شرقي بيروت. انظر: ياقوت، معجم البلدان(ج٢/ ١٠٩) .

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق (ص٢٣٢)، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(ج٥/٤١٤).

(٥) الرها: مدينة في شمال الشام تقع قرب الرقة، بين حران سميساط. الاصطخري، المسالك والممالك(ص٧٢).

(٦) بيروت: مدينة لبنانية تقع على البحر المتوسط، عليها سور حجارة كبيرة واسعة، ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد طيب جيد القطع، ويستخرج منه الكثير، ويحمل إلى بلاد الشام، تشتهر بأشجار الصنوبر ناحية جنوبها وشرب أهلها من الآبار. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق(ج١/٣٧١).

(٧) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٨).

(٨) وصفها الرحالة ناصر خسرو عندما زارها قبيل العدوان الصليبي على لبنان أنها تشتهر بزراعة قصب السكر، وبها قلعة حجرية محكمة ولها ثلاث بوابات، وفيها مسجد جمعة جميل مفروش كله بالحصير المنقوش وفي صيدا سوق جميل. خسرو، سفر نامة(ص٤٩).

(٩) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(ج٦/١٤)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٦١).

وبعد ما استولى الفرنج على صيدا؛ دمروا سورها؛ وصارت المدينة مناصفة بينهم وبين المسلمين(١)، ويبدو أن الصليبيين عندما احتلوا أراضي صيدا وضعوا حدوداً، ومنعوا المواطنين من التحرك المناطق التي سيطروا عليها.

تحالف أهل جنوة(٢)، مع الصليبين، وعملوا معهم في تشديد الحصار البحري على مدن الشام، وأمدوهم بالسفن الحربية القتالية ضد المسلمين في الشام، وابتداء من سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) حاصر الصليبيون مدينة طرابلس(٣)، بمشاركة أسطول جنوة المكون من سبعين سفينة ذات مناقير، واختلف بيرتراند- ابن الكونت ريموند- مع ويليم جوردن، الذي قال: " يجب أن تكون المدينة لي، وبحق لأنني كبحت جماح سكان البلاد المعادين منذ وفاة ريموند، بقواتي الخاصة، وكافحت لكي أضم الأراضي المجاورة للمدينة، وأثناء ذلك وصل بلدوين ووفق بينهم على تشديد الحصار على المواطنين"(٤).

وفوجئ الصليبيون بصمود أهل طرابلس(٥)، وأدى ذلك لعقد اتفاقية بينهم وبين سكان المدينة بوقف القتال، ودخولهم في جزء من المدينة دون التعرض لأي اشتباك(٦)، وأقسموا على

(١) انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار (ج٤/٢٢١).

(٢) مدينة جنوة: وهم من سكان المدن الإيطالية المطلة على حوض البحر المتوسط، كان هدفهم اقتصادي، لذا ساهموا في الحركة الصليبية، وسخروا سفنهم لخدمة اللاتين، وأمدوهم بعدد ضخم من المقاتلين الأكفاء من بلدهم. العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى(ص١١٤).

(٣) طرابلس: مدينة لبنانية على البحر المتوسط، وتعد من قواعد بلاد الشام وأضخمها، تخترقها الأنهار، وتحفّها البساتين والأشجار، ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة، وهي حديثة البناء. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (ج١/٤٨).

(٤) صمدت مدينة طرابلس أمام حصار الصليبيين الذي جثم على أهلها سبع سنوات ابتداء من(٥٠٣هـ/١١٠٩م) ثم استولوا بعدها على المدينة. ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(ج٦/١١).

(٥) كان غالبية سكانها من المسلمين، وجميع السكان الأصليين فيها يتحدثون بالعربية، وسكنها طوائف مسيحية شرقية، ولا سيما اليعاقبة، وهم يشكلون جزء مهماً من البلد، كما كان الموارنة يمثلون الجماعة الدينية المتميزة ، وعند سيطرة الصليبيين على طرابلس حكمها البروفساليون. يوشع براور، عالم الصليبين(ص٩١).

(٦) رغم استبسال أهل طرابلس في الدفاع عنها، فقد أيقنوا بالهلاك، وفكروا في الاستسلام ولا سيما مع اليأس بسبب تأخر وصول الأسطول المصري في البحر، حيث هاجمهم الصليبيون من الأبراج، واقتحموا المدينة عنوة. ابن كثير، البداية والنهاية (ج١٢/١٧١).

ذلك، وبعد أيام غدر أهل جنوة بالمسلمين، فتسلقوا الأسوار بالحبال والسلالم، ودخلوا المدينة وارتكبوا المجازر الجماعية بالسكان[١].

انتهك الصليبيون حق التنقل لمواطني الشام، لدرجة أنه لم يجرؤ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عودتنا إليها[٢]، ولذلك اقترح شرف الدولة – حاكم طرابلس– تسليم المدينة شرط السماح للمواطنين الراغبين في الهجرة المغادرة بأمان، ومن تبق من الأهالي يحتفظوا بممتلكاتهم مقابل أن يدفع المواطن ضريبة سنوية معينة للصليبيين، أما بلدوين فقد احترم الاتفاقية، ولم يخربها، ولكن بحارة جنوة اقتحموا المدينة المجردة من كل دفاع، وراحوا ينهبون البيوت ويحرقونها، وأخذوا يقتلون كل مسلم يجدونه[٣]، وكما شهدت هذه المدينة تكرار ذلك الحصار بعد ثماني وثلاثين عاماً، فقد اقتحموا المدينة بهجوم عسكري آخر، ضايقوا على أهلها[٤]، لكن بفترة حصار أقل، ويدل هذا على تفاقم معاناة الناس في هذه المدينة، من اعتداءات الفرنج على حقوقهم السيادية في الحركة والتنقل.

واقتسم الصليبيون مع أهل جنوة مال المسلمين الذي نهبوه، مقابل دعمهم البحري لهم، ومنها شارع من كل مدينة يتم الاستيلاء عليها أعطوه لأهل جنوة، وعقب هذا الاتفاق هاجم بلدوين مدينة أرسوف[٥] براً، وأهل جنوة بحراً، وانهارت المقاومة العربية، وقبلت بتسليم المدينة بشرط السماح للسكان بالهجرة بأمان إلى عسقلان، ومن تبقى يخضع تحت الحكم النصراني في المدينة[٦].

وكانت القوات البحرية الصليبية تراقب دائماً الساحل الفلسطيني عن كثب، وتجمع عنه الأخبار، حتى يتوغلوا جنوباً، ويفرضوا سيطرتهم على امتداد سواحل مدن الشام، بعدها اقتحموا

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس(ص١٤١-١٤٤).

(٢) أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢١٦).

(٣) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية (ج٢/١٠٠).

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(ج٦/٤٣).

(٥) أرسوف: مدينة على الساحل الفلسطيني، بينها وبين يافا ستة أميال، وتبعد عن الرملة اثنا عشر ميلاً. العزيزي، المسالك والممالك(ص٦٣).

(٦) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج٢/١٠٥).

مدينة حيفا[١] من جهة الساحل بقوة السلاح، واجتاحوا أرسوف بالأمان وأخرجوا أهلها منها، وكذلك هاجموا قيسارية[٢]، واقتحموها بالقوة وفرضوا عليها منع التجوال، ونهبوا ما فيها وارتكبوا المذابح بحق أهلها، بدعم عسكري من الجنونيين[٣] بل شارك الأسطول الجنوي في هذه المهمة، لمنع أي إغاثة من أسطول الجيش الفاطمي[٤] للأهالي، وانتقلوا لحصار مدينة عكا وضايقوا عليها، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق"[٥]، وجاءوا إلى غزة[٦] وحاصروها أربعة أشهر، وامتنعت عليهم؛ فصالحهم ابن منقذ عليها[٧].

ويصف العماد الأصفهاني هجوم قوات فرنسا وإنجلترا على عكا بقوله: " وجاءوا في مراكب بحرية حربية، وبطس[٨] حمالة افرنجية، وأجروا في البحر منها السيول، وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول، وحملوا فيها العتاد والخيول، ووصلت كل قطعة كأنها قلعة، وكل بطسة كأسها تلعة، وكل سفينة فيها مدينة، وكل مجرة على سماء البحر بنجوم الرجوم مزينة، فأحدقت بالثغر من البر والبحر، وأحاطت بمركز الإسلام دائرة الكفر، وأطافت منها الأسواء بالأسوار، والظلماء بالأنوار، ومنعت الداخل والخارج، وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح الموالج والمناهج"[٩].

---

(١) حيفا: مدينة فلسطينية تقع على البحر المتوسط بها نخيل وأشجار كثيرة، وكان بها مصنع للسفن قبيل الغزو الصليبي على بلاد الشام. خسرو، سفر نامة(ص٥٣).

(٢) قيسارية: من مدن فلسطين الساحلية، بينها وبين عكا سبعة فراسخ وهي مدينة جميلة بها ماء جار ونخيل وأشجار النارنج والترنج ولها سور حصين له باب حديدي وبها عيون ماء جارية ومسجد الجامع جميل ويرى المصلون البحر ويتمتعون به وهم جلوس في ساحته. خسرو، سفرنامة(ص٥٤).

(٣) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٥).

(٤) كان من أسطول الفاطميين من المنافع في زمن الحروب الصليبية فكان ينجد المسلمين في عسقلان ويافا وصور وبيروت وطرابلس وجبلة واللاذقية. وكانت أساطيل الفاطميين في الساحل مرتبة في عسقلان وعكا وصور وغيرها وذلك قبل أن يغلبهم الصليبيون على الساحل، كرد، خطط الشام(ج٥/٤٢).

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية(ج١/١٣٣).

(٦) مدينة ساحلية فلسطينية تقع في أقصى الجنوب من فلسطين، ويحدها من الشمال مدينة عسقلان، من الجنوب جمهورية مصر العربية. انظر: اليعقوبي، البلدان(ص١٦٨).

(٧) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(ج٥/٢١٠).

(٨) بطس: بُطْسة، نوع من السفن. رينهارت، تكملة المعاجم العربية(ص٢٧٠).

(٩) الأصفهاني، الفتح القسي(ج١/٢٧١).

وجمع بلدوين جنوده، وسار إلى عكا، لكي يفرض عليها حصاراً آخر، وجاء الجنويون لمساعدته بأسطول مؤلف من سبعين سفينة، وبعد أن حاصر الفرنج المدينة بآلاتهم، شنوا هجمات عديدة على مدى عشرين يوماً، وغشى المسلمين خوف عظيم واستسلموا للملك، واستولى الفرنج على مينائها(١).

وقد بين الشارتري أن بلدوين كان يعاني من انقطاع الدعم الأوروبي له، إلا عن طريق ميناء يافا(٢)؛ لذلك انتهج سياسة عنيدة تمكن في غضون عشر سنوات أن يسيطر على خمسة مواني بحرية، إضافة إلى ذلك ميناء طرابلس، الذي صار إمارة إقطاعية تابعة له، بعد ما أخذ طرابلس سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م)(٣)، وهكذا توضحت الصورة جلية عن السيطرة الكاملة للصليبيين على المنافذ البحرية لمعظم مدن الشام مرتكبين انتهاك الحقوق السيادية وخاصة حق الحرية والتنقل، وجرائم القرصنة البحرية عندما استولوا في ساحل صور(٤) على سفينة كبيرة للعرب، واعتبروها من الغنائم البحرية، وشددوا التضييق على عكا، وكان عددهم مائتين وأربعين ألف مقاتل، ونصبوا عليها المجانيق من كل جهة(٥).

وقد أرسى في ميناء يافا عدد من النرويجيين الذين قاموا برحلة الحج إلى بيت المقدس، وكان أسطولهم مكون من خمس وخمسين سفينة، وكان قائدهم شاباً في التاسعة عشرة من عمره، اسمه " سيجورد"، واتفقوا مع الملك بلدوين أن يدعموه في حصار مدينة صيدا، فحاصرها بلدوين براً والنرويجيون بحراً... وتوسلت الحامية إلى الملك أن يسمح لهم بالخروج سالمين إذا شاء، وبإمكانه أن يبقي الفلاحين للاستفادة منهم في زراعة الأرض(٦).

وطوق الصليبيون مدينة بيروت بتاريخ (٥٠٣هـ/١١١٠م)، ثلاثة أشهر متواصلة، بدعم

---

(١) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٩٢).

(٢) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا، افتتحها صلاح الدين عند فتحه الساحل في سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، ثم احتلها الإفرنج سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) وحررها منهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وخربها. ياقوت، معجم البلدان(ج٥/٤٢٦).

(٣) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٤٨).

(٤) صور مدن لبنان الحالية تقع على ساحل البحر المتوسط، تبعد إلى الغرب من طبرّية مسافة يومان. الإصطخري، المسالك والممالك(ج١/٤٨)؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم(ج١/١٨٨).

(٥) كرد، خطط الشام(ج٢/٦٢).

(٦) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين (ص٢١٥-٢١٦).

من سفن الجنويين، واقتحموا المدينة في الوقت الذي تخلى عنها حاكمها، ارتكب فيه الايطاليون مذبحة عامة قتل فيها الكثير من السكان[١] ونكل بهم ونهبت أموالهم، وشارك في هذا الحصار بلدوين وبيتراند، وكونت طرابلس، وفي البحر حاصرت السفن الصليبية المراكب الإسلامية التي تقدم الإغاثة والعون للمواطنين[٢].

ويمكن القول أن خط سير الصليبيين بدأ من شمال الشام وصولاً إلى فلسطين كان للأسباب التالية:

١- الطبيعة الجغرافية لبلاد الشام التي تطل جهتها الغربية كلها على البحر المتوسط، حيث شق الصليبيون طريقهم من جهة الشمال الأقرب مسافة إلى أوروبا، متجهين صوب بيت المقدس في فلسطين[٣] .

٢- اخضاع المدن الأقل تحصيناً ليسيطروا عليها براً وبحراً، ويحتلوها ويستقر جيشهم فيها، ليكونوا قاعدة عسكرية، للانطلاق منها في الاستيلاء على المدن الأكثر أهمية، مثل بيت المقدس، وباقي مدن فلسطين.

٣- الاستيلاء على أموال وممتلكات المسلمين، وكذلك الحصول دعم مادي آخر مثل الماء والغذاء لجيشهم، كل ذلك مقابل رفع حصارهم عن المدن، وتخفيف القيود المفروضة على حركة أهالي الشام.

٤- شدد الصليبيون في التضييق على مدن الشام كي يستسلم أهلها، ويقطعوا طرق عمليات المقاتلين ضدهم والقادمين من المدن الأخرى، وليمنعوا أي امدادات تعزز صمود الأهالي، حتى ينفردوا بحصار بيت المقدس واحتلاله.

٥- تمثل سوريا معقل الحكم الإسلامي في الشام، وفيها الكثير من الخيرات الطبيعية، والعمرانية التي طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها، ونهب ممتلكات سكانها وأموالهم، وجني ثمار بلادهم؛ لتقوية زاد الجيش الغازي، وما يدعم هذا القول أن خطتهم عند احتلالهم فلسطين كانوا ينتظرون وقت الحصاد وجنى الثمار، لكي يطعموا جيشهم ودوابهم أثناء محاصرتهم

---

(١) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١٢٢/٢).

(٢) الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس(ص١٤٦).

(٣) ابن شمائل، مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع(ج٢٩٧/١).

للمدن، وحيث أن الفرنج نزلوا أولاً على الرملة، وقت حصاد الثمار واستولوا على خيراتها، وانتقلوا إلى مدينة القدس ليحاصروها(١).

ثانياً: انتهاكات الصليبين لحق الحياة والأمن العام في بلاد الشام

كفل الإسلام حق الحياة للإنسان، وأحاطه بالضروريات الخمس التي جاءت بها الشريعة لصونه من الهلاك ومنع الاعتداء عليها، وهي الدّين، والنَّفس، والعقل، والمال، والنَّسب(٢)، ولكن الصليبيون انتهكوا حق الحياة والأمن لسكان بلاد الشام، واعتدوا على كل الحدود الأخلاقية والدينية، وداسوا على كل الأعراف البشرية التي تحفظ للإنسان كرامته، وشملت هذه الانتهاكات ما يلي:

١- انتهاكات الصليبيين لحق الحياة في بلاد الشام

الحق في الحياة ضروري لكل إنسان، ولا يجوز حرمان أحد من حياته ظلماً، والحرمان من الحياة بمثابة جريمة إنسانية، وضمن الشرع الإسلامي ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)(٣)، ولهذا وجب حماية هذه الحقوق في المجتمعات، ولا يجوز إزهاق نفس دون قضاء شرعي، وأما عن انتهاكات الصليبيين لحقوق الحياة في الشام منها:

أ- قتل الصليبيين للأجنة في بطون أمهاتهم

تبدأ حياة الانسان منذ ولادته حياً، ولعظم هذا الحق عند الله عز وجل ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: {**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**}(٤).

ولهذا فإن الناس متساويين في الكرامة والحقوق، فيجب أن يعاملوا بالمحبة، ولكل منهم الحق في السلامة والحياة، ولكن الصليبين انتهكوا حقوق الإنسان في بداية خلقه، وهو جنين في

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٢).

(٢) البدر، الانتصار لأهل السنة والحديث(ص٤٧).

(٣) مسلم، المسند الصحيح، (١٣٠٢/٣)، رقم الحديث: ١٦٧٦.

(٤) سورة النجم: [٣٢].

رحم أمه، أثناء هجومهم على مدن الشام، حيث تقدم هيو، والكونت روبرت النورماندي، وروبرت كونت الفلاندرز؛ لقيادة الصف الأول في الهجمات، والدوق جودفري في الصف الثاني مع الألمان، وخلال هجومهم على معاقل المسلمين في مدينة أنطاكية، وانتقاماً من أهل البلد الذين حاولوا الدفاع عنها، وقد كشف الشارتري عن بشاعة هذا الإجرام بقوله: " أنهم أسروا العديد من المسلمين، أما النساء اللواتي وجدوهن في خيامهن، بقروا بطونهن بحرابهم"[١]، ويظهر أنه لم يفرق الجيش الصليبي الحامل عن غيرها من النساء.

وارتكب الصليبيون جريمة قتل الأجنة في رحم أمهاتهم؛ بسبب الجشع والطمع في الذهب، والمال، أثناء هجومهم على بيوت المسلمين في الشام، وهذه الجرائم منهى عن فعلها في شريعتهم، كما جاء في كتابهم المقدس في العهد القديم لدى الديانة اليهودية والنصرانية[٢]، ويوصف الشارتري والصوري عن ذلك: " كم كانت تصيبك الدهشة لو أنك شاهدت رجالنا من المشاة وحملة الترس، يبقرون بطون المسلمين ليستخرجوا من أمعائهم الدنانير الذهبية التي كانوا قد ابتلعوها وهم على قيد الحياة، وللسبب ذاته بعد بضعة أيام، جمع رجالنا كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها رماداً لكي يسهل عليهم الحصول على هذا الذهب[٣]، في هذا الحادث لم يفرق الغزاة بين رجل وامرأة وربما نساء حوامل.

تعود الجيش الصليبي على مثل هذه الأفعال حتى أنهم كانوا يشقون بطون المواطنين الذين يجدونهم بشكل انتقامي، حتى قتلى المسلمين لم يسلموا من شرهم، كما جاء في كتاب تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس أنهم: " لم يعثر الصليبيون على أي أسلاب في المناطق القريبة.. ثم بدأ فقراؤنا في بقر بطون موتى المسلمين للعثور على ما ابتلعوه من نقود[٤].

ب-ارتكاب الصليبيين مجازر وإبادة جماعية لأهالي الشام

عَظَّم المولى عز وجل الإنسان، وجعل هلاكه فساداً في الأرض، ومن يقتل إنساناً بريئاً كمن قتل الناس جميعاً، وجعله ضمن الفساد في الأرض، أو كقتل الناس جميعاً، في قوله عز

---

(١) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٢٢).

(٢) سفر التثنية(٢٧): (٢٤ مَلْعُونٌ مَنْ يَقْتُلُ)، والوصية السادسة من الوصايا العشر: لا تقتل.

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٧٥)؛ الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٢١).

(٤) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٢٦٢).

وجل: { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا }[١]، فكيف لمن يبيد جماعات من الأبرياء المدنيين في بلادهم وبيوتهم بغير سبب مثلما فعل الصليبيون من غير شفقة ولا رحمة؟

وقد أوردت النصوص التاريخية في مصادرها، أن الاعتداءات بحق الحياة، والسلامة البدنية، والتعذيب بأنواعه، وقسوة المعاملة نفذت بحق أهالي الشام، الذين عجزوا عن صد خطر الجيش الصليبي النصراني، وعندما وطأ الصليبيون مناطق أقصى شمال الشام على غفلة من أهلها لهجوم صليبي، وبموافقة بعض النصارى الموجودين فيها، ساعدوهم في الاستيلاء عليها وقتلوا المسلمين[٢]، وبعد المجزرة بدأوا بسرقة كل ما وقعت عليه أيديهم في الطرقات والبيوت، ثم صاح الصليبيون: "هذه إرادة الله"[٣]، حالهم كما وصف عز وجل مثل هؤلاء بقوله: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}[٤].

وكتب المؤرخ الروسي ميخائيل زابوروف، عن أعمال الصليبيين البشعة بحق مواطني الشام مبيناً الإعدامات الجماعية بحق الأهالي بقوله: " لم يأسر الصليبيون أي أحد التقى بهم في طريقهم إلى أنطاكية، بل كانوا يقتلون فقط، وقد امتلأت جميع الساحات بجثث القتلى" [٥]، وكشف الشارتري عن العقيدة القتالية للجيش النصراني بقوله:" والحقيقة أنه سمح القساوسة والرهبان بأن يذبح الصليبيون المسلمين في الشام؛ لزيادة خلاصهم، وسمح للمسلمين أن يموتوا بسبب لعنة أرواحهم"[٦]، وكشف المؤرخ توديبود عن الإجرام النصراني بحق أهالي الشام بقوله:" ووقفنا بطول ضفتي نهر العاصي ندفع ونغرق الوثنيين (المسلمين) ليجرفهم التيار"[٧].

---

(١) سورة المائدة: [٣٢].

(٢) أبي شامة، الروضتين (ص١٧٥)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ج٢/٢١١)؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر (ج٢/٣٦٤).

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٥٧).

(٤) سورة البقرة: [٢٠٤-٢٠٥].

(٥) زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص٩٣).

(٦) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١١٣).

(٧) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص١٦٦).

وتبين أن الصليبين طبقوا تعاليم الرهبان والقساوسة، كما جاء في كتابهم المحرف عن بيت المقدس: " اعبروا في المدينة وراءه واضربوا، لا تشفق أعينكم ولا تغفوا، الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء، اقتلوا للهلاك.. فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت.. نجسوا البيت وأملأوا الدور قتلى" [١].

ويصف المؤرخ الأوروبي– ميشائيل درسيرر– حال البطريرك نفسه كيف كان يعدو في طرقات بيت المقدس وسيفه يقطر دماً، حاصداً به كل من وجده أمامه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة، و(قبر المسيح)، صار يغسل يديه ليتخلص من الدماء اللاصقة بها مردداً كلمات المزمور التالي: " يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم فيقول الناس حقاً إن للصديق مكافأة أن في الأرض إله يقضي"[٢] ، ثم أخذ ميشائيل في أداء القداس قائلاً: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليرضي الرب"[٣].

ووصف المؤرخ الصليبي وهو شاهد عيان على قسوة قلب جيشهم، وسوء معاملتهم للمسلمين أثناء تحركهم في شوارع مدن الشام، كما ورد في كتاباته: "وسلك جودفري إلى أنطاكية من طريق آخر تعرض حوالي لثلاثين من المسلمين وقتلهم دون شفقة، وأسر مثل هذا العدد"[٤] كما أورد ابن القلانسي أن حشود الصليبيين في معرة النعمان قد تسلقوا بالسلالم على أسوارها، وكشفوا المسلمين من فوق الأبراج، وأعطوهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وبعدما سيطر الصليبيون، لجأ الناس إلى بيوتهم للاحتماء بها، غدروا بهم، ولم يوفوا بشيء وعدوه، وارتكبوا المذابح في المدنيين الآمنين[٥].

استمرت جرائم الصليبيين في الشام حتى وصلوا مدينة طرابلس، فاحتلوها وسفكوا دماء أهلها، حتى أنه قدر عدد قتلى المذبحة حوالي سبعة آلاف رجل، والذي أعانهم على حصارها نصارى الشام[٦]، وأورد ريموند أجيل عن أحداث طرابلس متباهياً: " وامتلأت الأرض بدم

(١) سفر حزيقال: الاصحاح التاسع.
(٢) المزمور٥٨: (١٠–١١).
(٣) هونكه، الله ليس كذلك (ص٢٢).
(٤) أجيل، تاريخ الفرنجة(ص١٦٣).
(٥) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٢).
(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٧٣)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(ج٢٨/٢٦٢).

المسلمين، وسدت جثثهم المجرى المائي، وكان من المناظر المبهجة منظر المياه المتدفقة في المجرى المائي وهي تدحرج أجساد فرسان المسلمين إلى طرابلس، وقد فقدت رؤوسها، وفقدنا رجلاً أو رجلين، ويقال أن سبعمائة من المسلمين قد قتلوا، وعاد قادتنا إلى عرقة بالغنائم"(١)، وأورد مؤرخ آخر عن ذلك بقوله: " قتل رجالنا صفوة أهل طرابلس، وكثر القتل وتدفقت الدماء بغزارة حتى بدا وكأن مياه المجرى المائي دماء قانية تدفقت في صهاريج المدينة، واستبد الحزن والأسى بمن تبقى على قيد الحياة من المسلمين المذعورين، وندر أن تجرأ أحدهم على المجازفة بالخروج من بوابات المدينة"(٢).

وسجل ريموند الأجيليري وصفاً مفصلاً وهو يفتخر بمذبحة بيت المقدس كما شاهد، ويقول في ذلك: " قام بعض رجالنا بقطع رؤوس أعدائهم، والبعض الآخر أطلق عليهم السهام، لدرجة أنهم كانوا يتساقطون من فوق الأبراج، وآخرون قاموا بسحبهم على الأرض لمسافات بعيدة إلى أن ألقوا بهم في النيران المشتعلة، بحيث كان في مقدورك أن ترى أكواماً من الجماجم، والأيدي، والأرجل في شوارع المدينة، بحيث أصبح من المشقة بمكان أن يشق الواحد منا طريقه على جثث الرجال والخيول، ولكن هذا شيئاً بسيطاً بالنسبة لما حدث في معبد سليمان، وهو مكان مخصص لإقامة شعائرهم الدينية.. فإن رجالنا كانوا يخوضون في الدماء إلى ركبهم، وبكل شموخ حتى الجزء الأدنى من ظهورهم، حقاً إنه حكم عادل ورائع للرب"(٣).

وجاء في تاريخ المؤرخ المجهول عن تفاصيل مجزرة بيت المقدس: " تعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح، حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى.. وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين، رجالاً ونساء، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم

(١) أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢١٦).

(٢) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٢٩٢).

(٣) بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى(ص١٠٨).

القتل، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد[١]، ولبث الفرنج في القدس أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام[٢].

قتل الفرنج في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، والغالبية منهم أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم[٣]، وعقب المذابح الصليبية سقطت مدينة بيت المقدس التي راح ضحيتها السكان المدنيين الذين دافعوا عنها، وأبيحت أملاك الناس، للنهب مدى ثلاثة أيام متتالية، ألقيت فيها الجثث في الشوارع، وصارت الأجواء حزينة ومخيفة[٤].

وجاء في كتاب حضارة العرب أن المؤرخ الراهب روبرت قال عن أحداث مجزرة بيت المقدس: " كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت، ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستثنون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد، بغية السرعة، فيا للعجب، يا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة الناس من غير مقاومة"[٥]، وكتب ريموند أجيل: " لقد حدث ما هو عجيب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعض العرب، وبقرت بطون بعضهم، وقذفت بعضهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب، أيديهم، وأرجلهم، وكان المرء لا يمر إلا على جثث القتلى منهم، وذلك كله بعض ما أصابهم"[٦].

ويروي المؤرخ الفرنجي أن ذلك قضاء عادلاً من الرب أمضاه في من دنسوا هيكل السيد بشعائرهم وحرموه على شعبه المؤمن، فلابد أن يكفروا على خطيئتهم بالموت، وأن تطهر الأماكن المقدسة بإهراق دمائهم، ومن الصعب أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يسيطر عليه الفزع، فقد كانت الأشلاء البشرية في كل مكان، ودماؤهم غطت الأرض، ولم يكن النظر إلى

---

(١) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١١٩-١٢١).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ج٨/٤٢٥)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٢/٢١١).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٢٥).

(٤) براور، عالم الصليبيين(ص٤٧).

(٥) لوبون، حضارة العرب(ص٣٣٧).

(٦) المصدر السابق(ص٣٥٢-٣٥٤).

الجثث التي فارقتها رؤوسها، ورؤية الأعضاء المقطعة والمتناثرة في جميع الأرجاء وحدها أثارت الرعب، بل أيضا منظر الفرنج أنفسهم قد تخضبوا بالدماء التي غطتهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، فكان منظراً مروعاً لقلوب من قابلوهم في بيت المقدس(١).

وتوسعت دائرة الجرائم الصليبية حتى وصلت في سنة(٤٩٢هـ/١٠٩٨م) مدينتي الرها وسروج(٢)، وهاجم ريموند مدينتي روحة وألبرة(٣)، وقتل سكانها(٤)، كما احتل بلدوين مدينة طرسوس(٥)، وأخذ عدة مدن عنوة(٦)، أهمها تل باشر(٧)، وقام تنكريد بغارة على عسقلان، ونصب جيشه الكمائن للمسلمين، واستخدموا السهام والنبال والسيوف ضد أهل البلد، ويصف المؤرخ المجهول أن جيش الفرنج ذبحوا الشباب كذبح الأغنام في السوق، كما أنهم قتلوا جمعاً كبيراً من السكان على شاطئ البحر(٨).

وسقطت مدينة قيسارية(٩) تحت حد السيف الصليبي، وقتلوا أهلها، ونهبوا ما فيها(١٠)، واقتحموا كذلك سنة (٤٩٦هـ/١١٠٢م)، الرها وقتلوا الكثير من أهلها(١١)، وبنفس السنة انتقلوا

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١٢٧).

(٢) الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان(ص٣٠٨).

(٣) ناحية حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة. ياقوت، معجم البلدان(ج١/ص٣٢٠).

(٤) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٤).

(٥) طرسوس: مدينة سورية مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا، وصارت في يد الإفرنج، نسبوا إليها أبا عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الخواص المقرئ الطرسوسي. ياقوت، معجم البلدان(ج٤/٣٠).

(٦) الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس(ص٥٢).

(٧) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة. ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٤٠).

(٨) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١٢٣).

(٩) قيسارية: مدينة ساحلية فلسطينية تقع جنوب حيفا، بينها وبين الرملة على ضفة البحر اثنان وثلاثون ميلاً، ومنها إلى مدينة عكا ستة وثلاثون ميلاً. العزيزي، المسالك والممالك(ص١٠٢).

(١٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٤/٣٧٧).

(١١) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٤٨).

إلى حلب[١]، فأفسدوا ونهبوا وقتلوا من وجدوا[٢]، وفي سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م)، أغاروا على مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال؛ ونهبوا الأمتعة والأموال، ثم أخذوا مدينة جبلة[٣] بعدها بعشر ليال[٤].

واستكمالاً لما سبق فقد أورد أبو الفداء صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر، عن ما يدل على غدر الصليبيين لأهالي صيدا، حيث إنه في مطلع (٥٠٤هـ/١١١٠م)، دخلوها بالأمان، ثم ملكوها بالسيف وقتلوا من أهلها ألفي رجل وأسروا الباقين[٥]، وفي سنة (٥١١هـ/١١١٧م)، أغار الفرنج على ربض حماه فقتلوا خلقاً كثيراً[٦]، يقدروا بما يزيد على مائة رجل[٧].

ج- استخدام الصليبين الأسلحة الفتاكة ضد أهل الشام

نفذ الصليبيون مجازر متتابعة في بلد الشام باستخدام أسلحة يحرم استخدامها دولياً ضد البشر، أدناها الأقواس ذات السهام المضادة للدروع كانت بيد الفقراء من الصليبيين، لكن تأثيرها قوي عندما يطلق مجموعة من الرماة موجة من السهام، فهي قادرة على الفتك بأي جماعة من الناس وتأثيرها الوحيد هو الموت المؤكد[٨]، لدرجة أن البابوات سعوا في القرن الثاني عشر إلى حظر استخدامها في معاهدة الأسلحة، ولكن المعروف أن هذا السلاح استخدمه الجيش الصليبي بكثرة خلال حملاتهم في بلاد الشام، وعلى الأخص فترة قيادة جودفري[٩]، كانت للسّهام الخطاية دور كبير في عتاد الصليبيين في الشام، وهي سهام عظام يرمى بها عن قسيّ

---

(١) تقع في سوريا ومن المدن الجميلة يحيطها سور ضخم ارتفاعه فكان خمساً وعشرين ذراعاً وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها من الصخر، مدينة عامرة أبنيتها متلاصقة وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق. خسرو، سفر نامة(ص٤٤).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٥٨).

(٣) جبلة: بلدة على سواحل سوريا، وتعد من سواحل مدينة حمص. ابن الفقيه، البلدان(ص١٦١).

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/٢١١).

(٥) المختصر في أخبار البشر(ج٢/٢٢٤).

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/٢٢٣).

(٧) الذهبي، تاريخ الإسلام(ج٤٣/٥).

(8) Asbrdge ,The first crusade (p53).

(9) Asbrdge ,The first crusade (p54).

تكاد تخرق الحجر، ومنها: مكاحل البارود؛ وهي المدافع التي يرمى عنها بالنّفط؛ وحالها مختلف: فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصريّ، ومنها الستائر؛ وهي آلات الوقاية من الطوارق وما في معناها مما يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك[١].

استخدم الصليبيون الحراب، والمذارق[٢]، والسيوف[٣] والأرماح، والخناجر والمقاليع التي تستخدم لرشق الحجارة والطابات الرصاصية، وكذلك القوس والنشاب بأنواع غريبة عن العرب، ثم إن قادتهم ورؤساءهم كانوا لابسين دروع من حديد أو من بولاد، والجنود ركاب الخيل كانوا يحملون الدرق، والأترس المدورة والمربعة، ثم الأترس الطويلة التي يمكنها أن تحجب الجسم كله في خباها[٤]، كما استخدموا الدّبّوس ويسمّى بالعامود؛ وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها، ومنها التّرس، وهو الآلة التي يتقى بها الضرب والرمي عن الوجه ونحوه، وتسمى: الجنّة أيضاً، بضم الجيم، أخذا من الاجتنان وهو الاختفاء؛ وربما قيل لها: الحجفة[٥].

أما التسليح البحري للصليبيين كان له النصيب الأكبر من خلال توفير القوارب الضخمة، وذكر أبو الفداء عنها:" مراكب مقبية[٦] بالخشب الملبس بجلود الجواميس، وكانوا يرمون النشاب والجروخ، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة، ومن جهة يميننا من البحر، وأحضروا بطسة فيها منجنيق[٧].

ولدك حصون المسلمين استخدم الصليبيون المجانيق[٨]، والأبراج الخشبية، والدبابات، الواحدة منها كأنها دابة الأرض التي تقوم عندها القيامة[٩].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى(ج٢/١٥٣).

(٢) مذرق به: رمي به، والمذرق هو من أدوات الرمي. انظر: رضا، معجم متن اللغة(ج٥/٢٦٦).

(٣) اعتمد الجيش الصليبي على السيوف في القتال. الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣١٤).

(٤) مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة بحروب الصليب(مج١/٥١).

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى(ج٢/١٥١).

(٦) القبو: الطاق المعقود بعضه إلى بعض، وقبوت البناء: رفعته، والسماء "مقبوة" و "مقبية". ينظر: مجمع بحار الأنوار(ج٤/٢٠٤).

(٧) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٤/٢٥).

(٨) أثناء حصار المدن أمر قادة النصارى ببناء آلات حربية قادرة على قذف الأحجار الضخمة لتدك الأسوار والأبراج، وتبث الفزع في قلوب المقيمين داخل المدينة. الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/٢٨).

(٩) الأصفهاني، الفتح القسي(ج١/٢٧١).

ووكما استخدموا المجانيق أو المناجيق، والمنجنيقات: لفظ أعجمى معرب، فهو في اللاتينية (Mangonellus)، وفى الفرنسية (Mangonneou)، وفى الانجليزية (Mangonel)، وهو آلة من آلات الحصار في العصور الوسطى، يقوم مقام المدفع الحالي(١)، وإن كانت قذائفه من الحجارة، وقد وصفه القلقشندي أنه: " آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئا إلا أهلكه، وهي اللّوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمي به الحجر" (٢)، اعتمد عليه الصليبيون في دك حصون وقلاع المدن في بلاد الشام(٣)، ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب بقوس اليد والجروخ(٤).

وكما استخدم قادة الحملات الصليبية آلة تسمى دبابة(٥) يدخل تحتها عدد كبير من الجنود، ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجلات تحرك به من داخل وفيها المقاتلين، ولها رأس ضخم يستخدم لنطح السور بشدة، وتسمى أيضاً كبشاً، رأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها، ورأس البرج مدور تسمى سنورا، ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة(٦).

تكونت أسلحة الأسطول الحربي الصليبي من مراكب، وشوانى(٧)، وفيها رماة الجرخ(٨) والزّنبورك(٩)، يرمون من اقترب من البحر، والزيار(١٠)، وأعدوا في البحر بطسة هائلة وضعوا

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب(ج١/١٨٠).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى(ج٢/١٥٢).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج١٠/٦١).

(٤) المصدر السابق(ج١٠/٦١).

(٥) كانت الدبابات الصليبية الخشبية التي تشبه الأبراج في ارتفاعها واتساعها وكثرة المقاتلين فيها ضمن المقدرات العسكرية الصليبية. ابن واصل، مفرج الكروب(ج٢/١٤).

(٦) ابن شداد، النوادر السلطانية(ج١/٦٠).

(٧) شَوَانِي: هي السفن، ولعلها مأخوذة من شونة، لأنها كانت تحمل فيها الغلال فيما مضى. انظر: تيمور، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية(ج٤/٢٥١).

(٨) الجرخ: هو آلة إطلاق السهام. ابن شداد، النوادر السلطانية(ص٦١).

(٩) الزنبروك: حرم بسبب خطورته، هوسهم يبلغ سمكه اصبع الابهام، وطوله يصل إلى طول ذراع الإنسان، وله أربعة أوجه، وطرفه من الحديد، وطلقته سريعة تخترق رجلين جالسين أحدهما خلف الآخر بزيهما العسكري ودروعهما، وكان هذا السلاح قد حرم ولكن الصليبيون استخدموه ضد أهل الشام. شاهين، هدنة الرملة والظروف المحيطة بها(ج١/٣٧٠).

(١٠) ابن واصل، مفرج الكروب (ج٢/٢٤٤) ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ج٥/١٨٤).

فيها برجاً بخرطوم إذا أرادوا قلبه في السور انقلب بالحركات ويبقي طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه تمشي عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذباب ليأخذوه به[١].

٢- انتهاكات الصليبين حق الأمن العام في بلاد الشام

أقرت الشرائع السماوية، والأعراف الإنسانية، وكل مجتمعات العالم، وعلى مر العصور، بحق الإنسان بالعيش في وطنه بأمان، ودلت آيات القرآن الكريم على أهمية الأمن في حياة الناس، حيث قال تعالى: **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}**[٢]، وهذا الحق افتقده سكان الشام خلال فترة الصليبيين ومكوثهم فيها، فكيف ينسب الأمن والاستقرار إلى بلاد الشام وهي تحت وطأة الهجمات الصليبية المتكررة؟ وكيف يأتي الشعور بالاستقرار والأمن للمواطن في بلاد الشام عندما تكون المجازر والجرائم الصليبية على مرأى ومسمع الجميع في الشام؟

ألقى الصليبيون رؤوس مائتين من المسلمين بالمجانيق، إلى داخل أنطاكية، ولم يملك الناس سوى البكاء والعويل، حينما شاهدوا الكثير من الرؤوس وضعت على ساريات، نصبها الصليبيون أمام المدينة، لكي يزيدوا من مضاعفة ألام وخوف المواطنين[٣]، ورغم ذلك كله كان حال سكان مدن الشام هو الصبر والثبات أمام هذه المحن كما يقول سبحانه تعالى: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}**[٤].

وتعمد الصليبيون في إحداث الإرباك النفسي للأهالي، فلما اقتحموا أنطاكية ارتكبوا مجزة هائلة، وألقوا بالقتلى في النهر، وفي اليوم التالي جاء ذويهم واستخرجوا الجثث، ودفنوهم في خندق واحد، بعدها أخرج الصليبيون الجثث وقطعوا رؤوسها، وأرسلت الرؤوس إلى معسكر ليعرف الجميع عدد القتلى، وحملت الرؤوس إلى أمير مصر بواسطة أربعة جياد، فلما رأى المسلمون هذا المنظر تسلل إلى قلوبهم الحزن والحسرة، وكانوا يبكون كل يوم على قتلاهم[٥]،

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية(ج١/٦٠).

(٢) سورة قريش: [٣].

(٣) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣١٥).

(٤) سورة آل عمران: [١٧٣] .

(٥) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص٦٣).

وأورد الشارتري أن الصليبين أثناء حصارهم لمدينة أنطاكية قتلوا في يوم واحد سبعمائة فرد من المسلمين في بلاد الشام[1].

أخاف الصليبيون مواطني الشام، وغدروا بالأهالي عندما أمنوهم على أرواحهم، وارتكبوا بحقهم الفظائع ونقضوا العهود معهم، كيف يا ترى أن يجد الناس بواعث الأمن من هؤلاء؟ وهل يعقل أن يصدق السكان أي مأمن من جانب هؤلاء بعد تلك التصرفات الصليبية المجحفة بحقهم؟[2].

واستمر مسلسل الانتهاكات الصليبية الظالمة في بلاد الشام، حيث هاجم ريموند بيليه بجيشه المكون من ثلاثمائة جندي يبحثون عن حاجات المعيشة الضرورية والعلف في مدرسوس[3]، وقاومهم الأهالي طيلة الليلة بإمكانيات متواضعة، واستمر القتال لليوم التالي، وتجمع الجيش الصليبي بأكثر عدد من ذي قبل، غير أن الخوف تسرب إلى قلوب أهل البلد وهربوا بأرواحهم ونسائهم وأطفالهم وفروا إلى الجبال[4].

يمكن القول أن الصليبيين انتهكوا حق الأمن والأمان، وغيبوا والاستقرار النفسي لسكان الشام، وأفقدوهم الشعور بالطمأنينة، وصار الناس يخافون على أولادهم وأموالهم، وحتى مشاريعهم البسيطة التي تساعدهم في الحياة لتوفير احتياجاتهم الأولية، لم يجدوا فيه نفعاً، وكان الجميع يعرف أن الاحتلال الصليبي لا يؤمن جانبه لأنهم طامعين في كل شيء في يد المسلمين، وذلك نظراً لمعاداة الصليبيين للمسلمين في دينهم وحياتهم بكل اتجاهاتها، ولأن المجتمع الصحي مبني في تركيب مكوناته على نبذ الجريمة والرذيلة، ويسوده السلام والحرية، وهذا ما فعل عكسه الصليبيون الذين جاءوا من ثقافات أوروبية متعددة حاملين معهم الأحقاد التي ظهرت عندما اشتد الفزع بأهالي الشام، الأمر الذي نتج عنه انتهاك مباشر لحقوق المواطنين السيادية في عيشهم وإدارة حياتهم.

---

(١) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١١٠).

(٢) أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٦٩).

(٣) مدينة في سوريا الحالية، وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب. ياقوت، معجم البلدان(ج٤/٢٨).

(٤) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٤٨).

أ- تهجير الصليبيين القسري لسكان الشام واضطهادهم

تراكم لدى أهالي الشام وفلسطين مخاوف كبيرة على حياتهم، نتيجة انتهاكات الصليبيين لحقهم في العيش بأمان وكرامة، وذلك بعد علمهم ودرايتهم عن إجرام الجيش الصليبي، ولهذا السبب فرَّ الناس من بيوتهم وهاجروا جماعات، وخرجت عائلات بأكملها من مدنهم[١]، وهناك نماذج عديدة لهذا الحال الذي انطبق عليه قوله عز وجل: { **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**}[٢].

نزح أهل حلب عن مدينتهم بفعل الهجوم الفرنجي عليهم، وظهر فرار الكثير من العائلات، وتشتت الصغار والكبار، وتركوا الديار، وذلك لما شاهدوه من جرائم، ومن سبي لنسائهم، ونهب هؤلاء الغزاة لأموالهم، واضطربت أحوال البلد، وفاجأهم خيل الفرنج وقتلوا جماعة كبيرة من الناس[٣]، وحل الخوف محل الأمن، ولجأ الكثير من الناس إلى قرى الجوار، وكانت نكبة حلب عظيمة[٤].

يوضح الشارتري كيف دعا أوربان الثاني الفرنجة في اجتماع كليرمونت لاضطهاد وتهجير المسلمين في مدن الشام عندما قال: " أن يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا" [٥]، ونفذ الفرنجة هذه التعليمات حرفياً، بالقوة العسكرية وطردوا الأهالي وهجروهم بالقوة إلى مناطق ومدن أخرى، وأقاموا محلهم مستوطناتهم الصليبية[٦]، حيث وردت معلومات تاريخية عن الكثير من الأحداث التي تبين هجرة مواطني الشام من مدنهم وقراهم، ومثال ذلك هجرة أهل

---

(١) أصبحت البيوت لا تحمي أصحابها عندما لجأ الناس في معرة النعمان للاحتماء بها، فأمنهم الصليبيون، وغدروا بهم، ورفعوا صلبانهم فوق البلد، ونهبوا ما وجدوا، وطالبوا الناس بما لا يطيقونه. ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/٢٢٢).

(٢) سورة الحج: [٣٩-٤٠].

(٣) تعرض مدينة حلب للهجوم الصليبي عليها سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م). ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٥٠).

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٤٩).

(٥) تاريخ الحملة(ص٣٦).

(٦) شاهين، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٥).

رفينة وهي مدينة جميلة تقع في أحد الأودية قرب معرة النعمان، احتلها الفرنج بعد فرارا سكانها، وتركوا حقولهم الغنية بالخضروات، ومنازلهم المليئة بالأطعمة[١].

وظهرت حركة هجرة الأهالي وهروبهم من بيوتهم في مدينة عرقة[٢] إلى المدن المجاورة بسبب خوفهم على حياتهم من الهجمات الصليبية[٣]، ليصلوا إلى أماكن أكثر أمناً، ويعودوا إليها بعدما تهدأ الأوضاع، وعن فظائعهم في القدس وصفهم المؤرخ الروسي بقوله:" الإفرنج لا يشفقون على أحد، حتى الذين يتوسلون الرحمة عندما سقط المسلمون تحت ضرباتهم"[٤]، لذا لما سار حاكم أنطاكية الإفرنجي إلى حصن زردنا، حاصره ثم اقتحمه، وفعل بأهله مثل الأثارب من التضييق والقهر، فلما سمع أهل منبج[٥] بذلك فارقوها خوفا من الفرنج[٦].

وشهدت البلاد الشامية رحيل عالم لا يحصى عددهم من مدنهم سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، فراراً من الفرنج والغلاء الذي عم أكثر المنطقة كلها[٧]، تعرضت مدينة طرابلس[٨] لحصار مطبق من البر والبحر، ولم يستكف الصليبيون بهذا بل شرعوا في ملاحقة وقتل سكانها[٩].

(١) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس (ص٢٩٠).

(٢) حاصر الصليبيون مدينة عرقة سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٨م). ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٩٣).

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٨٦).

(٤) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص٣).

(٥) مدينة في شمال سوريا، قال عنها ابن جبير: فسيحة الإرجاء صحيحة الهواء لها سور وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار مختلفة الثمار، والماء يطرد فيه ويتخلل جميع نواحيها، وداخلها بآبار، وبها أسواق، شوارعها متسعة ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن، وأعالي أسواقها مسقفة. ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص٢٢٣).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/ص٥٨٤).

(٧) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٢٥).

(٨) مدينة لبنانية، وتسمى أيضا مدينة إياس، وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان، وهي على شاطئ البحر، ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود وحولها أنباط، وبها أشجار كثيفة وآبار . ياقوت، معجم البلدان(ج٤/٢٥).

(٩) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/١٧١).

وعندما علم سكان الرملة –المسلمون– أنباء عبور الجيش الصليبي نهر قريب، تركوا قلاعهم وأسلحتهم، وأيضاً الكثير من الحبوب في الحقل، ومحصولات محصودة[١] والكثير من الغلال، صادرها الصليبيون وحملوها على حيواناتهم ونقلوها إلى القدس[٢].

اضـهد الصـليبيون أهـالي الشـام وتتبعـوهم إلـى أمـاكن المـأوى، وبـدت سياسـة إرهـاب المدنيين معتمدة لدى قادة الصليبيين، لأن الغارات الصليبية لم تكن في النهار فقط وإنما كانت الاقتحامـات فـي الليـل لبيـوت المـدنيين العـزل كمـا عـانى مـنهم أهـل بزاغـة[٣] سـنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)، حيث إنهم قذفوها بالمجانيق، ثم اتجهوا بعدها إلى معرة النعمان في مائة ألف جندي، وسيطروا على البلد بعد أن استسلمت بالأمان، وغدر الصليبيون بالمسلمين بقتل الرجال وسبي النساء، وكان عدد سكانها خمسة آلاف وثمانمائة نسمة، مكثوا عشرة أيام فيها وجيشهم يطارد الأهالي في كل مكان، ويطلبون من اختفى، فعلموا أن جماعة من الناس لجأوا إلى المغارات، لاحقوهم هناك وقتلوهم من غير شفقة[٤].

ب–حرمان أهل الشام من مزاولة الحكم لبلادهم

حرَّم الشرع الإسلامي على المؤمنين أن يوالوا غير المؤمنين فقد حرم عليهم أن يُحكموا غيرهم عليهم لأن الحكم ولاية، وقوله تعالى: { **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ**}[٥]، الأمر الذي دفع المسلمين في بلاد الشام لمقاومة زحف الفرنجـة علـيهم قدر المسـتطاع، وإفشـال تمكين حكم النصـارى علـى المسـلمين، ولكـنهم فرضـوا هيمنـتهم علـى بـلاد الشـام بـالقوة والقهر، وحرمـوا المـواطنين ومسـؤولي الـبلاد مـن إدارة الشـؤون العامة لبلادهم، وانتهكوا للحقوق السيادية، لأن حاكم البلد يستمد سلطته من أبناء أمته، وتتجسد الأمة من مجموع أبنائها، وهم يعرفون بأهل الرأي، وهم يحددون تولية الحاكم للسلطة في الدولة

(١) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢٢٥).

(٢) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٣٠).

(٣) مدينة في سورية، كتب عنها ابن جبير أنها: " بقعة طيبة الثرى واسعة الذّرى، تصغر عن المدن وتكبر عن القرى، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية، والمتاجر الحضرية.. وفي أعلاها قلعة كبيرة حصينة، ولهذه البلدة عين معينة يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة. ابن جبير، رحلة ابن جبير(ج١/٢٠١).

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب(ج١/٧٨).

(٥) [سورة التوبة: ٧١].

ضمن المسائلة، وفي الشريعة الإسلامية تقر بأن الأمة هي مصدر السيادة والسلطة في الدولة[١]، والمجتمع الإسلامي يحكم في إطار أوامر الله حيث يقول عز وجل: { إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٢].

منع الصليبيون مواطني الشام من حرية مزاولة الحكم، بواسطة القوة المسلحة وأعمال التدمير، والحصار واستولوا على ثروات المواطنين وأموالهم، بعدما دمروا القوة الدفاعية لحكام المدن، وأغلقوا منافذ الحياة بكل جوانبها، وطمسوا معالم الأعراف الوطنية لدى أهل الشام التي كانت مستمدة من الإسلام، لهذا بذل الغزاة الفرنج قصاري جهودهم لتقويض مكانة الدين الإسلامي ونفوذه، نشروا شعاراتهم النصرانية في الشام[٣].

وتعمد قادة الجيش الصليبي فرض هيمنتهم على مدن الشام، لكسر سيادة حكامها المسلمين، من خلال إعلان واضح أنهم استولوا على الحكم؛ فنكسوا رايات وأعلام حكام المسلمين، وغيبوا رموزهم الوطنية، ونصبوا بدلاً من ذلك الصليب فوق الأسوار والأبراج العالية[٤]، فقد أورد ريموند أجيل الصليبيين عندما قد استولوا على بيت لحم[٥]، رفعوا فيها رايات قادة جيشهم على كنيستها"[٦].

ونصب الصليبيون رايات زعمائهم في أعلى البنايات عندما اقتحموا أنطاكية[٧]، واعتز الصليبيون بانتصارهم على الناس في مدن الشام، لذا رفعوا الصلبان فوق البلاد وهم ينهبون ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به[٨]، وظهر ذلك منهم عندما هاجموا مدينة نابلس،

---

(١) العيسى، السيادة بين مفهومها التقليدي والمعاصر(ص٤٣).

(٢) [سورة يوسف: ٤٠].

(٣) بونداريسفكي، الغرب ضد العالم الإسلامي(ص٤).

(٤) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/ص٣٩٥).

(٥) وهى قرية بفلسطين ، تلقاء بيت المقدس، وهى التي ولد فيها عيسى عليه السلام. البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع(ج٢٨٩/١).

(٦) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢٤٠).

(٧) الصوري، الحروب الصليبية (ج٣٥٨/١).

(٨) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٢).

وسفكوا دماء أهلها وأسروا من وجده بها من النساء والأطفال، وظلوا بها ثلاثة أيام يقتلون وينهبون، ونصبوا على المساجد صلبانهم[١].

وقد صور عماد الدين الأصفهاني ملامح انتهاكات الفرنجة لحقوق سيادة الحكم في عكا في قوله: " فلم نشعر إلا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه، وأعطاف أعلامها مهزوزة، وما عندنا عِلم بما جرت عليه الحال، وما أحد منا إلا والبال منه قد عراه الوبال، وعم البلاء، وتم القضاء، وعز العزاء، وقنط الرجاء .. وكذلك لم يكن في البلد عدد يفي بصونه، وما كان يضبطه السلطان إلى هذه الغاية لو لم يكن الله في عونه"[٢].

والواقع أن الصليبيين كانوا يستمدون تعاليم الحكم من الكنيسة الغربية، واحتكار السلطة في يد البابا، الأمر دفع الملوك إلى التفكير في إقامة مثل هذه السلطة المطلقة، ليس فقط تقليداً للباباوات وتشبهاً بهم، وإنما خوفاً من سيطرتهم[٣]، وإمعاناً في إصرار الصليبيين للاستيلاء على حكم بلاد الشام بالقوة، ولذلك قتلوا حكام المسلمين في الشام وطاردوهم، حيث أورد وليم الصوري بقوله: " فنجد آثار المذبحة واضحة على أبواب أنطاكية كل الوضوح حول الجسر والنهر الذي تبدل لون مائه، وراح يصب في البحر سيلاً جارفاً من الدماء، لقد قتل في آن واحد اثني عشر من الحكام المسلمين لقوا مصرعهم في القتال، وكانوا خسارة للمدينة لا تعوض، وقتل في هذا اليوم أكثر من ألفي رجل[٤]، وأصبح بوهيمند قائداً عاماً للجيش، وسيد أنطاكية الأوحد بلا منازع[٥].

وتبين أن النجاح بالنسبة لأمراء الحملات الصليبية هو الاستيلاء على مدن الشام من خلال التآمر على قيادة المسلمين باغتيالهم، ونهب أملاكهم وأموالهم وسبي وأهليهم، وتنصيب أنفسهم حكاماً بالقوة في بدلاً منهم، دون الاكتراث لرأي أهل البلاد[٦]، حيث كانت مراكز الحكم

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان(ج١/١٥٧).
(٢) العماد الأصبهاني، الفتح القسي(ج١/٢٧٠).
(٣) عبد الكريم، الدولة والسيادة(ص٢٧).
(٤) الحروب الصليبية(ج١/٣٢٤).
(٥) الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى(ص١٥٠).
(٦) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٢٤).

الإسلامي لمدن الشام في أنطاكية ودمشق تدين بالتبعية الإسمية للخلافة العباسية في بغداد بالتزامن هجوم الصليبيين على المنطقة العربية[١].

واعتمد الصليبيون على خيانة الزرادين[٢] في مدينة أنطاكية، عندما استغلوا الفرصة للانقلاب على حاكمها ياغي سيان[٣]، بسبب إساءة حصلت منه في حقهم، فقد سلموا للغزاة برج من أبراج البلد وباعوه لهم، وساعدوهم على اقتحام البلد في الليل[٤]، واستخدم الصليبيون كل الأساليب والخدع لإخضاع المدينة تحت سيطرتهم، فقادهم فيروز[٥] بنفسه إلى داخل المدينة[٦] وقبل ذلك أعطى ابنه رهينة للصليبيين لكي يثقوا فيه، فساعدهم على التسلق من فوق الأسوار، وفتح لهم البوابات، وقتلوا ستين من المسلمين الذين وجدوهم يحرسون الأبراج، ومع مطلع الفجر اقتحموا المدينة[٧]، فاستولوا على عشرة أبراج من ضواحيها بعد أن ذبحوا جميع حراسها[٨].

أيقن ياغي سيان بسقوط مدينته، وحينها دخل الصليبيون البلد من الباب ونهبوها، وقتلوا من فيها من المسلمين[٩]، وعندما هرب ياغي سيان، سأل من معه: أين أنا؟ قال له: على أربعة فراسخ

---

(١) يوشع براور، الصليبيون في الشرق(ص٤٤)

(٢) الزرادين نسبة إلى زراد، والذي يعرف بروزبة، وبذلوا له مالاً وأقطاعاً، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي. انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤١٧).

(٣) ياغي سيان: ظهرت من شجاعته في إدارة البلد أثناء الحصار، ورجاحة رأيه، وحزمه، واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج موتاً، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام، وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم على أبواب المدينة. ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤١٧).

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٠).

(٥) فيروز، من عائلة "زردة" المسيحية، التي تعنى باللغة اللاتينية، وكان فيروز واسع النفوذ والجاه وكبير عشيرته، وكان صديق والي أنطاكية " ياغي سيان" الذي أعطاه الكثير من النعم، وكان كاتم السر في القصر إلى جانب توليه الوظائف السامية، حرص على الصداقة مع بوهيمند قائد الحملة، الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣٣٥).

(٦) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣٣٦).

(٧) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٥٨).

(٨) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/ص٣٥٦).

(٩) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب (ص٢٣٩).

من أنطاكية، فندم ولشدة ما لحق به سقط عن فرسه مغشياً عليه، وعندما مر به شخص أرمني كان يقطع الحطب، قتله وأخذ رأسه إلى الفرنج بأنطاكية[١].

واستغل الصليبيون الخلاف بين الخليفة العباسي في بغداد مع الأتراك وتشجعوا في تهديد الحاميات الإسلامية وأرادوا خضوعهم[٢]، حيث كانوا يطلبون من أمراء مدن الشام الاستسلام، بالإضافة إلى الطاعة والولاء لهم، ودفع الإتاوة، مثلما فعل أمير طرابلس إلى رفع رايات كونت ريموند دي تولوز على أسوار مدينته، وأبدى استعداده للطاعة والولاء، متعهداً بدفع الأموال لهم[٣]، وفي أثناء ذلك زحف قسم من الجيش اللاتيني إلى طرسوس التي تم احتلالها بعد أن هرب حاكمها وسكانها في جنح الظلام[٤].

هرب حاكم طرسوس الذي كان تابعاً لأمير طرابلس، بعدما تملكه الخوف والذعر الشديد، فرحل عن حاميته بحراً أثناء الليل، وفي الصباح فتحت أبواب المدينة للصليبيين، وسارع حاكم مدينة مرقية[٥] الواقعة على بعد عشرة أميال إلى الشمال بالاعتراف بسلطان ريموند[٦].

وهرب والي بيروت مع أصحابه عندما أيقن بالهلاك إثر سيطرة قوات الإفرنج على المدينة حينها قتلوا من كان معه، وصادروا أموالهم، ونهبوا البلد وسبوا من كان فيه وأسروا الرجال واستولوا على الذخائر والأموال[٧]، وانتهز الفرنج فرصة خلافات داخلية على الحكم لأهل طرابلس، حينها هاجموا المدينة بعد حصارها ثلاثة أيام، وصعدوا بالسّلالم وسيطروا بالسيف وسفكوا دماء أهلها سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م)، خصوصاً لما سمعوا في المدينة ضجة عظيمة،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤١٧-٤١٨).

(٢) موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى(ص١٠٧).

(٣) الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى(ص١٥٣).

(٤) المرجع السابق(ص١٥٣).

(٥) مرقية: مدينة من سواحل حمص السورية، وذكرت أنها قلعة حصينة. ياقوت، معجم البلدان(ج٥/ص١٠٩).

(٦) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية (ج١/٤١١).

(٧) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٦٩)؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص١٦٨).

وخلت الأسوار من المقاتلين، وكان سببه أن طائفة منهم أرادت تقديم رجل من الملثمين ليكون أميرهم، وأرادت طائفة أخرى تقديم بني مطروح، فوقع الحرب بين الطائفتين(١).

بالفعل حاصر الصليبيون مدينة جبلة التي أسرع حاكمها المصري الفاطمي(٢) بالتودد إليهم ومهادنتهم، وتعهد بدفع مبلغ من المال، فضلاً عن الخيل والهدايا النفيسة(٣)، واحتلها الصليبيون وأخذوها منه بالأمان على أن يترك المدينة(٤).

كان حاكم مدينة بيت المقدس افتخار الدولة من قبل المستعلي خليفة مصر(٥)، ولكن بعد الاعتداءات الصليبية على صار "جودفري" ملكاً على القدس، ومات بها، وبعده شقيقه بلدوين(٦). وملكوا مع ذلك يافا وما بأيديهم من أعمال الأردن وفلسطين(٧)، ثم حاصرت قوات الفرنج مدينة عكا براً وبحراً(٨).

---

(١) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج٢٧/ص٢٣).

(٢) فخر الملك بن عمار، الذي كان صاحب طرابلس، وكان القوت فيها قليلا، فقاتلها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة بالأمان، وخرج فخر الملك بن عمار سالماً. ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/ص٥٧٩).

(٣) الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى(ص١٥٤).

(٤) ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/ص١٨٠-١٨١).

(٥) ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/ص١٤٨).

(٦) الطباع، اتحاف الأعزة في تاريخ غزة (ص٢١٧). انظر: المفصل في تاريخ القدس للعارف ، ص١٤٧-١٦٥ ؛ رينسمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج٢/ص١٠٤).

(٧) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا(ج٣/ص٢٦).

(٨) فر والي عكا الذي عينه الأفضل، زهر الدولة بنا الجيوشي إلى دمشق أثناء حصار بلدوين لها. المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/ص٣٤).

المبحث الثالث: انتهاكات الصليبيين لحقوق أهالي الشام الخاصة

الحقوق الخاصة التي انتهكها الصليبيون في بلاد الشام، والتي تمس الإنسان بشكل مباشر في شخصيته وكرامته وجسده، وأشكال ذلك كثير منها:

أولاً: انتهاكات الصليبيين لحقوق الأسرى في بلاد الشام

انتهك الصليبيون حقوق الأسرى في بلاد الشام، والتي تصنف ضمن الحقوق السيادية الخاصة للإنسان والتي تمس كرامته، إذا ما وقع أسيراً في يد جيش معادي لبلده، فلا يجوز اعتقال أي إنسان من غير جرم ارتكبه، ولكل شخص الحق في المساواة مع الآخرين أمام المحاكم للفصل في حقوقه والتزاماته بأي تهمة جنائية، وكل شخص برئ حتى تثبت إدانته، ولا يجوز احتجاز المواطنين المدنيين بشكل جماعي في حالة القتال مع الجهات المعادية، لأسباب تعود على الدين أو العنصرية، ولا يجوز تعذيبهم أو أخذهم رهائن، قال عز وجل: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**}(١).

ارتكب الصليبيون كافة المخالفات الشرعية لحقوق المسلمين الأسرى في بلاد الشام ومنها:

١- إعدام أسرى المسلمين على أيدي الصليبيين في بلاد الشام

حثت الشريعة الإسلامية على معاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية في جميع الأحوال، ويحظر على الدولة الغازية أن تقترف أي فعل أو إهمال غير مشروع يسبب موت أسير في عهدتها، كما في قوله عز وجل:{ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا**}(٢)، وفي حديث حسن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالأسارى خيراً)(٣).

أساء الصليبيون معاملة الأسرى العزل، وأثناء اقتحامهم مدن الشام، ولم يكونوا هؤلاء المعتقلين من المقاتلين، وإنما قتلوهم وأرادوا نهب أموالهم وممتلكاتهم، لذلك هرب السكان من بيوتهم ودكاكينهم، وفروا بأرواحهم إلى المغارات، والكهوف، وأعالي الجبال، بعيداً عن الاعتقال،

---

(١) سورة المائدة: [٨٧].

(٢) سورة الإنسان: [٨].

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد: ٦/٨٦، رقم الحديث: ١٠٠٠٧.

والتنكيل، والقتل، وظهر ذلك جلياً عندما تجمع الجيش الصليبي في أنطاكية لمناقشة خططهم، حينها قدم عليهم جودفري من تل بشير ومعه رؤوس جميع الأسرى الذين أسرهم في غاراته على تلك المنطقة(١).

ويلاحظ من خلال الدراسة أن معظم السكان وقعوا أسرى بشكل جماعي في قبضة الصليبيين عندما اجتاحوا بقواتهم مدن الشام، وشهد أهالي مدينة معرة النعمان الذين وقعوا ضحية لتلك الاعتداءات، حيث أمر بوهيمند بالنداء- على لسان المترجم- زعماء المسلمين باللجوء هم ونساؤهم وأطفالهم، وكل ما يحملونه من أمتعة، إلى قصر واقع جنوب الميناء، وقطع على نفسه عهداً أمن به الأهالي على حياتهم، وبعدها اقتحم رجاله المدينة واستحوذ كل جندي منهم على شيء ثمين سلبه من المنازل، فلما طلع الصبح صاروا يقتلون كل واحد يجدوه، رجلاً، أو امرأة، أو شيخاً كبيراً، حتى لم يعد مكان في المدينة خالي من جثث المسلمين(٢).

وغدر بوهيمند بالمعتقلين عندما حدد لهم قاعة كبيرة بالقرب من البوابة الرئيسة، حيث لجأوا إليها ولم يمسهم بسوء في البداية، وفي هذه اللحظات كان الأهالي يحصنون منازلهم، وصهاريج مياههم، وعرضوا دفع ضريبة يفتدون بها أرواحهم، وهرب آخرون إلى القاعة التي أشار إليها بوهيموند، واستأنف الصليبيون التقتيل حتى صباح اليوم التالي؛ فلم يبق أحداً من المواطنين على قيد الحياة، واندفع الصليبيون إلى داخل المدينة، وهم يجهزون على كل من يقابلهم، واقتحموا المنازل، ونهبوها، ثم أحرقوها، وأما الذين لجأوا إلى القاعة معتمدين على حماية بوهيمند؛ فقد ذبحوا(٣).

لم ينته مسلسل الجرائم الإفرنجية الصليبية عند هذا الحد من إبادة الأسرى، وإنما أنشأوا لهم معتقلات ميدانية؛ لتعذيب المواطنين الأبرياء، ومن شدة هول ذلك؛ اختبأ المسلمون في كهوف تحت الأرض، وخليت الشوارع من الناس، وسرق النصارى كل السلع التي كانت فوق الأرض، ودفعهم الأمل في الحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض، فأطلقوا

(١) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٥).
(٢) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١٠٦).
(٣) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٧).

الدخان على المسلمين؛ لإخراجهم من كهوفهم باستخدامهم النار والأبخرة الكبريتية، أخرجوهم وقيدوهم، واعتقلوهم، وعندما فشلوا في نهب ما يأملون من المسلمين عذبوهم حتى الموت[1].

كمن الصليبيون لجماعة من العرب كانوا قد وفدوا من أماكن بعيدة لنجدة أهل المعرة ومساعدتهم، ويصف المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن هؤلاء تميزوا بالشجاعة، ووصفهم بالأشراف، حيث كانت الأحوال صعبة، ومن شدة صعوبة الموقف لم يستطيعوا التقدم، كما منعهم الجيش الصليبي من استكمال رسالتهم الإنسانية؛ بل اعتقلوهم وعذبوهم، ودقوا أعناقهم وهشموا عظامهم، حتى لم يبقَ منهم شيء يدل عليهم[2].

وفي كفر طاب اقتسم أمراء الجيش الصليبي أسرى المسلمين الذين اعتقلوهم؛ كي يبيعوهم، أو يفدوهم بمال، ولكن أمير الجيوش جاء ناحية الذين أصبحوا من حصته؛ فضرب رقابهم جميعاً، ثم توجه إلى حلب، وافترقت المجموعات العسكرية[3].

ويروي مؤرخ الحملة روبرت عن تصرفات الصليبيين مع الأسرى العرب في بيت المقدس، بقوله: " أحضر بوهيمند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم، وضعفاهم، واقتياد فتيانهم، وكهولهم إلى أنطاكية؛ لكي يباعوا فيها"[4].

وخلال غارات الجيش الصليبي على مدن الشام، كانوا يدمرون بيوت المدنيين العزل، ويأسرون أصحابها، وظهر ذلك عندما سار جمع كثير من الفرنج في الشام إلى مدينة حماة[5]، وكثر جمعهم من الفرسان، والرجالة؛ طمعاً في النهب وشنوا الغارة وخربوا القرى، وأحرقوا، وأسروا، وقتلوا أهل البلد[6]، ولما وصل الصليبيون إلى سروج؛ تسلموها، وقتلوا أهلها، واعتقلوهم، إلا من

---

(١) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٦٩)؛ الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٣٧).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣٦٠).

(٣) ابن منقذ، الاعتبار (ص٧٧).

(٤) لوبون، حضارة العرب(ص٣٣٧).

(٥) مدينة في سورية، اشتد حصار الفرنج لها وطال زحفهم عليها، حتى إنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا بالسيف، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور، وأقام الفرنج كذلك على حماة أربعة أيام ثم رحلوا عنها إلى حارم. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ج٢٧/١١٦).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٤٣٥).

أفلت منهم هارباً[١]، ولما احتل الفرنج مدينة عكا؛ أسروا من بها من المسلمين، وحاربوا أهلها، حتى أنهم قتلوا جميع من أسروه من المواطنين[٢].

وقد أورد توديبود في كتابه" تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس"، أن الصليبين عندما اقتحموا حصناً للمسلمين جنوب أنطاكية، وتحديداً بالقرب من معرة النعمان، أُطلق عليه " تل منس" وأسروا كل من فيه، وعفوا عن من اعترف بالمسيح كمخلصهم، ورغبوا في أن يعمدوه، وقتلوا كل من رفض اعتناق النصرانية، وبعد ذلك عادوا فرحين إلى معرة النعمان[٣]، وأورد عن جريمة أخرى بحق الأسرى مفصلاً ذلك بأنه: " قام رجالنا بقطع رؤوس المسلمين بسيوفهم، ومثلوا بهم، وألقى آخرون من الكفرة (المسلمين) بأنفسهم على الأرض متذللين من الفزع تحت أقدام الفرنج، وقام رجالنا بذبحهم، كما يذبح الشخص الماشية في سوق اللحم، وعلى ساحل البحر قام ريموند كونت صنجيل بقتل عدد لا يحصى منهم، ومن لم يستطع منهم الهرب ألقى بنفسه في البحر وفر آخرون إلى عسقلان"[٤].

وبأوامر من ريتشارد قلب الأسد، أن يتخلص جيش الإنجليز من الأسرى العرب[٥]، بعد تذرعه أن صلاح الدين الأيوبي قد أخل بتعهده معه؛ ولذلك تعمد مع سبق الإصرار على قتلهم، وأمر بذبحهم في مدينة عكا، وكان عددهم ألفين وسبعمائة أسيراً، وقُتلت زوجاتهم، وأطفالهم إلى جوارهم، واستثنوا من ذلك القليل من أقوياء البنية؛ لاستخدامهم في أعمال السخرة[٦].

وقتل- ريتشارد- قلب الأسد ثلاثة آلاف أسيراً مسلماً، سلموا أنفسهم إليه، بعد أن قطع لهم عهداً بحقن دمائهم، وأما من جانب المسلمين؛ فلم يتأثر صلاح الدين بهذا السلوك؛ ولكنه رحم نصارى القدس؛ فلم يمسهم بأذى؛ ولذلك أمد فيليب، وريتشارد ريكاردوس بالأزواد

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٤).

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار (ج٢/٤٠٨).

(٣) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٢٥٦).

(٤) المصدر السابق(ص٣٤٠).

(٥) سنة ١١٩١م، نفد ريتشارد قلب الأسد مذبحة بحق الأسرى، حيث أمر بإحضار جميع المسلمين الذين أسرهم، وأوقفهم بين الجيشين المسيحي والاسلامي، وكانوا أقرب ناحية المسلمين حتى يرونهم بوضوح، ثم أمر بقطع رقابهم، وتم تنفيذ الاعدام الميداني بحقهم، وكانوا ستة عشر ألف محارب، يبدو أن هذا العدد مجموع أولادهم وزوجاتهم في المجزرة. حبشي، ذيل وليم الصوري(ص٢١٢).

(٦) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج٣/٩٢).

والمرطبات في أثناء مرضهما؛ فقد اتسعت الهوة العميقة بين تفكير القائد الأصيل، وعواطفه وتفكير الرجل المتوحش، ونزواته[1].

أورد أحد الناجين من أهل القدس رواية إعدام الفرنج للأسرى في داره؛ فقال: " قبض الفرنج على ثمانية عشر رجلاً، قبضوا عليهم في الطريق، وأودعوهم في قبواً عميقاً تحت داري، قرب باب العمود، وكنتُ في الدار مختبئً في علية خشب، وراء عناقيد بصل، وثوم، طوال النهار أشم رائحة بصل فاسد وثوم في أنفي، وأرى الجنود يهبطون الدرجات إلى القبو ويصعدون، ثم دخل واحد منهم وجلس على عتبة حجرية وسط الدار، كنت أرتاح عليها كل مساء، حين أعود من الحقول، وجلس ونادى بلغة غريبة لا أفهمها، وكان نحيلاً، أصفر الشعر، يرتدي لباساً مغطى بقطع حديد، وفضة، لم يكن يحمل سلاحاً لا سيفاً ولا خنجراً، ولا حتى عصا، ورأيت الجنود يدخلون، ويصفون الأسرى إلى الحائط، كانوا ثمانية عشر رجلاً، أتوا بأولهم إلى الرجل النحيل، لم يترك العتبة، وظل قاعداً ومد يده إلى الأمام، ووضع كفه اليسرى على رقبة الأسير، وأمسك بها، ثم وضع كفه اليمنى، وصار يضغط على بلعومه بشدة؛ حتى التقت الأصابع بالإبهام؛ فجذب البلعوم؛ فانقطع؛ فوقع الرجل جثةً لا حراك فيها، وكذلك وقتل الباقين"[2].

وروى تاجر للرحالة الغرناطي عن طريقة أحد جرائم الفرنج بحق أسرى المسلمين، حيث قال: "هذا رجل رهيب اسمه بطرس، قتل عدداً لا يحصى من المسلمين، كان يمد كفه اليمنى ويمسك بالآدمي من زلعومه ويشد بأصابعه حتى يقطع الزلعوم"[3].

٢- إنشاء معتقلات التعذيب الصليبية الميدانية في بلاد الشام

رافقت الوحشية والقسوة جيش الصليبيين أثناء اعتقالهم مواطني بلاد الشام، ويلاحظ عند توغلهم لأي من مدن البلاد فرار الأهالي خوفاً من التنكيل والاعتقال؛ فقد حدث داخل أنطاكية تجمع الجيران وأهالي الأحياء مع الفجر، وقصدوا الوصول إلى التلال هرباً؛ فلما علم الجيش الصليبي بذلك؛ أغلق عليهم أبواب المدينة، وطاردوهم واعتقلوا الكثير منهم، وقيدوهم بالسلاسل

---

(١) لوبون، حضارة العرب(ص١٨).

(٢) الغرناطي، رحلة الغرناطي(ص١٥٥- ١٥٦).

(٣) المصدر السابق(ص٢٠١).

الحديدية، دون أسباب يستحقون الاعتقال من أجلها، وأخذوهم إلى معتقلات تبدو في معسكرات خاصة؛ لأنهم صاروا يضربونهم ويعذبونهم داخلها[١].

ولقد ذاق أهالي الشام ويلات العذاب في المعتقلات الصليبية، وكانت ظاهرة تكبيل الناس وتقييدهم دون رحمة بجنازير الحديد، وربما يضعونهم في الحر، أو البرد القارس، وكانوا يعذبونهم أشد العذاب، ويضعونهم في الخدمة الشاقة، ويعاملونهم كالعبيد، وقد واجهت الأسيرات المسلمات أيضاً الإهانات عندما كانت تقيد دون إشفاق[٢].

وتنوعت أساليب الصليبيين في طرق الاعتقال، والتعذيب أثناء مساومة الناس على حياتهم، مقابل أن يعترفوا لهم عن أماكن البضائع والسلع، ثم يعدموهم إعداماً جماعياً، ولم يستسلم الكثير من السكان لهذه المساومة على حياتهم، ويؤكد ذلك شاهد العيان في كتابه؛ فقال: " اقتاد بعض رجالنا المسلمين في الشوارع، على أمل معرفة أماكن الغنائم؛ فكان أسراهم يقودونهم إلى الآبار، ثم فجأة يلقون بأنفسهم فيها؛ ليلقوا حتفهم، مؤثرين الموت على الاعتراف عن مكان المتاع المملوك لهم، أو لغيرهم، وبسبب عنادهم؛ لاقوا حتفهم جميعاً، وألقيت جثثهم في المستنقعات، والمناطق الواقعة وراء الأسوار؛ وهكذا لم تقدم معرة النعمان الكثير للنهب"[٣].

وألقى الصليبيون المسلمين المأسورين لديهم في الآبار، واتهمهم مؤرخ الحملة الفرنجي أنهم انتحروا؛ ليعطي مبرراً، وبراءةً للنصارى على أفعالهم، ولكن زيف الجيش الصليبي في هذا الموقف كشفه وليم الصوري في روايته التي كشفت عن الحقيقة، عندما قال: " وراحوا ينهبون الغنائم، وكان الأهالي قد فروا إلى الخنادق تحت الأرض؛ حفاظاً على أرواحهم، ولو مؤقتاً؛ فأوقد الصليبيون النيران في السراديب نتج عنها؛ سحباً كثيفة من الدخان، مما اضطر الهاربين إلى الاستسلام وتم أسرهم وقتلهم[٤].

ويتبين لنا أن الأهالي عندهم عزة نفس، ويأبون الاستسلام والمهانة، وما ورد سابقاً في كتاب المؤرخ المجهول " بسبب عنادهم لاقوا حتفهم جميعاً"، معناه لم يتبقَ من الناس أحد وإلا

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣٦٠).

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص١٧٦).

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٦٩).

(٤) وليم الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٣٧).

وعذب، وأيضاً في قوله: " وألقيت جثثهم في المستنقعات، ووراء الأسوار"، مما يدلل على أنهم لم يكن لهم رحمة حتى بعد قتلهم، وطارد الصليبيون الأهالي في الأزقة والطرقات، واقترفوا الإبادة الجماعية دون رحمة تحت جنح الظلام(١).

وجهز النصارى غرفاً في الكنائس وجعلوها معتقلات ميدانية في فلسطين، وربما أبقوها سجون دائمة، وما يدل على ذلك أنه عندما سار صلاح الدين الأيوبي في المدن الفلسطينية، وانتصر في نابلس على الصليبيين، ثم صل إلى مدينة سبسطية؛ أنقذ جماعة من المسلمين من أيدي الفرنج كانوا مأسورين داخل كنيسة(٢).

وكانت ظاهرة اعتقال النساء المسلمات معتمدة لدى الصليبيين، حيث إنهم اعتقلوا ابنة ياغي سيان، الذي كان يحكم أنطاكية(٣)، وعندما احتلوا طرابلس وهجموا على المدينة؛ أخذوها ونهبوها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها(٤)، وعندما سيطر جوسلين على الرها، وتل باشر، وإلى ما يلي الفرات من جهة الشام؛ قتل وسبى ما يقارب ألف نفس، وأغار على منبج، والنقرة، وأعمال حلب الشرقية، وأخذ كل ما وجده من دواب، وأسر رجالاً ونساءً(٥).

ووصف ابن جبير حال النساء المسلمات المعتقلات عند الصليبيين بالفاجعة؛ لأن معاناتهن كانت كبيرة، والصليبيون يرسفون(٦) في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة، تصريف العبيد، وكذلك الأسيرات المسلمات في أسواقهن خلاخيل الحديد، تنفطر لهم الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً(٧).

٣- اعتقال الصليبيين أهالي الشام مقابل المال والأشغال الشاقة

اعتقل الصليبيون أهالي الشام من غير ذنب محدد، وبدون تفريق بين مواطني الشام وبين التجار، والعاملين الذين قدموا من مناطق عربية أخرى، وظهر أن اعتقالهم كان دون

---

(١) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٦٩) ؛ الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٣٧).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٤٨٢).

(٣) المصدر السابق(ج٨/٤٧٥).

(٤) ابن تغري، النجوم الزاهرة (ج٥/١٨٠).

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٧٥).

(٦) الرسف: هو مشي المقيد إذا قارب خطوه. الأزدي، جمهرة اللغة(ج٢/٧١٦).

(٧) ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص٢٨٠).

محاكمات تُذكَر؛ ولكن الذي ذكر عن سبب اعتقالهم هو الاستفادة منهم في تحصيل المال؛ مقابل فدائهم، خصوصاً اعتقال الصليبين المغاربة في بلاد الشام؛ لدرجة أن الأثرياء من أهل الشام ومن يمتلك المال منهم، يخرج من ماله؛ لافتكاك هؤلاء المغتربين، وشاركت النساء في التبرع لأجل خلاص الأسرى، وذلك؛ لأن هؤلاء المعتقلين غرباء عن البلد ولبعدهم عن بلادهم، وكان نور الدين رحمه الله نذر في وعكة صحية أصابته، توزيع اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، وكانوا من عماله في مدينة حماة، وكان يقول: " هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم[١]"، ويقصد عن نوعين من المعتقلين، معتقلي الشام، ومعتقلي المغرب في سجون الصليبيين.

وشهدت مدينة معرة النعمان بيع النساء والأطفال عبيداً[٢]، وعندما احتل ريموند بلدة روحة، الواقعة على نهر العاصي على بعد ثلاثين ميلاً من أنطاكية، ومن هناك هاجم مدينة البرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي منها، واستسلم سكانها – كلهم من المسلمين – لكنهم إما قتلوا أو بيعوا عبيداً في أنطاكية[٣].

وأسر الصليبيون المواطنين في بلاد الشام؛ لتحصيل الفدية منهم مقابل فك أسرهم، حيث أورد المؤرخون الكثير عن تلك الظاهرة التي تدل على تعرض الكثير من الناس للظلم دون اقتراف أي ذنب، وكان الصليبيون يظلمونهم ويستضعفونهم؛ فقد ابن العديم أنه لما سيطر الصليبيون على مدينة حلب جمعوا الناس، وقيدوهم بالجملة إلى أفامية[٤] ومعرة النعمان، وحبسوهم؛ ليقروا عليهم مالاً[٥]، وأحضر الفرنج جميع الذين اعتقلوهم في برج القصر، وضربوا رقاب عجائزهم، وشيوخهم، وضعافهم، وساقوا فتيانهم، وكهولهم إلى أنطاكية؛ لكي يباعوا فيها"[٦].

---

(١)ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص١٧٦).

(٢) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٧).

(٣) المصدر السابق(ج١/٣٩٤).

(٤) مدينة سورية حصينة ضمن سواحل حمص. ياقوت، معجم البلدان(ج١/٢٢٧).

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٦٨).

(٦) لوبون، حضارة العرب(ص٣٣٧).

وعندما استولى الصليبيون على عكا؛ ونهبوا ما فيها، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا:" إنما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصلبوت[1]، وعندما قدموا إلى مدنية يافا[2]، وأسروا نحو خمسين امرأة وطفلاً، وحاربهم المسلمون، وقتلوا منهم واحداً، ثم افتكوا الأسرى بخمسة عشر ديناراً كل أسير[3].

وكان الصليبيون يسوقون أسرى المسلمين ليبيعوهم مقابل المال، وكان المسلمون يشترونهم لخلاصهم من قيد الأسر، ونعت ابن منقذ أحد الصليبيين اسمه كليوم جيبا" بالشيطان، لأنه كان في موكبه أكثر من أربعمائة أسير من المغاربة العرب، يسير بهم ليبيعهم، وأن ابن منقذ اشترى منهم قدر ما استطاع من الرجال والنساء، لتحريرهم[4]، وبقي عند كليام جيبا النصراني ثمانية وثلاثون أسيراً مسلماً، وكان يقول: " وحق ديني ما أبيع إلا الجميع" ، وهذ كلما أراد أحد تخليص أسيراً أو أكثر يرفض، وذكر المصدر أن هؤلاء الأسر هربوا من سجن الطاغية[5].

وافتدى صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م)، أسرى المسلمين الذين ظلوا سنين في سجونهم، ومنهم الفقيه عيسى الهكاري، وهو من أعيان الأسدية، وكان ملماً بالعلم والدين والشجاعة، وأسر أيضا أخوه الظهير، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى[6].

وعندما سقطت قيسارية، قيض الله بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم، وأثريائهم، ويعرف أحدهما بنصر بن قوام، والثاني بأبي الدّر ياقوت مولى العطافي، وكانت تجارتهما كلها بهذا الساحل، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، ومقامها عند أمراء

---

(١) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج٢٧/١٥٣).

(٢) مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال فلسطين، بين قيساريّة وعكا. افتتحها صلاح الدين، ثم استولى عليها الفرنج بعد سنة، واستعادها الملك نور الدين أبو بكر ابن أيوب وأخربها. ابن شمائل، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع(ج٣/١٤٧١).

(٣) المقريزي، السلوك(ج٣/١٩٠).

(٤) ابن منقذ، الاعتبار(ص٤٦).

(٥) المصدر السابق(ص١٥٨).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٤٢٨-٤٢٩).

المسلمين والإفرنجيين خطير، وقدر الله عز وجل أن جعلهما لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما، وأموال ذوي الوصايا، وقد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذه السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما[١].

وكان من جملة أسرى المسلمين في معتقلات الفرنج امرأة عربية خرساء، اشتراها عم أسامة بن منقذ، ويدعى عز الدين أبي العساكر سلطان[٢]، يبدو أن الصليبيين لم يراعو حتى الضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة من النساء وربما الشباب المصابين.

وحين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، والتي كان الصليبيون قد انتزعوها بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها جريمة، بكل وحشية وقسوة، وعلى الرغم من ذلك لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقاماً لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلق بروح الفروسية العالية، وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى[٣].

ثانياً: إهمال الصليبين حق الرعاية الصحية لمواطني الشام

الصحة خلاف السقم والمرض، ولم تعد تعني فقط خلو البدن من الأسقام والأمراض، ولكنها تخطت لأكثر ذلك وصارت حالة من الانسجام والاستقرار البدني، والنفسي، والاجتماعي، تمكن الشخص من ممارسة نشاطاته اليومية على الوجه الطبيعي، ويقال في هذا المثل العقل السليم في الجسم السليم[٤].

جاء في الحديث الصحيح عن أسامة بن شريك، " قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى قال: نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء، إلا داء واحد فقالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: الهرم)[٥]. والرعاية الصحية من متطلبات الحق في

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص٢٨٠)

(٢) ابن منقذ، الاعتبار(ص٨٧-٨٨).

(٣) هونكه، الله ليس كذلك(ص٣٤).

(٤) كنعان، الموسوعة الطبية الفقهية(ص٦٠٩).

(٥) سنن الترمذي، ٤٥١/٣، رقم الحديث: ٢٠٣٨

الحياة، وصحة الإنسان تكتمل بعوامل متعددة ومتداخلة، ولكل إنسان الحق في مستوى معيشي يخصه، بحيث يكون كاف للمحافظة على صحته، قال عليه الصلاة والسلام: (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا)[١].

وترتب على حصار الصليبيين لمدن الشام زيادة سوء الوضع الصحي للسكان، الذي يعد انتهاكاً مباشراً لحقوق أهل الشام بالحياة، ذلك لأن ما نتج عن حصارهم هو انتشار وباء الطاعون بشكل خطير وعلى نطاق واسع، أثناء حصارهم لأنطاكية، ولا يعلم الناس ما أسبابه وعلاجه، ويبدو أن الأهالي قد شعروا بالضيق، عندما قيد الصليبيون حركتهم، منعوهم من الخروج للحصول على العلاج اللازم، أو حتى الهروب من هذه الأمراض إلى أماكن أكثر أماناً، لدرجة أنه ما كان ينقضي يوم إلا دفن ثلاثين جثة أو أربعين، ولقد هاجم الطاعون الجميع على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم، وأصاب النساء على وجه الخصوص، حتى هلك أكثر من خمسين ألف امرأة خلال أيام قليلة[٢].

ويظهر أن المصابين كانوا من كلا الطرفين العرب والصليبيين، أما الوباء الخطير الذي انتشر في أنطاكية، لم يستطع الصليبيون أن يحددوا طبيعته بدقة، وكان أغلب ظنهم أنه وباء التيفويد، نتيجة لحصار ومعارك الشهر الفائت، ولم يأخذ الفرنج الاحتياطات الصحية الضرورية لذلك[٣].

وتكرر نفس الحدث عندما حاصر الصليبيون معرة النعمان، ومنعوا عنها الامدادات الإغاثية، بما فيها إغاثة المرضى، مثلما فعلوا ذلك في أنطاكية، وكان نفس النتيجة العكسية على صحة الأهالي، وبسبب صعوبة الموقف لكلا الطرفين، وتفشى مرض الطاعون في أوساط الجيش الصليبي، واضطروا إلى العيش على الأطعمة الفاسدة، والحيوانات الميتة، ومن نقص الغذاء أكلوا لحوم البشر[٤].

---

(١) أخرجه البخاري(٣٠٠) في الأدب المفرد، والترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه(٤١٤١).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١٨-١٩).

(٣) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/ص٣٨٧).

(٤) المرجع السابق(ج٢/٤٠).

واختلف في أسباب انتشار الطاعون، فقد حاول بعض هواة الاستطلاع أن يستقصوا أسباب هذا الوباء، فاختلفوا في تشخيصه، بعضهم قال أنها جراثيم تسبح في الهواء، وقال آخرون بسبب شراهة الأكل بعد الجوع[١]، يبدو أنه كان هناك ضعفاً كبيراً في الجانب الطبي لدى الفرنج، ولكن كل ما جاءت به المعلومات التاريخية بهذا الجانب أن الألمان أقاموا نقاط إسعاف أولى فوق السفن لإنقاذ جرحاهم[٢].

ونتج عن المذابح الصليبية في مدن الشام، تفشي الرائحة الكريهة، ولم يستطيع أحد أن يمر في الشوارع إلا بالسير على الجثث[٣]، وهذا يدل إهمال هؤلاء الغزاة بالجانب الصحي، بل صنعت أيديهم آثام ينتج عنها انتشار الأوبئة المعدية، لأنهم طبخوا لحوم البشر من المسلمين، وتعدت تصرفات قياداتهم الدالة على الاستهتار بهذا الجانب، فعندما عقدوا اجتماعاً، قرروا فيه طرح كافة موتى المسلمين خارج البلد، ولشدة النتن المتصاعد من جيفهم داخل المدينة التي كادت تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم، فقام أهالي الشام الذين وهبت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس، وطرحهم أمام الأبواب، وارتفعت أكوامهم على مستوى ارتفاع البيوت[٤].

وانبعثت الروائح الكريهة من البيوت المحترقة والأجساد المتعفنة، حيث قال الشارتري:" رأيت كثيراً من جثث المسلمين الذين قتلوا هناك، وقد جمعت في كومة، وأضرمت فيها النار، وقد انزعجنا كثيراً من رائحة الجثث المتعفنة، وقد تم حرق هؤلاء الناس للعثور على الدنانير الذهبية"[٥]، وتشير كل هذه الأفعال الرديئة بحق الإنسانية على استهتار الفرنجة بالصحة العامة للسكان المتبقيين على قيد الحياة من العرب، وأيضاً من ناحيتهم حيث مات لهم مسؤول كبير في الجيش، ووقع الأمراض المعدية فيهم، وصار يموت في اليوم المائة وأكثر في معسكرهم[٦].

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١٩).
(٢) مقامي، فرق الرهبان والفرسان في بلاد الشام(ص٢١).
(٣) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص٩٣).
(٤) مجهول، أعمال الفرنجة(ص١١٩-١٢١).
(٥) الشارتري، تاريخ الحملة(ص١١٥).
(٦) الذهبي، تاريخ الإسلام(ج٤١/٥٤).

وعندما انتشر الوباء في أنطاكية، وزادت حدته يوماً بعد يوم، قرر الدوق أن يستجيب لدعوة أخيه له ليزوره في بلدة الرها في شمال الشام، حيث كان بلدوين يلح على جودفري أن يفر من عدوى الوباء المنتشر في الجو، لذا اصطحب قائد الجيش بطانته الخاصة، ونزل في تل باشر[١].

والباحث بخصوص تاريخ المستشفيات والطب في تلك الفترة، يجد أن الرعاية الصحية كان لها اهتمام كبير عند المسلمين، حيث بنى نور الدين زنكي مارستان في دمشق، من مال أخذه من الصليبيين مقابل فدية بعض ملوكهم الذين وقعوا أسرى في يد المسلمين، وليس لهذا المبنى نظير في البلاد، ومن شرطه أنه يعالج به الفقراء والمساكين، ويسمح للأغنياء في حالة عجزهم عن توفر الدواء، ومن جاء إليه فلا يمنع من شرابه، ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه[٢]، وعندما شاهد ابن جبير هذا المارستان في زيارته لدمشق سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)، كتب عنه أن وبها مارستانان قديم وحديث، وأما الحديث أوسع وأكبر، وله عوائد مالية، وبأيدي أحد العاملين فيه قائمة بأسماء المرضى، وبيانات النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك حسبما يليق بكل إنسان منهم[٣].

وجاء في كتاب حضارة العرب أن العرب لم يجهلوا أهمية حفظ الصحة، وكانوا يعرفون باهتمامهم بالطب، ويعلمون جيداً في طرق علم الطب الوقائي من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاؤها، وكانت مناهجهم الصحية طيبة منذ القديم، ويظهر أن مستشفيات العرب التي أنشأت في الماضي كانت صحياً أفضل من مشافي أوروبا الحديثة، فقد كانت واسعة ذات هواء كثير، وماء غزير[٤].

وبعدما استولى الصليبيون على بلاد الشام ومكثوا في مدنها، حيث صارت هيئة فرسان الأسبارتية[٥] يقلدون العرب، وعملوا مستشفى في بيت المقدس[١] قدمت الخدمة لحوالي ألفين من

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٦).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/٣٤٦).

(٣) ابن جبير، الرحلة(ج١/٢٣٠).

(٤) لوبون، حضارة العرب(ص٥٠٨).

(٥) الاسبتارية: هي جماعة رهبان عسكرية محاربة تمتد جذورها في فلسطين إلى ما قبل الحملة الصليبية الأولى، قاموا بتأسيس مستشفى في بيت المقدس سنة(٤٦٢هـ/١٠٧٠م)، من أجل ايراد حجاج النصارى،

المرضى في يوم واحد، وقدمت لهم كمية كبيرة من الطعام والملابس، وأنفقت عن سعة صدقات كبيرة في مدينة القدس وعكا الأمر الذي أثار دهشة إعجاب حجاج النصارى.. ولم تعرف أوروبا مثل هذه التصرفات من النشاط الخيري[٢].

يبدو أن هذا المستشفى لم يكن به أطباء متخصصون، ولم يغطِ علاج الجرحى أو المرضى في الوقت الذي تقدم العرب في علم الطب والجراحة، وتشخيص الأمراض، وتحديد أنواع الأدوية والصيدلية، واستعمال الماء البارد في معالجة حمى التوفئيد، بينما كان الطب مدان للعرب بعقاقير كثيرة[٣].

كان الفرنج في زمن الملك الكامل ابن الملك العادل، قد بعثوا إلى الشام مسائل أرادوا جوابها، منها طبية، ومنها حكمية، ومنها رياضية، أما الطبية والحكمية فأجاب عنها أهل الشام، والهندسية عجزوا عنها، وأراد الملك الكامل أن يبعث جواب الكل، فبعثوا إلى الموصل إلى المفضل ابن عمر الأبهري.. فكتب برهانه المفضل في رسالة بعثها إلى الملك الكامل في الشام، فتعجب الجميع منها، ويثنون على استخراج ذلك البرهان، فإنه كان نادراً[٤].

ويمكن إجمال انتهاكات الصليبيين لحقوق الرعاية الصحية بحق أهل الشام في النقاط التالية:

- سببت الجرائم الصليبية عدم الاستقرار النفسي وسلامة البدن، بحق أهالي الشام.
- انتشرت الأوبئة والأمراض المعدية بسبب إلقاء جثث قتلى المسلمين في الشوارع والميادين العامة، وتعدت وحشيتهم عندما أكلوا الحيوانات الميته، وطبخوا لحوم البشر وأكلوها.

وانقسمت جماعة فرسان الاسبتارية إلى ثلاث فئات هم: الفرسان المقاتلون والأطباء والقساوسة. بورشارد، وصف الأراضي المقدسة(هامش١/ص٢٠).

(١) سمى باسم مستشفى القديس يوحنا، عمل به فرسان المعبد العسكريين، ثم تحول لمرضى الجذام وخصوصاً للحجاج النصارى القادمين من أوروبا إلى القدس. ادريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية(ص٦٧).

(٢) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٣٢٠).

(٣) لوبون، حضارة العرب(ص٥٠٩).

(٤) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد(ص٤٦٣).

- منع الجيش الصليبي الإغاثات والمساعدات لمدن الشام التي حاصروها، منها الأغذية والأدوية.
- الاستهانة بكرامة الإنسان حتى بعدما قتلوه لم يدفنوه بطرقة لائقة، ما زاد من المعاناة وانتشار الأمراض.
- منع الصليبيون الأهالي الفرار من الأمراض المعدية، أثناء تفشيها لأنها توازت مع الحصار، بينما فر منها قادة الصليبيين ثم عادوا بعد مدة تلاشيها.
- نقص التغذية لأطفال المسلمين، والمرضى، الأمر الذي أدي بالتأكيد إلى إرهاق أجسادهم وجعلهم عرضة للأمراض.
- الفقر الذي سببه العدوان الصليبي على بلاد الشام، وعدم الراحة البدنية للسكان من الأشياء التي تؤدي إلى إضعاف جهاز المناعة لدى الانسان في الشام.
- نقص التدفئة، بسبب فقدان المسكن الأصلي بفعل تدمير منازل المواطنين بالشام، وقلة الملابس اللازمة في الاجواء الباردة والمخيفة.
- لم تذكر المصادر المراجع العربية ولا حتى الأجنبية عن اهتمام الصليبيين بالجانب الصحي، أو الرعاية الصحية، أو العلاج لحالات مرضية، طيلة فترة مكوثهم بالشام، ما يدل على إهمالهم الواضح بصحة الإنسان، وضعف علم الطب لديهم في بلاد الشام.

الفصل الثاني

انتهاكات الصليبيين للحقوق الاجتماعية والاقتصادية

الفصل الثاني: انتهاكات الصليبيين للحقوق الاجتماعية والاقتصادية

المبحث الأول: انتهاكات الصليبيين للحقوق الاجتماعية

أولاً: انتهاك الصليبيين لحقوق المرأة والطفل في بلاد الشام

للمرأة مكانة مرموقة في الإسلام، وحث القرآن الكريم في سورة النساء على كفالة حقها في الميراث، وحرص على متانة العلاقة الأسرية بين الأبناء والآباء، وتربية الأطفال في بيئة صحيحة، قال تعالى: **{وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا}**(١)، ورفع الإسلام من شأن الأم بقوله عز وجل: **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ}**(٢)، وضمنت الشريعة للمرأة حقها كزوجة في قوله تعالى: **{ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}**(٣).

روى معاوية بن حيدرة القشيري، أنه قال: (قلت يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال أن تُطعمها إذا طَعِمت، وتكسُوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجهَ، ولا تُقَبّح، ولا تهجر إلا في البيت)(٤).

أضاع الصليبيون حقوق النساء في بلاد الشام، وسلبوا كرامتهن الآدمية، عندما اقتحموا بيوت العائلات العربية، حيث إنهم شرودهن وهجَّروهن، ودمروا حياتهن الاجتماعية(٥)، بينما كانت أفعال المسلمين على النقيض في مثل هذه المواقف، عندما كانوا هم الفاتحون والغزاة لبلاد المشركين، فقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشاً قال: (انطلقوا باسم الله لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)(٦).

---

(١) سورة العنكبوت: [٨].

(٢) سورة لقمان: [١٤].

(٣) سورة البقرة: [٢٤١].

(٤) أبو داود: (٢١٤٢)، والنسائي في السنن الكبرى: (١١٤٣١)، وأحمد: (٢٠٠٢٢).

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٧٩).

(٦) أبو داود: (٢٦٣٥)، والترمذي: (١٥٤٩)، وأحمد في المسند: (٣/٤٤٨).

انتهك الصليبيون حق الاستئذان وتعدوا على منازل المواطنين فلم يراعوا حرمة بيوت المسلمين في الشام[1]، ومن المعلوم أن الإسلام يحث الناس على الاستئذان من أهالي البيوت، وذلك رعاية لأوضاعهم الشخصية، فقد لا يكونوا في وضع لا يسمح لهم باستقبال الزائرين قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }[2].

داهم الصليبيون بيوت المواطنين في الشام من غير استئذان، وانتهكوا حقوق الأبرياء من النساء والأطفال، وحطموا كل الأدوات المنزلية، وصارت جميع حاجات الناس مستباحة لأول صليبي يصل إليها، واقتحم الصليبيون الأماكن التي كان دخولهم إليها محرماً وطغى عليهم جنون القتل والنهب فلم يراعوا ذكراً ولا أنثى، ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً، وراحوا يقتسمون البيوت وصاروا يسألون عن بيوت التجار، ونهبوا الأثاث وحلي النساء[3]، واقتحم الفرنج مساكن الفقراء وخطفوا النساء، وسلبوا الأموال، وعم الخراب، وصارت الطرقات مخيفة، وعم الحزن، وأحوال يائسة وظروف صعبة، وهرب الأهالي بأيديهم العارية[4].

وتحملت المرأة العربية في بلاد الشام الهم الثقيل، والظلم الكبير الذي لاقته من الفرنج، وخصوصاً لما قتلوا آباءهن وأزواجهن، وأبناءهن، وإخوانهن، على مرأى ومسمع الجميع، ومنهن من اعتقلت وعُذبت، أو ربما اعتقل ذويها وعذب، وكشف المؤرخ الأوروبي– وليم الصوري– عن ذلك بقوله: " ففتك العسكر بكبار رجال الأسر، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية، وامتدت أيديهم، فسلبت كل ما رغبوا به من المساكن ذاتها، وحكموا السيف في الأهل والحشم، واستولوا على الحجرات الخاصة، وأخرجوا النساء من البيوت وقتلوهن في الشوارع الجانبية"[5]، وانتهكوا أعراض النساء أثناء تلك المذابح، وارتكب الكثير من النصارى الفواحش، واغتصبوا

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان(ج١/١٥٧).

(٢) سورة النور: [٢٧–٢٨].

(٣) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣٥٨).

(٤) مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة(ص١٢٠)

(٥) الصوري، الحروب الصليبية (ج٢/٢٢١).

المسلمات[١]. وظهر إجرام الصليبيين بحقوق النساء والأطفال والشيوخ في أنطاكية، أثناء مداهمتهم المنازل ووجدوا أمامهم نساء وأولاد يبكون، وصاروا يتوسلون منهم الرحمة فلم يرأفوا بهؤلاء المساكين، ولم يراعوا بكاءهم وصرخاتهم، ولم يحترموا كرامة النساء، ولم يحترموا معاملتهن، ولكن الحريم شاهدن من مكانهن الذي يقفن فيه المذبحة التي تجري من تحتهن، وصارت الأمهات اللاتي كن يتفاخرن بكثرة أولادهن موضع الرثاء، بل كان قادتهم يحرضونهم على المزيد من الذبح، وإراقة الدماء، وبينما لسان حال الأمهات يقول على ما شاهدنه من تلك الجرائم الصليبية: " ما أسعد من ترفق بهم الموت فقبض أرواحهم قبل أن تمسهم هذه الخطوب، وصارت العاقر منهن أسعد من كل ذات ولد"[٢]، وبعدها حاولت النساء الفرار بأطفالهن من بيوتهن، وتفرق أمر العائلات[٣].

وعندما اقتحم الفرنج مدينة أنطاكية؛ قتلوا الناس، وأسروا، وسبوا من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركه حصر، وهرب إلى القلعة حوالي ثلاثة آلاف تحصنوا بها، وسلم من كتب الله سلامته[٤]، وفي المعرة قتلوا فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي، ولم يسلم إلا القليل منهم، غالبيتهم من بني سليمان وبني أبي حصين[٥].

نزح أهالي أنطاكية من مساكنهم فارين بأرواحهم، وتزاحموا على الأبواب تزاحماً شديداً، وكان من بينهم النساء والأطفال، حتى تعالى ضجيجهم وصراخهم، فلم يرحم الصليبيون ضعفهم وأصروا على قتلهم جميعاً، وصنعوا حواجز لمنعهم من الخروج عند باب الجسر، مما دفعهم للسقوط في النهر[٦].

وأمر بوهيمند الإفرنجي جيشه بارتكاب مجزرة جماعية في أنطاكية، دون شفقة على أحد منهم، كان رجل أو امرأة أو طفل، وخلال ثلاثة عشر يوماً من حلول الجيش الصليبي بها

---

(١) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٢٠٦).
(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣٢٣).
(٣) المصدر السابق(ج١/٣٥٧).
(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق (ص٢٢٠) ؛ زكار، الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية(ج١١/٥).
(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٤٤).
(٦) المصدر السابق(ص٣٢٣).

قتل الإفرنج آلاف الناس[١] حيث أن المذبحة كانت تنفذ خلال ثلاثة أيام متتالية، فوضع الصليبيون فيها السيف سيد الموقف، ثم قتلوا بعذ ذلك ما يزيد عن مائة ألف، وسبوا السبي الكثير [٢].

وأعد الصليبيون سوقاً لبيع وشراء أطفال المسلمين ونسائهم في مدينة أنطاكية، وأمر ريموند جيشه بجمع وإحضار كل من يأسرونهم من البارة[٣] والمدن المجاورة، وخصوصاً المستسلمين لهم، وبعد التخلص من ذويهم تاجروا بهم كعبيد[٤]، وكان في عكا سوق لبيع الرقيق، أنشأه الصليبيون لبيع أسرى الحرب، الذين وقعوا في الأسر، نتيجة المعارك الحربية بين المسلمين والفرنج، بالإضافة إلى الرقيق، الذين كانوا يجلبهم تجار البحر الإيطاليون، وتحديداً الجنويون من أوروبا إلى أسواق عكا[٥].

ضربت معرّة النعمان مثالاً واضحاً على تعمد الصليبيين في إحداث معاناة النساء والأطفال، التي عاشوها في واقع ظروف عصيبة إثر حصارهم للأهالي، ونتج عنه هروب حاميتها، وقتل نحو مائة ألف من المواطنين الأبرياء[٦]، ولم يكتف الفرنج بهذه الجريمة البشعة بل راحوا ينهبون ممتلكات المواطنين، ويسرقون أغراضهم وأموالهم من البيوت والمساكن[٧].

ولتفصيل خداع جيش الفرنج لأهالي المعرة من النساء والأطفال الأبرياء، لما اقتحموا عليهم البلد وأخافوهم، وطلبوا الأمان من الصليبيين فأمنوهم، وقسموا جيشهم على الدور، وهاجموها، وناموا فيها، وصاروا يهدئون الناس حتى الصباح وغدروا بهم، وسبوا النساء والصبيان، وأعدم فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي، ولم يسلم إلا القليل، حيث قتل الفرنج تحت التعذيب جمعاً كثيراً، واستولوا على الماء وقطعوه، ونهبوا تموين الناس وحاجاتهم، وتعبت النساء في الحصول على الماء، فمات الكثير من الأطفال عطشاً، وأصبح من يمتلك

---

(١) ابن خلدون، تاريخ(ج٤/٨٦).

(٢) معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب(٦٣).

(٣) البارة: بليدة وكورة من نواحى حلب، وفيه حصن ويسمّونها زاوية البارة. الحموي، معجم البلدان(ج١/٣٢٠).

(٤) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٦٣) ؛رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٤).

(5) Smith, The Feudal Nobility,(p.64,65).

(٦) ابن خلدون، تاريخ(ج٤/٨٦).

(٧) الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس(ص٦٨).

بعض النقود يشتري الماء من الصليبيين، واستمر هذا الحال أكثر من شهر، ولم يبقوا ذخيرة بها إلا استخرجوها[١]، لم يفرقوا في ذلك بين الأطفال والنساء والشيوخ والرجال، وهذا ما حدث أيضاً في مدينة أنطاكية، حيث أبادوا وأسروا ما لا يدركه الحصر[٢].

وأُعلن في كافة مدن الشام وفلسطين حالة من الاستنفار والطوارئ، وخصوصاً لما أيقن المسلمون بسقوط أنطاكية ومعرة النعمان، وأصر قادة الصليبيين على إبادة الناس بشكل جماعي، ونفذ جيشهم سياسة التطهير العرقي، والأرض المحروقة، حيث أمر بوهيمند تدمير وحرق بيوت المواطنين بما فيها، وحولوها إلى رماد، ومنها أماكن أثرية فريدة، أكلتها النار ومنها قصوراً وكنائس، واضطهد الناس بشكل جماعي من خلال طردهم من تجمعاتهم السكنية[٣]، وكان ضمن المشردين النساء والأطفال، الذين لاقوا أصناف العذاب والخوف، وضياع مستقبلهم.

وذاقت نساء مدينة القدس شتى أنواع العذاب من أفعال الصليبيين، حيث أوردت زجريد هونكة في كتابها بعنوان الله ليس كذلك بقولها: " لقد عجز المسلمون أمام المعتدي الغاصب، وحول لمعان السيوف الظلام إلى نهار، وأعمل السيف البتار، وغاصت النساء غارقات في بحار من الدماء، بحيث لا يملكن الدفاع عن أنفسهن، أو اتقاء الهجمات سوى بأيديهن العاريات يسترن بها عوراتهن، وغطت شفار السيوف، وأسنة الرماح، دماء ضحايا المسلمين، كان ذلك الهول الذي جعل الولدان شيباً، وأما من نجا بروحه فقد ألجمه الخوف، وملك الغيظ مشاعره، ولم يبق أمامه إلا العويل، لقد صارت رقاب المسلمين، وجماجمهم أغماداً للسيوف"[٤].

ولاقت المرأة في بيت المقدس نكبات من كل النواحي، وعاش الأطفال الذين ظلوا على قيد الحياة أيامهم في بؤس وشقاء، لأن الفرنج قتلوا كل من وقع في قبضتهم من رجال ونساء وأطفال حتى كلت أيديهم، وتعبوا من سفك الدماء، ولم تأتِ في قلوبهم الشفقة، بل راحوا يشكرون

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٤٤).

(٢) ابن القلانسي، ذيل(ص١٣٥)؛ ابن الأثير، الكامل(ج٩/١٤-١٥)؛ أبو الفداء، المختصر(ج٢/٢٧).

(٣) مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة(ص١٢٠).

(٤) الله ليس كذلك(ص٢٣).

الله على ما حباهم به من نصر على أعدائهم(المسلمين)[١]، ويروي توديبود في مؤلفه: " إن ريموند " قام بقتل كل من وجد من المسلمين، رجل أو امرأة كبير أو صغير"[٢]، ويبدو أن أطفال الشام لم ينعموا بأي من وسائل الترفيه والاستقرار النفسي فترة الاحتلال الصليبي.

والقسوة التي ظهرت من الصليبيين وارتكابهم الفظائع، كان بتأييد ورضى من رجال الدين أنفسهم، وانتقامهم من أناس عزل من السلاح، دون شفقة فلم يعفوا عن شيخ مسن ولا عن طفل ولا عن امرأة، ولكنهم قاموا بالصلاة في كنيسة القيامة وتلقوا التبريكات من كهنة النصارى[٣].

وكان الصليبيون يقتلون النساء في بيت المقدس طعناً بالسيوف والحراب، وفعلوا ذلك مع الأطفال الرضع، بل وخطفوهم بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، وقذفوا بهم من فوق الأسوار، وهشمت رؤوسهم بدقها عمداً، في وسط مذبحة السبعون ألفاً من المسلمين في القدس[٤].

وأورد الشارتري عن أحداث بيت المقدس بقوله:" أما الشرقيون الذين صعدوا إلى قبة هيكل سليمان، فقد أطلقت عليهم السهام وخروا صرعى يتساقطون على رؤوسهم، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى، ماذا أقول؟ لم يبق منهم أحد ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً"[٥]، ولاحقوا الناس تحديداً في ساحة المسجد الأقصى أعدموا فيه عشرة آلاف مواطن، وصاروا يغوصون في دماء المذبوحين حتى أعقابهم، ولم ينج الأطفال والنساء من المذبحة[٦]، ويظهر أن نساء المسلمين فقدن الأمل في حماية أنفسهن وحماية أبنائهن.

ويمكن القول أن أطفال المسلمين في بلاد الشام حرموا من أبسط حقوقهم في الحياة والأمن، وتشتت عائلاتهم بفعل الطرد واقتحامات الفرنج لبيوتهم، وراحوا ضحية المجازر التي شاهدوها رأي أعينهم، وما وقع على أهليهم وجيرانهم من نكبات متراكمة، وبالتالي أثرت هذه

---

(١) برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق(ص١٦٨).

(٢) تاريخ الرحلة(ص٢٥٧)؛ ابن الشحنة، الدرُّ المنتخب(ص٢١٧).

(٣) برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق(ص١٧٠).

(٤) ديورانت، قصة الحضارة(ج١٥/٢٥).

(٥) تاريخ الحملة(ص٧٥).

(٦) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٥٥).

الأحداث المأساوية بشكل سلبي على سير حياتهم الطفولية، وعاشوا أزمان الخوف والضياع، والتشريد، والقهر، ولم يجدوا ما يعوضهم في بناء حياتهم الطبيعية.

وحتى بعد تمكن الصليبيين من السيطرة على البلاد، سلبوا من آلاف أطفال بلاد الشام ريعان أعمارهم، وأفقدوهم حظوظهم من التعليم والعناية وأهملوا صحتهم، بفعل اعتقال الفرنج لآبائهم، وخطف أمهاتهم، وأخواتهم بشكل جماعي، ووقع الكثير منهم في قبضة جيش الفرنج، فلم يجدوا من يهتم بهم ويراعي مصالحهم، ومثال ذلك هروب أطفال أنطاكية إلى القلعة، وكانوا تقدير ثلاثة آلاف تحصنوا بها وسلم من كتب الله سلامته[١]، وكذلك أطفال معرة النعمان، الذين ساءت أحوالهم بعد ما قتل الفرنج فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي، ولم يسلم إلا القليل، حيث هربوا وعادوا بعد فترة، ومنهم بني سليمان وبني أبي حصين[٢].

وقد كان للاجتياحات الصليبية، والمجازر التي اقترفوها في الشام أثر كبير في تثبيت استيطانهم بشكل قوي، ما زاد من هجرة نساء وأطفال المسلمين من البلاد التي حكمها الصليبيون وسيطروا عليها، دفعوا تلك الأمهات إلى البحث على ملاذ أمن لهن ولأبنائهن[٣].

وشعرت النساء في بلاد الشام بالخوف الشديد على أبنائهن وأزواجهن، الذين لم يجدوا العمل الحر والمناسب في أي مجال، الأمر الذي جعل تأثير الحصار الصليبي على الأهالي سلبياً، مما عقب ذلك ضرب عصب حركة الحياة، وسد منافذها، وتفتت الترابط الأسري نتيجة المذابح الشنيعة[٤].

قام الفرنج بحصار مدينة بيروت بحراً وبراً، لمدة شهرين متتاليين، وصنعوا أبراج خشبية وسلالم تسلقوا بها على الأسوار، واقتحموا البلد، وقاموا بقتل عدد كبير من سكانها[٥]، وقاد صنجيل جيش ضخم واستولى على جبيل وملكوها بالأمان ثم غدروا بأهلها من النساء والأطفال والرجال[٦].

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق (ص٢٢٠)؛ زكار، الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية(ج١١/٥).

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٤٤).

(٣) قاسم، موسوعة الحضارة العربية الاسلامية (ج٣/٢٣٥).

(٤) اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان (ج٣/٢١٢).

(٥) الفيتري، تاريخ بيت المقدس(ص٣٣).

(٦) ابن خلدون، تاريخ(ج٥/ص٢١٥).

وأيقن أهل القدس بسقوط المدينة، وحاول من تبقى منهم الفرار، لكن الجيش النصراني لاحقهم، وأرداهم حتفاً وهلاكاً، ولم يبق إلا قلة ضئيلة من الذكور، وجمع الصليبيون النساء، واستغلوهن في أماكن العمل الثقيل والشاق، ويذكر الشارتري عن تلك الحال بقوله: " فقد تجدر الإفادة منهن على الأقل في دفع الطواحين، وباعوهن واشتروهن فيما بينهم الجميلة والقبيحة"(١)، بذلك ضيع الفرنج حقوق المرأة في بيتها وعملها.

نهب الصليبيون والجنويون أموال الناس وسرقوا حلى النساء ومؤنهم في طرابلس، وضايقوا على كافة مناحي الحياة، وارتكبوا مجزة بحقهم، وأسروا الرجال واعتقلوا النساء، وكان فيها مالا يحصى ولا يحصر واقتسموهم بينهم، وكان ثلث الغنائم للجنويين والثلثان لريموند، واستولى الذعر على المدافعين عن البلد عندما رأوا الرجال والنساء والأولاد تختطفهم سيوف ورماح الصليبيين دون رحمة، حتى أنهم كفوا عن المقاومة من أجل حقن دمائهم، واغتنم الفرنج ذلك واحتلوا المدينة بسهولة(٢).

تفاقمت معاناة نساء مدينة سروج؛ بسبب الاعتداءات الفرنجية؛ من حصار وهجمات أدت إلى قتل عدد كبير من أهلها وسبيهن، وأيضا نهب الفرنج أموالهم، وفي العام نفسه سيطر الفرنج على مدينة حيفا، واحتلوا أرسوف بالأمان، وعلى الرغم من ذلك أخرجوا أهلها منها(٣).

تعمد الصليبيون انتهاك حقوق المرأة والطفل في الشام، وفلسطين، ولم يبدوا أي محاولة لتحييد النساء من ويلات الحرب المعلنة من طرفهم، ولم يراعوا ضعف هذه الفئة من المجتمع، بحيث يكون المدنيون في منأى عن الخطر لحفظ عائلاتهم، فقد أوضح وليم الصوري أنهم قتلوا كل شباب مدينة قيسارية(٤) أينما ثقفوهم، ولم يستثنوا من القتل سوى صغار الصبية والبنات، وتم

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة(ص١١٥).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٦٢)؛ ابن الاثير، الكامل(ج٨/٥٧٨-٥٧٩)؛ ابن كثير، البداية والنهاية(١٢/٢١١)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة (ج٥/١٧٠)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٤).

(٣) ابن الأثير، الكامل(ج٨/٤).

(٤) مدينة قيسارية على ساحل فلسطين، التي استولى فيها الذعر على قلوب النساء والأطفال بسبب الاشتباكات العنيفة حول الأبواب، واستمر الصليبيون بقذف الصخور باستخدام المجانيق على الأسوار والبيوت، واستمر هذا القتال خمسة عشر يوماً، واستحر القتل في الجانبين، ويئس المحصورون من كل شيء ولم يجد الأهالي الحماية، ففتك العسكر بكبار رجال الأسر، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية ، وامتدت أيديهم فسلبت كل ما رغبوا

هلاك الأهالي[1]، ويمكن الاستنتاج من تلك الجرائم أن الفرنج قد تسببوا بتفاقم عدد كبير من الأيتام الذين لم يجدوا أي رعاية من أحد، ولم يحصلوا على أماكن الإيواء المناسبة.

وكانت نساء مدن فلسطين الأخرى، غير بيت المقدس، قد وقعن ضحية الهجمات الصليبية، ومنها إحتلال الفرنج مدينة نابلس عندما هاجموها وبذلوا السيف في أهلها، وأسروا من وجده بها من النساء والأطفال، وأقاموا بها ثلاثة أيام يسفكون وينهبون ونصبوا على المساجد صلبانهم[2]، واستولوا على أرسوف وقيسارية، توجه الملك بلدوين الأول للإستيلاء على عكا، وضيق عليها الخناق[3].

وقد عامل صلاح الدين نساء وبنات الفرنج اللواتي قتل وأسر أزواجهن وآبائهن في معركة حطين معاملة إنسانية، ورق قلبه لدموع أولئك النساء والبنات فأطلق سراح من كان في أسر المسلمين من أزواجهم وآبائهن، أما "النساء والبنات اللاتي قتل أزواجهن وآباؤهن فقد وزع عليهن منه ماله الخاص ما أطلق ألسنتهن بحمد الله، وبالثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة"[4].

ثانياً: حرمان الصليبين المسلمين من الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية

يظهر مما سبق ذكره عن الجرائم الصليبية، أن أهالي الشام لم يحتفلوا بأفراحهم بطرقيتهم المعتادة، كما في عادة أفراح الزواج التقليدي الذي كان سائداً قبيل الغزو الصليبي، ذلك بسبب هول المصاب الجلل الذي طال كافة شرائح المجتمع، في كل شارع وحي اقتحمه الصليبيون، فغالبية الرجال والنساء قيدوا ليقضوا أيامهم في المعتقلات النصرانية، أو أصابهم الحزن من واقع المآسي والمجازر بحق أهليهم، ويبدو أن كثير من النساء شعرن بغياب الوصي الشرعي لهن،

فيه حتى المساكن ذاتها، وحكموا السيف في الأهل والحشم، واستولوا على الحجرات الخاصة. الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢١٩-٢٢١).

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٢٢).

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان(ج١/١٥٧).

(٣) إمام، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول(ص٥١).

(٤) ديورَانت، قصة الحضارة(ج١٥/٣٨).

وتشتت عائلاتهن، نتيجة الاضطهاد الجماعي للناس، مما أحدث ذلك اضطراب في طقوس الأفراح المعتادة.

كان زواج النصارى من النساء المحليات متاح، والوصول للنساء المسلمات أمراً سهلاً على الصليبيين، فبالإضافة إلى انتهاك وتضييع كرامتهن، حيث استغلت النساء المسلمات اللاتي أسروهن في الخدمة المنزلية، وتبادلوهن فيما بينهم[(١)].

يحرم الإسلام زواج المسلمات من غير المسلمين، ما داموا مشركين، قال تعالى: { **لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**}[(٢)]، وكان حال مئات المسلمات عندما وقعن رهائن في قبضة عصابات الفرنج، لا يمنعهم أحد من اقتناهن كزوجات، ذلك قوله تعالى: { **وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ**}[(٣)].

ذكر الشارتري عن تنوع أصول جنود الفرنج الذين اقتحموا بلاد الشام بقوله:" من ذا الذي سمع من قبل عن مثل هذا الخليط اللغوي في جيش واحد؟ كان هناك الفرنجة، والفلمنج، والفريزيون، والغال، والألوبروجيون، واللوثرنجيون، والاليماني، والبافاريون، والنورمان، والإنجليز، الاسكتلنديون، الإقطانيون، الإيطاليون، والداشيون، والأبوليون، والأيبيريون، والبريتون، واليونان، والأرمن، وإذا أراد واحد منهم أن يسألني فإنني لم أستطيع الرد أو أن أفهم ما يقول بسبب اختلاف اللغات"[(٤)]، وانقسموا إلى خمسة جيوش مكونين من الفقراء والمعدومين، ومعهم زوجاتهم، وانضم إليهم قطاع الطرق والأفاكون، والمحرومون وغيرهم، لا لكي يكفروا عن خطاياهم بل لكي يجترفوا آثام جديدة[(٥)].

---

(١) حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية(ص١٧٨).

(٢) سورة الممتحنة: [١٠].

(٣) سورة البقرة: [٢٢١].

(٤) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٠٥)؛ أحمد، الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي (ص٣٢).

(٥) أحمد، الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي(ص٣٠).

يتبين مما سبق أن عناصر الفرنج كانوا من ملل مختلفة، وتحدثوا بلغات متنوعة، ولديهم معتقدات متفرقة، مما يزيد من حتمية وجود مشركين وملحدين، ومجرمين بينهم، وهؤلاء يحرم عليهم بأي شكل الزواج من المسلمات[١].

تكشفت أطماع الصليبيين وهي أن يحصل أي منهم على منزل وأسرة عربية، ويصبح حق مكتسب ومورث له، وآخر ربما يتخذ زوجة ليست من نفس الأصل، تكون سورية أو أرمنية أو مسلمة تم تنصيرها"[٢]، يروي ريموند أجيل عن الاقتحامات بقوله: " كانت العادات المتبعة ألا يستولي أحد على قلعة، أو مدينة ترفع أحد أعلامنا، ويكون أول من وضع يده عليها أحد رجالنا، وهكذا دفع طموح الكثيرين أن يخرجوا من فراشهم في منتصف الليل دون أن يصحبهم رفاقهم ويستولون على كل القلاع الجبلية والمنازل التي تحيط بها الحدائق في سهول الأردن[٣].

ويبدو أن ظاهرة إقامة علاقات غير مشروعة بين جنود الصليبيين والعربيات في مدن الشام انتشرت إلى حد ما، تحديداً عندما تمركزت قواتهم في المعسكرات، ولهذا السبب أصدروا في نابلس تطبيق قانون عقوبات صارم ضد من يقوم من الرجال الأوروبيين بإقامة مثل هذه العلاقات مع المسلمات، وإذا ثبت ذلك برضاها يخصى الرجل، ويقطع أنف المرأة[٤].

مرت بلاد الشام بتناقض العادات الاجتماعية بين المسلمين والفرنج، وهذا ما وضحه ابن جبير عن العرس الإفرنجي قرب ميناء عكا في جمادي الآخرة سنة(٥٨٠هـ/١١٨٤م)، بقوله: " وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، مصطفين عند باب العروس، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زيّ، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، تمشي فتراً في فتراً مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر،

---

(١) جاء في كتاب الشارتري: " من ذا الذي سمع من قبل عن مثل هذا الخليط اللغوي في جيش واحد؟" . الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٠٥).

(٢) حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية(ص١٧٨).

(٣) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢٣٥).

(٤) حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية(ص١٧٨).

وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية، وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك"[١].

صار الشام مرتعاً خصيباً للفسق والشذوذ النصراني، وأصبح الفساد الخلقي بين اللاتين على ألسنة الجميع بعد أن فاحت رائحته النتنة، فكان أمراً عادياً أن يضبط أحد الصليبيين زوجته في وضع مريب مع رجل افرنجي غريب، ويتقبل الأمر عادياً وببرود كأنه لم يحدث أي شيء[٢]، كان المحتسب الفرنجي في مدينة اللاذقية يجمع الفواجر والغرباء المؤثرين للفجور في حلقته، وينادي على واحدة ويتزايدون، حتى إذا وقف سلمها إلى صاحبها مع ختم المطران[٣].

استنكر ابن منقذ عادات النصارى بقوله: " ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل أخر، يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى"[٤].

ويبدو أن الثقافة النصرانية الاحتلالية في بلاد الشام نشرت دعائم فساد الأخلاق والرذيلة، الأمر الذي يتنافى جملةً وتفصيلاً مع ثقافة المجتمع الإسلامي، على الرغم أن ادعاءات الحملات الصليبية أنها لأسباب دينية وتحرير الضريح المقدس، وأنها جاءت لتحفظ الحجاج الأوروبيين في كنائس فلسطين، وتمنع تعذيبهم على أيدي المسلمين في فلسطين[٥].

هناك ما يشير إلى أن الجنود المسلمين كانوا قد لبسوا بزي النصارى للتمويه، في مدينة بيروت، وأرادوا ألا ينكشفوا فشبهوا قواربهم بقوارب الفرنج، وتصنعوا بأنفسهم رهباناً ومعهم صلبان، قال العماد الأصفهاني: " ومسحوا لحاهم، ومسخوا حلاهم... وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا، وشدوا زنانير، واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، ومجاذبتهم منبسطين، والقوم لجهلهم، لا يشكون أنهم من أهلهم، ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث، وتصور الطيب بصورة الخبيث، فلما حاذوا بعكا صوبوها نحوها، والريح تسوقها، والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ما هذه طريقها... فدخلت الثغر، وأدخلت إليه كل خير، وعجب الناس منها

---

(١) ابن جبير، الرحلة(ص١٥٢).

(٢) يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى(ص٩٢).

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد(ص٢٥٨-٢٥٩).

(٤) الاعتبار(ص٤٧).

(٥) ديورانت، قصة الحضارة(ج١٥/ص١٥)؛ براور، عالم الصليبيين(ص١٧).

ومما تم لها من حيلة" [١]، ويدل هذا أن الصليبيين كانوا يضطهدون المسلمين في حياتهم عندما يعرفونهم من مظهرهم.

اهتم المؤرخون الأوروبيون بذكر مناسبات النصارى في كتبهم، ومن ذلك احتفالهم بالأعياد النصرانية، التي كانت تأتي حتى أثناء حشودهم للمعارك ضد المسلمين في الشام، فقد أورد الشارتري أنهم احتفلوا بعيد الفصح، في فصل الربيع، وفي الوقت لذي أرسوا فيه سفنهم الحربية على ميناء اللاذقية، وذهبوا بصحبة ملكهم إلى مدينة القدس ليتموا مراسم الاحتفال، ولما انتهوا عيدهم عادوا إلى يافا، وعقدوا معاهدة مع قناصل الجنويين، ليقسموا فيها أحياء المسلمين، ونصت على أنه إذا اشتركوا معاً في الاستيلاء على أي مدينة عربية فلهم الثلث، وللصليبيين الثلثين[٢].

شاهد المؤرخ المسلم ابن جبير احتفالات الصليبيين بأعيادهم في فلسطين عندما استقروا في بلاد الشام ولم يكن لهم أي عوائق، لذا شاركوا فيه منهم الصغار والكبار في قوله: "كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له في إسراج الشمع، وكاد لا يخلوا أحد منهم، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، من شمعة في يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم"[٣].

فيما يلي سنورد بعض اعتداءات الصليبين على أهالي الشام والتي وافق توقيت وقوعها في شهر رمضان المبارك، مع العلم أنه لم يلتفت المؤرخون الأوروبيون إلى هذه المناسبة، حتى أنهم لم يذكروا كلمة رمضان في مؤلفاتهم، ويرجح ذلك لعدم درايتهم الكافية عن شهر رمضان، أو ربما لأنهم لم يؤرخوا قطعاً بالتوقيت الهجري، ومنها انتهاك الفرنج حرمة رمضان، وتعمدت سياستهم ألا يهنأ المسلمون بأي حال من الأحوال، كما دعا قسيسيهم وقادتهم إلى استباحة دماء المسلمين وأعراضهم[٤]، لذا منعوا فيه المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية، من صلاة وقيام

---

(١) العماد الأصبهاني، الفتح القسي(ص٢٢٢).

(٢) الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس(ص١١٣).

(٣) ابن جبير، الرحلة (ص٢٥٨).

(٤) حرض البابا أوربان على إبادة المسلمين بقوله: " يا خزينا، يا عارنا، إذا ما انتصر جنس يتسم بهذه الحقارة والانحطاط، وتستعبده الشياطين على شعب أنعم الله القدير عليه بالإيمان وتباهى باسم المسيح" . الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس(ص٣٥).

وصلة الأرحام، وكانوا سبباً أساسياً لذلك، بقصد أو بغير قصد فهم الذين نشروا الفزع والخوف الذي حلَّ في بلاد الشام، وكان المسلمون يواسون إخوانهم وأخواتهم في هذا الشهر، وتزداد فيه الزيارات والرحمات، قال تعالى: { **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ**}(١).

حرم الصليبيون أهل الشام من التمتع بأداء فريضة الصيام في رمضان، وأداء العبادات، فلم يستقبل المسلمون هذا الشهر بالتهاني والتبريكات، ولكنهم استقبلوه بأحزان متواصلة، ودعوات للجهاد وتقديم التضحيات من أجل تخليص العباد والبلاد من الاحتلال والفساد(٢).

وطمس نصارى الفرنج فرحة المسلمين من الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، والناظر في الأحداث التي افتعلها الصليبيون في هذه المناسبات سيجد أن المؤرخين المسلمين قد أوردوا كثيراً عن أحداث شهر رمضان وتخلله انتهاكات واعتداءات صليبية على أهالي الشام لعدد من السنوات، ومن هذه المحطات التاريخية على سبيل الذكر لا الحصر ما جاء به كتاب النجوم الزاهرة بأن أهل عكا لم يقضوا شهر رمضان كعادتهم، ولكن الفرنج ضايقوهم، ثم اقتحموا المدينة والناس صائمون، حيث نزل بلدوين حاكم القدس الفرنجي على المدينة سنة (٤٩٧هـ/١١٠٤م)، وأخذها بالسيف بعدما أحكم حصارها في البرّ والبحر في نيّف وتسعين مركباً(٣).

هاجم الفرنج مدينة طرابلس وقاتلوا أهلها من أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة، وكانوا بقيادة ريموند، واحتلوا الأبراج، فملكوها بالسيف في شهر ذي الحجة، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وصادروا الأمتعة والذخائر، وغدروا بحاكمها عندما طلب الأمان لشعبه، وانتقموا من الناس وصادروا أموالهم ونهبوا ذخائرهم، ونزل بهم أشد العذاب(٤). والملاحظ على الفترة الصعبة التي ابتدأت بحصار طرابلس والاشتباكات، حيث استمرت لمدة خمسة شهور إلي يوم اقتحام المدينة، تخلل تلك الأحداث مرور شهر رمضان المبارك، وعيدي الفطر والأضحى.

---

(١) سورة البقرة: [١٨٤].

(٢) سنة (٥٠١هـ/ ١١٣٦ م) ، وفي شهر رمضان منها، ورد القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس الشام، إلى بغداد، قاصداً باب السلطان محمد، مستنفراً على الفرنج، طالباً تسيير العساكر لإزاحتهم . ابن الاثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٥٨).

(٣) ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/١٨٨)؛ عامر، الصليبيون في فلسطين(ص٣١).

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٣).

خرج الصليبيون في الحادي والعشرين من شهر رمضان من سنة (٥٠٦هـ/١١١٢م)، من حصن الأكراد، وانضم إليهم جموع الفرنج في السواحل، والتقوا في معركة مع الملك المنصور حاكم حماة، وهو نازل ببعرين[١]، بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوماً، فانتصر ثانياً، وانهزمت الفرنج هزيمة شنيعة[٢]، وعلى الرغم أن المسلمين صائمون لكن نصرهم الله في تلك المعركة.

عقد الفرنج في الخامس من شهر رمضان سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م)، اتفاق التحالف مع حاكم دمشق، لمعرفتهم بوجود خلاف بينهم وبين عماد الدين زنكي على تولي حكم دمشق[٣]، فحين علم زنكي بذلك سار إلى حوران[٤]عازما على قتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين[٥]، وفي السنة التالية أيضاً في شهر رمضان سارت طائفة من الفرنج بالشام إلى عسقلان؛ ليغيروا على أعمالها، وهي لصاحب مصر، فخرج إليهم العسكر الذي بعسقلان فقاتلهم، فظفر المسلمون، وقتلوا من الفرنج كثيرا، فعادوا منهزمين[٦].

درات معركة في شهر رمضان سنة(٥٥٩هـ/١١٦٣م)، بين المسلمين بقيادة نور الدين محمود بن زنكي والصليبيين، حرر فيها قلعة حارم من الفرنج، وسبب ذلك أنه أراد الأخذ بالثأر لما ارتكبه الصليبيون بحق المسلمين من جرائم[٧]، وهكذا قضى المسلمون شهرهم في حالة الحذر والقلق.

وجاء المستنفرون من الشام في شهر رمضان، إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة،

---

(١) بلد بين حمص والساحل، وهو من خطأ العامّة وإنما هو بارين. ابن شمائل، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع(ج١/٢٠٧).

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/١٠٣)؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج٢٧/١٩٩).

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب(ج١/٨٨).

(٤) كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار، وما زالت منازل العرب، وذكرها في أشعارهم كثير. ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٣١٧).

(٥) ابن الأثير، الكامل(ج٩/١٠٦).

(٦) المصدر السابق(ج٩/١١٣).

(٧) المصدر نفسه(ج٩/٣٠٨).

فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا، وذكر ما حصل للمسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا يومهم في رمضان[١].

وصل صلاح الدين إلى صور في اليوم التاسع من شهر رمضان، سنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م)، والتقى بالأهالي، وسار في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، فنزل على تل يقارب سور البلد، بحيث يشرف على القتال، وقسم مهام العساكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه، وكان للفرنج شوان وقوارب يركبون فيها في البحر، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروخ، وأهل البلد يقاتلونهم، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر؛ لضيق الموضع؛ فكثرت الجراحات في المسلمين والقتل[٢]، وفي السنة التالية دخل صلاح الدين دمشق في الأول من رمضان؛ فأشير عليه بتفريق العساكر، فقال: إن العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون[٣].

خرج ملك إنجلترا في شهر رمضان سنة (٥٨٧هـ/١١٩١)، من مدينة يافا على رأس جيشه، والتقى في معركة مع المسلمين، وكاد هذا الملك أن يقع في يد المقاتلين، ففداه بعض أصحابه بنفسه، وخلص الملك من الأسر[٤]، ونزل بلدوين صاحب القدس الفرنجي على عكّا في البرّ، والبحر، في نيّف وتسعين مركباً، فحصروها من جميع الجهات، وكان واليها زهر الدولة الجيوشيّ، فقاتل حتّى عجز، فطلب الأمان له وللمسلمين؛ فلم يعطوه، ولمّا علموا –الفرنج– من أهل مصر أنهم لم ينجدوه، أخذوا البلد بالسيف في شهر رمضان[٥].

سار نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين –رحمهم الله– في رمضان إلى حماة، وساروا إلى بلاد الفرنج، فخربوا هونين، وكان سبب ذلك أن الفرنج حشدوا جيشهم يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما توصلوا إليه مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعاً في البلاد[٦].

---

(١) ابن الأثير، الكامل(٤٢٥/٨).

(٢) المصدر السابق(ج٣٩/١٠).

(٣) المصدر نفسه(ج٥٩/١٠).

(٤) المصدر نفسه(ج١٠٠/١٠).

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص١١٦).

(٦) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية(ج٧٨/١).

انتهك الصليبيون حرمة شهر رمضان، من خلال عمليات النهب التي قاموا بها لممتلكات المسلمين، حيث خرج جوسلين في التاسع عشر من رمضان إلى الوادي والنقرة والأحص، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في الغريب، وأخذ من الدواب البقر، والغنم، والجمال، ما لا يحصى، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد إلى تل باشر[1].

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٨٧).

المبحث الثاني: انتهاكات الصليبيين للحقوق الاقتصادية في بلاد الشام

تمهيد:

مفهوم الحقوق الاقتصادية يقر بحرية الإنسان في إطار الإنسانية، ولا يمنع من تحقيق المساواة بين الناس بسبب اللون أو العنصرية أو الفكر، وللفرد مساواة كاملة في الإمكانيات الاقتصادية التي يرعاها القانون ويحفظها له بمجرد كونه إنساناً يعيش، ولم يعرف الأوروبيون هذه الحقوق الاقتصادية فترة الغزو الصليبي لبلاد الشام، ولكنهم عرفوها حديثاً، متزامناً مع الحركات الاشتراكية الحديثة في أنحاء أوروبا، وارتبط ملازماً للحريات السياسية العامة، المنبثقة من حقوق الإنسان[١].

لهذا يمكن القول أن اقتصاد أي بلد يرتكز في مدخلاته على الموارد الذاتية للمواطنين، والتي تتمثل في الانتاج مثل: الأرض، والمياه، والزراعة، والصناعة، وجباية والضرائب، وتنتهي مخرجاتها وصولاً على شكل بضائع إلى الأسواق، لتصل في النهاية إلى المستهلك عن طريق البيع والشراء، يكون ذلك بحماية موازية له بأنظمة وقوانين حكومة عادلة ومنصفة تضمن حقوق المواطنين.

وكان النظام الإقطاعي الصليبي في بلاد الشام متنوع، واختلف حسب دول أوروبا التي جاءوا منها، ففي النظام السياسي في إمارة أنطاكية الإيطالية مثلاً كانت سلطة الأمير تنتقل بالوراثة، بينما كان مبدأ وراثة الحكم في مملكة القدس يتألف من مبدأ انتخاب السلطة الملكية[٢]، وهذا يدلل على تنوع الاتجاهات الحكومية الصليبية في معاملة السكان في بلاد الشام، وبالتالي تنوع الانتهاكات الصليبية بحق العرب منذ أن خطأوا هذه المنطقة.

---

(١) مجموعة من المؤلفين، مجلة مجمع الفقه الإسلامي(ج١٣/٣٢١).

(٢) زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص١٣٢).

أولا: الانتهاكات المتعلقة بالثروة الزراعية والحيوانية في الشام

١ – انتهاكات الصليبيين لحقوق الثروة الزراعية في الشام

اشتهرت بلاد الشام بالزراعة حيث قال الخوارزمي[١]: " رأيت جنات الدنيا الأربع، وكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على سواها كأنها الجنة على وجه الأرض، وبها البساتين الأنيقة [٢]، وكانت أوضاع الزراعة في بلاد الشام قبيل غزو الفرنج للبلاد ممتازة، حيث انتشرت حول مدينة طرابلس المزارع، والبساتين، وزرع الفلاحون مساحات واسعة من الأرض لقصب السكر، وأشجار النارنج، والترنج، والموز، والليمون، والتمر، واستخرج الشاميون من القصب عسل السكر؛ وجمعوه في المدينة، وكان في بطرابلس العديد من الأطعمة والفواكه المميزة[٣].

وقد حرص قادة النصارى منذ أول نزولهم في مدن الشام على توفير الغذاء لجيشهم؛ معتمدين على محاصيل الفلاحين في بلاد الشام، ونفذوا ذلك بطريقتهم المعتادة في الهيمنة والنهب، والسطو المسلح، على الأراضي المزروعة، وكان على سلم أولويات خططهم العسكرية في اقتحام أي مدينة عدة أمور منها: تحديد مكان المزروعات المثمرة، ووقت جنيها، وكميتها، وضع خطة الاستيلاء عليها، وكشف الشارتري عن تلك الاستراتيجية في كتابه، عندما قال : " كان ما يزال أمامهم الوقت للوصول إلى القدس في أثناء موسم الحصاد، فإذا ساروا على هذا النحو فسيكون بمقدورهم أن يعيشوا اعتماداً على المحصولات في كل مكان"[٤].

يعزي رانسيمان اعتداءات الفرنجة على المحاصيل الزراعية، لأنه ساءت أحوال الجنود والحجاج كثيراً، فلم يكن هناك حصاد لأي محاصيل في سهل أنطاكية بسبب الحرب، وما يزال الطعام ناقصاً، لذا وبدأ ريموند في تنظيم غارات على أراضي المسلمين تهدف إلى الحصول على الطعام[٥].

---

(١) الخوارزمي: هذه النسبة إلى بلدة خوارزم، فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي، وكان بها ومنها جماعة كثيرة من العلماء والأئمة. المروزي، الأنساب(ج٥/٢١٣).

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ج٣/٥١٩).

(٣) خسرو، سفر نامة(ص٤٧).

(٤) الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٢٩).

(٥) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٣).

عسكر الصليبيون حول أنطاكية حتى وجدوا في هذه الناحية وفرة بالغة من الأعناب الناضجة، ومخابئ مملوءة بالقمح، وأشجار مثقلة بالفاكهة، عثروا على شتى ضروب الأطعمة الصالحة للأكل[١]، ونقل لنا الرحالة الأوروبي بورشارد صورة الانتهاكات الصليبية عندما سرقوا هذه الأرض من الفلاحين، وزرعوها بأشجار العنب وأحاطوها بالقلاع والأبراج، حين كتب:" قلعة نيفين معظمها داخل البحر، وتعود ملكيتها لأنطاكية، والقلعة محصنة تحصيناً قوياً، وقد رأيت فيها إثني عشر برجاً ضخماً، ويعتبر النبيذ في هذه البلدة أكثر شيء ملفت للانتباه"[٢].

هيمن النصارى من خلال الكنسية على الأراضي الزراعية في فلسطين، وصارت في حيازتهم من خلال إقطاعات الأديرة المليئة بكروم العنب، فمن هذه المدن بيت لحم، التي منحها الملك بلدوين الأول إلى كنيسة المهد، والمناطق المحيطة بها، وقرية بيزك، التي تبعد عن بيت لحم ميل ونصف، تشتهر بزراعة أجود أنواع كروم العنب، وكان جميعها من النصارى، الذين كانوا يصنعون النبيذ الممتاز، واشتهرت كذلك مدينة أريحا والمناطق المجاورة لها بزراعة العنب، وصارت ضمن الاقطاعات الكنسية[٣].

تميزت مدينة بيت المقدس بكثرة زراعة العنب في بيت المقدس، قبل الغزو الصليبي؛ حتى أنه كان يطلق على إحدى القرى بقرية العنب[٤]، لدرجة أن بعض مناطق فلسطين كانت تقوم بتصدير العنب المجفف إلى الخارج منها قريتي عينون، ودورا الواقعتين في حدود الخليل[٥].

وكانت الأراضي الزراعية التي استولى عليها الفرنج، قرب عكا سهول خصبة جداً، وجميع أراضيه ومروجه مزروعة بالعنب، وتكثر به الحدائق، وأنواع مختلفة من ثمار الفواكه،

---

(١) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة(ص٥٠).

(٢) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة(ص٥١).

(٣) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس(ص٣٤١).

(٤) خسرو، سفر نامه(ص٥٥).

(٥) مدينة فلسطينية صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار حسنة المنظر، عجيبة المخبر، في بطن واد، ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل، فيها قبر الخليل إبراهيم، عليه السلام، في مغارة تحت الأرض، وهناك مشهد وزوار وقوام في الموضع وضيافة للزوار. ابن بطوطة، الرحلة (ج١/٢٣٩)؛ ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٣٨٧).

عمل الصليبيون على إحاطتها بالأسوار الحصينة، والقلاع التابعة لجماعات فرسان الاسبارتية والداوية (المعبد) والتيوتن، وتتبع هذه المدينة لملك بيت المقدس"[١].

وقد بنى بلدوين الأول– ملك بيت المقدس الفرنجي– قلعة إسكندرونة جنوب مدينة صور، وشمال قرية رأس الناقورة، ووضعها تحت حماية النبلاء، وهي محاطة بأشجار التين والزيتون والكروم، والمروج والحدائق، فضلاً عن وجود المراعي والمياه الجارية[٢].

أسس الفرنج مراكز زراعة قصب السكر في مقاطعة صور، والتي كان سيدها الإقطاعي يحصل على دخل كبير من محصول القصب، كذلك اشتهرت صيدا والمناطق المحيطة بها بزراعة قصب السكر الممتاز، والأراضي الواقعة بين وادي الأردن، حول طبرية، ونابلس وقيسارية وأريحا وعكا، وكانت محاصيل القصب تمنح على سبيل الهبات، للمؤسسات اللاتينية في فلسطين[٣]، ويروي المؤرخ الصليبي بقوله: " أنا رأيت الكثير من العسل في تلك الأجزاء في قصب السكر فهو مليء بالعسل، وهذا يعني أنه من العصير حلو جداً، وبعد سحق القصب بالضغط ثم غليه فوق النار يصنع الناس أنواعاً من العسل، ثم يصنعون السكر"[٤]، فهذا يشير إلى حصر الصليبيين لمساحات واسعة من أراضي الفلاحين الخصبة في بلاد الشام.

أنشأ قرب مدينة عكا حصن الملك، في واد محاط بجميع الأشياء الحسنة، والفاكهة النادرة التي لا توجد في غير هذا المكان، وكان هذا الحصن من أملاك جماعة فرسان التيوتون[٥]، فالأراضي الزراعية في فلسطين قابلة لنمو جميع أنواع الخضروات، وقد ذكر الرحالة الأوروبيون الذين زاروا المنطقة خلال فترة الحكم الصليبي لها، أنها كانت تشتهر بجميع أنواع الخضروات، وأشار دانيال الروسي أن خضروات أراضي الجليل كانت الأفضل، والأكبر حجماً بين بقة الخضروات التي تزرع العالم[٦].

---

(١) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة(ص٤٠).

(٢) المصدر السابق(ص٤١).

(٣) البشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٣٣٧).

(٤) الفيتري، تاريخ بيت المقدس(ص٦٤).

(٥) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة(ص٦٧).

(٦) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٣٣٥).

وما يدل على زيادة أطماع الكنيسة، في الثروة الزراعية في فلسطين، أنهم أنشأوا دير جميل يقع وسط السهول الزراعية، حيث البساتين الخصبة، أشجار الزيتون الكثيفة، ويسمون هذا المكان أجيابيمينا وهذه تعني " أرض المراعي المقدسة"، وتتبع دير القديس سابا أراضي أسفل الجبل، وعلى جانب بيت لحم"[١]، وصارت الإقطاعات الكنسية التي حازتها الكنائس والأديرة مليئة بأشجار الكرمة، فمدينة بيت لحم التي منحها الملك بلدوين الأول إلى كنيسة المهد، كانت تشتهر بزراعة أجود أنواع أشجار الكرمة هي والمناطق المحيطة بها[٢]، وأصبحت الحرفة الأساسية لسكان القرى التي استولى عليها الفرنج في الشام هي الزراعة، والفلاحة وزراعة الكروم، حيث خضعت هذه القرى لسيادة رجال الدين الكاثوليك[٣].

واستخدمت مناطق في مدينة صيدا كموقع عسكري صليبي، وكانت تقع جزئياً على البحر، أنشأ فيها الألمان قلعتين وسورهما جيداً على أرض صخرية ممتدة داخل البحر، واستوطن جماعة الفرسان الداوية في المدينة وقلاعها، وسيطروا على الأرض الخصبة، والتي تزخر بالمحاصيل المتنوعة، حيث يزرع فيها القصب الممتاز، وأشجار العنب، والثمار المتعددة لتمتعها بمناخ ممتاز[٤].

تنوعت أصول الفرنجة الذين صاروا يعملون في الزراعة في الشام، فمنهم من سكن الأودية الخصبة حول جبال لبنان، واستغلوها جيداً، وزرعوها وظهرت صورتها كأنها محاطة بالمروج الخضراء، وكروم العنب، والحدائق والبساتين، وكل الأشياء الجيدة في العالم، واستوطنها العديد من الشعوب مثل: الموارنة، والأرمن، واليونان، والنساطرة، واليعاقبة، والجورجيون، وجميعهم نصارى، وحسب روايتهم الخاصة، أنهم تابعون للكنيسة في روما[٥].

اعتمد جيش الفرنج أسلوب تدمير حقول الفلاحين، ومزارعهم في الشام، وصار هذا السلوك من أولوياتهم أثناء تقدم قواتهم في كل أرض وطاؤها، فبدأوا بالحصار، وبالتزامن مع تدمير المزروعات والبساتين، وتنفيذا لتعليمات قياداتهم، مما يشير إلى أن هذا التخريب ما هو

---

(١) دانيال، وصف الأراضي المقدسة(ص٧٦-٧٧).

(٢) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٣٤١).

(٣) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين" مملكة بيت المقدس"(ص١٠٨).

(٤) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة(ص٤٨).

(٥) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة (ص٦٦).

إلا وسيلة رئيسة من وسائل التضييق، والمحاربة في لقمة عيش أهالي الشام، واجتثاث كل ما يساعد الناس في الظروف الصعبة، وأمثلة هذه التصرفات لقادة لجيشهم الآتي:

زحف بلدوين إلى صور، وأثناء قتاله لأهلها قطع أشجارها[١]، وكذلك فعل بيمند حاكم أنطاكية، الذي خرج إلى حصن أفامية؛ وأتلف المحاصيل الزراعية[٢].

أمر جوسلين جيشه بينما هو في طريقه إلى القدس، ووصل الوادي وقاتل بزاعا[٣]، وأحرق بضع جدارها، وقطع شجرها، وأحرق بلدة الباب[٤]، وأتلف فيها الشجر أيضاً، وأحرق ما سواها من الوادي، ثم نزل حلب، وخرب بساتينها، وقتل وسبى مقدار عشرين نفراً، وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه، ثم نزل السعدي، وقطع الأشجار[٥]، ونزل بيمند –ملك الصليبيين– حاكم أنطاكيا، إلى حصن أفامية، واستولى عليها وأقام أياماً وأتلف زرعها، ووردت الأخبار بأن الآبار قد غارت في عدة من جهات أعمال الشمال، وجفت المنابع في الكثير من المعاقل، وقلت وتقلصت الأسعار فيها[٦]، ويبدو أن إصرار الفرنج على تخريب الزراعة أثر سلباً على أسعار المواد الغذائية.

وأطبق بلدوين حصار حران[٧]، وعلم بانعدام ورود أية مواد غذائية للمسلمين من الخارج، وهذا دفعهم إلى الاعتماد في كل طعامهم على ما تنتجه هذه الأرض، ولذلك آثر أن يتحمل هو نفسه التضييق على الناس، وألا يسمح للفلاحين المسلمين بالعيش على هذه الحقول فترة طويلة، وظل يراوحهم ويغاديهم بالغارات المتكررة؛ حتى تمكن من منعهم من زراعة أرضهم، وظل بلدوين يمنعهم من الزراعة لبضع سنوات[٨].

---

(١) ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/١٨٠–١٨١).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/٢٢٣)؛ زكار، الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية(ج١١/٩).

(٣) بزاعا البلدة المعروفة شرقي حلب. الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب(ص٥١).

(٤) الباب فهي أكثر عمارة من بزاعا وكان فيها مغاير تعصم أهلها من العدو وكان بها طائفة كثيرة من الإسماعيلية. الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب(ص٣٨٩).

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٨٦).

(٦) ابن القلانسي، تاريخ دمشق (ص٢٢٣).

(٧) حران: مدينة في شمال سوريا، بينها وبين الرقة ثلاثة أيام وتبعد عن جسر منبج يومان. الإدريسي، نزهة المشتاق(ج٢/٦٦٥).

(٨) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٤٩).

خرج دبيس وجوسلين من تل باشر، وتمركزوا حول مدينة حلب؛ وحاصروها وقصدا ناحية الوادي؛ وأفسدا القطن، وكافة المزروعات، وما يقدر بمائة ألف دينار، ونزل بلدوين من الجانب الغربي من المدينة، ونزل جوسلين على طريق عزاز، وقطعوا الشجر[١]، ونزلوا على حماة، وواصلوا التخريب وقطعوا الأشجار وقاتلوا في الليل والنهار[٢].

وقد حشد بوهيمند جنوده من معسكرات أنطاكية وهجم بهم ناحية اللاذقية، وقام بتدمير حقول العنب والبساتين القريبة من الأسوار؛ حتى لاتقف عائقاً أمامهم وهم على ظهور جيادهم، فلما فرغ من كل ذلك؛ غادر المدينة تاركاً وراءه دماراً كبيراً في المحاصيل الزراعية[٣].

ويبدو أن الصليبيين استخدموا سيقان الأشجار في إعداد الثكنات العسكرية، وجعلوها مقرات لجنودهم، لأنهم عندما ضربوا طوقاً مشدداً على مدينة دمشق سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م)، وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها، وقد لحق الناس الارتياع لهول ما شاهدوه بأعينهم، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشاب وحذفاً بالأحجار[٤]، ويشكل ذلك إحداث اضطراب للأحوال الزراعية، وتأخر الإنتاج الزراعي.

وعندما هاجم جيش بلدوين مدينة صور " قطعوا النخيل كالأنابيب، ورموا بها في الخندق"[٥]، ويقول الصوري في بيت المقدس:" خرج الزعماء على رأس طوائف كبيرة من الناس لقطع الخشب، الذين يعودون به إلى المعسكر؛ لإتمام عمليات البناء المختلفة، وكان البعض منهم يقوم بقطع الفروع والشجيرات، والأغصان وتكويمها، ثم يجدلونها ضفائر، ويكسون بها الآلات من الخارج"[٦].

وعلى مقربة من بيروت كانت غابة ضخمة من الصنوبر، استغلها جيش الفرنج المحاصِر للمدينة، أن يحصل على كميات ضخمة من الخشب، تصلح لصناعة سلالم التسلق

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٩٢).

(٢) العماد الأصبهاني، البرق الشامي(ج٥٣/٣).

(٣) أنَّا كومنينا، أكسياد(ص٤٥٢).

(٤) أبو شامة، الروضتين(ج١٨٧/١)؛ الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية(ج١٧/ ١٤٤-١٤٥).

(٥) اتعاظ الحنفا(ج٤٨/٣).

(٦) الصوري، الحروب الصليبية(ج١٠٨/٢).

وكل أنواع الآلات، فصنعوا منها الأبراج الخشبية، وآلات الرمي، وشتى صنوف العدد النافعة في الحصار[١].

وبنى الصليبيون محطات مراقبة شمال فلسطين؛ تشرف على الأراضي الزراعية في الطريق نحو دمشق، ومنها قلعة بالقرب من حوض الأحزان، أو "حوض يعقوب" Jacobs Ford؛ ليتحكموا في الممر إلى النهر؛ ويسيطروا على الطريق إلى بانياس، وهي مورد غذاء دمشق، حيث حقول القمح، والرز، والقطن، وبيارات أشجار الليمون الكثيفة، تقع على سفح جبل الشيخ، وحتى اليوم فإن السهل الخصب انقسم ما بين الفرنج والمسلمين[٢].

وسيطر الفرنج على قرية لامبرت Casal Lamberti، إحدى قرى عكا، وأنشأ الملك بلدوين الثالث منطقة استيطانية على أراضها، سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، وقد عرفت القرية بأسماء عديدة منها قرية الزيب، وتل اكزيب Tel Achzib، وهي تقع شمال عكا، على بعد أربعة عشر كيلو متر منها[٣].

تمركز الفرنج في حصن الأكراد الواقع بين إمارة طرابلس الصليبية وبين المدينتين الإسلاميتين حمص وحماة، وبعدها أقاموا عدة حصون ضخمة لسد هذه الثغرة في حدودهم، وأهم هذه القلاع التي بنوها هي: حصن الأكراد وحصن عكار وحصن العريمة والحصن الأحمر وصافينا، وكان حصن الاكراد هو أعظم هذه الحصون[٤].

مر على أرض الشام مرحلة جديدة أصبحت للمستوطنات الصليبية دور واضح في الاستيلاء الزراعي، وحاول الفرنج أن يفرضوا على الفلاحين واقع زراعي جديد، ليُثبتوا بذلك دعائم احتلالهم للبلاد، فعندما استقروا في الأراضي المغتصبة المفتوحة، حولوا الفلاحين المقيمين في القرى من مسلمين ونصارى إلى أقنان، وقضوا على حرية الاستقرار والسكن، وغيروا للأسوأ النظام الحقوقي للمزارعين ومربي المواشي والكرامين والبساتين في بلاد الشام[٥].

---

(١) المصدر نفسه(ج٢/٢٨٩).

(٢) بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس(ص١٤١).

(٣) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة(هامش٢/ص٤٠).

(٤) مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام(ص٧٤).

(٥) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس(ج٢/٢٠٥)؛ زابرووف، الصليبيون في الشرق(ص١٣٣).

وغدر جوسلين بالفلاحين وخرج فأغار على النقرة والأحص، بحجة أسر والي منبج عند المسلمين، فقبض الفرنج على الفلاحين الذين تحت أيديهم في هذه الأعمال وعاقبوهم، وصادروا منهم أموالهم وأقواتهم، مع العلم بأن المسلمين عمروا الضياع واطمأنوا بالصلح معهم[١].

وطلب تنكريد استلام نساء الفلاحين المسلمين من الأثارب[٢]، مثلما تجمعن من قبل في حلب فأخرجهن إليه، واشتد الضيق وقلت المغلات مضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالجيوش الإسلامية على الفرنج، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستين خربة[٣] من بلد حلب لأهلها بالثمن البخس، وطلب بذلك استمالتهم، وأن يصمدوا بها بسبب أملاكهم، وهي ستون خربة معروفة في دواوين حلب، ولذلك يقال أن بيع الملك لمصلحة الحلبيين لأن احتياج بيت المال إلى ثمنها، وأيضاً لعمارة حلب ببقاء الفلاحين فيها حفاظاً على أملاكهم[٤].

كانت مجموعة من العرب قد دخلوا قرية في نابلس، فأتهموا بها رجلاً من الفلاحين، وقالوا: هو الذي دلهم فهرب، فقبض الصليبي على أولاده فسلم نفسه إليه، وقال: أنصفني أنا أبارز الذي اتهمني، فأحضر الملك رجل حداد؛ فأخذه وقال له: تبارز الفلاح من غير قتل فتخرب فلاحته، وكان هذا الحداد وهو شاب قوي، أما الفلاح شيخ كبير، إلا أنه قوي النفس، وأعطى كل واحد منها العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة، والتقيا وكان الشيخ يلز ذلك الحدَّاد، وهو يتأخر حتى يلقه إلى حلقة، ثم يعود إلى الوسط، وقد تضاربا حتى بقيا كعامود الدم، وضرب الرجل، فبرك عليه الحداد، وصار يدخل إصبعه في عينه، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينه، وضرب رأسه بالعصا حتى قتله، وطرحوا في رقبته حبلاً وجروه شنقوه[٥].

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٧٦).

(٢) الأثارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، ينسب إليها أبو المعالي محمد بن هياج بن مبادر بن علي الأثاربي الأنصاري، وهذه القلعة الآن خراب وتحت جبلها قرية تسمى باسمها فيقال لها الأثارب. الحموي، معجم البلدان(ج١/٨٩).

(٣) ودار خَرِبَةٌ، وأخربها صاحبُها. وخَرَّبوا بيوتهم. الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية(ج١/١١٩).

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٥٣).

(٥) ابن منقذ، الاعتبار(ص٣٩).

أما عن ملكية الأراضي الزراعية خلال هذه الفترة ذكر الرحالة الألماني ثيودوريش الذي قال: أن المسلمين لم تكن لهم حقوق إلا إنهم رقيق الأرض، وأن الصليبيين لم يقدروا على التخلي عن الخدمات التي يؤديها المسلمين، والعرب، في المجال الزراعي لكثرة أعدادهم، ولخبرتهم الواسعة في هذا المجال(١).

وكان السيد الإقطاعي يؤجر المسلمين الأراضي التي نهبوها، مقابل أن يدفع ثلثين، أو ثلاثة أرباع، ناتج الأرض الإقطاعية من محاصيل، بشرط أن يقوم المزارع بتحمل كافة الأعمال التي تتعلق بفلاحة الأرض التي استأجرها، بما يعود بالفائدة على السيد الإقطاعي بنسبة كبيرة من غير تكاليف وتعب، فكان يأخذ حقوقه سلعاً، وليس نقداً، بالإضافة على المستأجر أيضاً أن يقوم بدفع أجرة المزارعين العاملين معه وثمن البذور(٢).

٢- تعدي الصليبيين على الثروة الحيوانية لأهل الشام

اهتم أهل الشام بتربية الماشية التي كانت مصدر أساسي لغذائهم، وكان البدو والرعاة يطلق عليهم أهل الوبر، يقضون بمواشيهم فترة الشتاء منذ القديم فيما وراء بادية الشام من الفلوات، تشتد حاجتهم في الربيع إلى أن يدخلوا المعمور، فإذا حصدت الزروع يضطرون إلى رعي أنعامهم وأغنامهم في أرض الحصيد، ومراعي دير الزور والجولان طلباً للماء، والتماساً لبيع محصولاتهم واستبضاع ما يلزمهم(٣)، وذكرت في العديد من آيات القرآن الكريم، ومنها جاء قوله تعالى: {**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ*وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ*وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ* وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**}(٤).

---

(١) الدالي، الزراعة في الأراضي المقدسة خلال كتب الرحالة الروس الألمان(ص٢١).

(٢) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٥٨).

(٣) كرد، خطط الشام(ج٤/١٣٢).

(٤) سورة النحل: [٥ - ٨].

اعتنى الفلاح الفلسطيني كثيراً بتربية الحيوانات، إذ استخدمها في حراثة أرضه بشكل أساسي، وكذلك في نقل محصولاته، ومنها الجواميس والمهر والجمال والحمير [١].

وعندما احتل الصليبيون بلاد الشام استولوا على العديد من المزارع والمواشي التي تعود للأهالي، وقد بدأت هذه الفكرة عندما واجهوا المجاعة على أبواب أنطاكية، وقد عجز قادتهم عن توفير الطعام لجيشهم، واتفقوا على شن الغارات المتتالية على القرى العربية؛ للحصول على الغنائم، لذلك سارع الأهالي في نقل قطعانهم، ومواشيهم، وغيرها إلى الطرق الوعرة في أعالي الجبال النائية؛ خشية أن تطال أيدي الصليبيين من أملاكهم[٢]، وحيث أغار ريموند دي تولوز على كثير من البلاد المحصنة والكثيرة الخصب وأحرق أرباضها[٣]، وعاد من هذه الغزوات بقطعان كثيرة من الماشية والدواب[٤].

كان الصليبيون إذا مروا بالقرب من مزارع الأبقار والأغنام، مالوا عليها وساقوها، حتى بوجود قاداتهم، ومنهم بادين بن بارزان، ومعه أخو حاكم جبيل[٥]، وذكر الغزي أن الفرنج أغاروا على قلعة جعبر؛ فساقوا المواشي، وأسروا من وجدوا[٦]، ويبدو أن أصحاب تلك المواشي قد تعرضوا للتعذيب، والقتل، أو الاعتقال، وقال ابن العديم: " أغار جوسلين على الجبول[٧]، وما حولها، واستحوذ على دواب كثيرة"[٨]، وتانكريد الذي جاء من بيت لحم ومعه قطعان الماشية التي استولى عليها في طريقه[٩].

---

(١) الدالي، الزراعة في الأراضي المقدسة(ص٣٥).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٢٩٩-٣٠٠).

(٣) والأرباض: جمع رَبَض، وهو المأوى. ابن السكيت، إصلاح المنطق(ص٢٢٤).

(٤) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٤١).

(٥) أبو المعالي، مضمار الحقائق وسر الخلائق(ص١٦-١٧).

(٦) الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب(ج٣/٧١).

(٧) الجبول: قرية سورية كبيرة إلى جنب ملاحة حلب، وفيها نهر بطنان، وهو نهر الذهب. ياقوت، معجم البلدان(ج٢/١٠٧).

(٨) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٨٧).

(٩) رانسيمان، الحملات الصليبية(ج١/٤٢٧)

روى وليم الصوري عن استيلاء الصليبيين على قطيع الماشية في فلسطين قرب المكان المعروف باسم" ابلين[1]" حيث يقول: " ولما صارت كتيبة الاستطلاع أقرب ما تكون إلى هذا الحشد، تبينت فيه أعداد ضخمة من الماشية والخيول والجمال، وقد قام على حراستها طائفة من الفرسان على جيادهم، وكانوا لها شبه رعاة، فتقدمت كتائبنا، حتى إذا صارت قاب قوسين أو أدنى منهم، فر الرعاة والفرسان القائمون بالحراسة، وولوا الأدبار، تاركين قطعانهم وإسراب مواشيهم من غير حراسة، فاستولى عليها الصليبيون بلا قتال"[2].

وأورد ريموند أجيل أنه: " اقتربنا من نهر على الطريق من بيت المقدس إلى عسقلان؛ وشاهدنا عرباً يرعون قطاعناً من الأغنام، وأسرباً كبيرة من الماشية والجمال؛ فأرسلنا مئتي فارس للاستكشاف.. وكان جيشنا يضم ألفاً ومائتين من الفرسان؛ وبعد وهروب الرعاة؛ استحوذنا على كميات لا تصدق من الأسلاب، وأسرنا، وقتلنا عدداً كبيراً من العرب"[3]، وجاء في المصادر الأوروبية أنه :" وفي يوم آخر أخذ رجالنا بالزحف حتى إذا صاروا على كثب في أحد الأودية، وانفصل ستون صليبياً عن زملائهم؛ فعثروا على ثلاثة آلاف من البعير، وبعض الثيران والماشية، والحمير، وكثيراً من الأنعام، والجمال، وكان مجموع ما استولوا عليه من الحيوان ثلاثة آلاف رأس، واقتادوا في طريق عودتهم كل هذه الماشية، وجلبوا البهجة إلى نفوس جنود النصارى[4].

وعسكر الصليبيون ناحية عسقلان، وصاروا يستولون على الماشية، والحنطة، وهم في طريقهم؛ ويطبخونها لجيشهم[5]، واجتمع البطرك والأساقفة بالقرب من عسقلان، وتمكنوا باجتماعهم في هذه الضاحية من الاستيلاء على عدد كبير من الضأن، والثيران، والجمال، والنعاج، وشتى ضروب الغنائم[6]، وأورد الصوري:" بأن قطعان من الماشية والدواب التي

---

(١) ابلين هي يبنا القديمة الواردة في التوراة. التطيلي، رحلة بنيامين(ص٢٦١).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١٦٤).

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢٦١).

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة(ص١١٢)؛ توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٢٩٢).

(٥) الشارتري، تاريخ الحملة(ص١٠٨).

(٦) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١٢٢).

غنمناها سارت خلفنا عن تلقاء ذاتها؛ فكانت تقف إذ يقف الجيش، وتعاود السير مباشرة ، إذ يعاود العسكر الزحف، رغم عدم وجود راع يرشدها"[١].

ويبدو أن دائرة أطماع الصليبيين قد توسعت في نهب الثروة الحيوانية، لأنهم أول ما وصلوا الشام، كان غرضهم الحصول على الطعام، ثم صاروا ينهبون من الأهالي دوابهم الأخرى، ليستخدموها في نقل أمتعتهم، واستخدموها أيضا في القتال ومنها الخيول، وجاء في كتاب ابن العديم أن ملك الروم- نقفور- عندما استولى على مدينة حلب، وكان حاكمها سيف الدولة؛ صادر جميع أمواله ومخازن أسلحته وألفاً وأربعمائة بغل[٢]، فقد فاز عساكر بوهيمند بعدد أكبر من الخيول[٣]، وفي بيت المقدس كان ريموند بيليه، وريموند دي تورين، صادفوا مائتي عربي؛ فقتل الكثير منهم؛ واستوليا على ثلاثين حصاناً[٤]، وهاجم جاستون دي بيزييه على رأس ثلاثين من الفرسان المدججين بالسلاح الخفيف جماعة من الرعاة الأغنام، واستولى عليها بعدما فروا مذعورين[٥].

وخرج جوسلين إلى حلب، وأخذ من أحد الأودية ما يزيد عن خمسمائة فرس، حتى لم يبق في المدينة من الخيالة خمسون فارساً، واستولى على الدواب، منها البقر والغنم والجمال، بكميات لا تحصى عددها ولا تحصر، وقتل وسبى، وخرب ما أمكنه، وعاد إلى تل باشر، وكذلك خرج سير ألان في جيشه من الأثارب، وأخذ ما كان بقي من خيل في الجانب القبلي من حلب[٦].

وبعد تجمع جيوش الفرنج، راح رجال حاشية الكونت يتباهون بخيولهم العربية، وثرواتهم، التي منحهم الرب إياها في أراضي المسلمين، ومع ذلك فقد كان هناك البعض ممن زعموا أنهم كانوا في فقر مدقع[٧]، وعندما استولوا على حصن حارم؛ تباهى المؤرخ الأوروبي

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١٦٦).

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٨١).

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٦٩).

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١١٥).

(٥) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٧٢).

(٦) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٨٧).

(٧) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٨٩).

المجهول بقوله:" بفضل رعاية الرب أصاب رجالنا غنيمة هائلة من الخيول، والجمال، والبغال، والحمير المحملة بالطعام والشراب"[١].

ولما وصل الصليبيون إلى أنطاكية، احتاج كثيرين منهم إلى الحيوانات، حيث أنهم استخدموها في نقل أمتعتهم المتعددة، لذلك هلك الكثير منها، ومن هذه الأفعال أن الفرنج وضعوا أحمالهم فوق الجديان، والماعز، وإناث الخنازير، والكلاب التي حملت الملابس، والطعام وأي أمتعة ضرورية للصليبيين"[٢].

وبرزت قسوة الفرنج اتجاه الدواب أثناء قدومهم إلى القدس، في أنهم حملوا على ظهورها ما لا تطيق، ويروي عن هذه الأفعال الشارتري؛ بقوله: " ترى الماعز والأكباش التي أخذت من الشرقيين وقد أضناها حمل المتاع، وتشققت ظهورها وانبرت لحمل الأثقال، ولم يبق من الدواب لحمل المتاع غيرها[٣]، وأكد ذلك المؤرخ المجهود بقوله:" وقد نفذ منا معظم جيادنا، حتى اضطر الكثيرون من فرساننا للترجل، ودفعنا هذا العجز إلى أن استعملنا الثيران بدلاً من جياد القتال، في وسط هذه الحاجة الملحة استعملنا الماعز، والخراف، والكلاب، لحمل أمتعتنا"[٤].

وتنوع غرض الفرنج في نهبهم للثروات الحيوانية في الشام، حتى تطور بهم الحال إلى الاتجار بها، فقد أورد المؤرخون الغربيون أن الفرنج بقيادة ريموند، وتنكريد، قد استعانوا بالأدلاء العرب، عند عبورهم نهر العاصي؛ وقادوهم بالخطأ إلى وادي بين شيرز وحماة، في الوقت الذي جمعت فيه ماشية الحاكم وكل المناطق المجاورة؛ وذلك بسبب الخوف عليها من نهب الصليبيين، وكان منظر قطيع الماشية الضخم مفاجأة لهم، فما كان من فرسان الفرنج إلا أنهم استولوا على جميعها، وباعوا الفائض منها في شيرز وحمص وحماة، وهكذا حصلوا على نحو ألف من أفضل جياد العرب، ولم يكن الرعاة القرويون لديهم من القوة لمنع الفرنج[٥].

وتعدى الصليبيون على الثروة الحيوانية لأهل الشام في وقت السلم معهم، ونكثوا الاتفاق الذي عقده ملك القدس الصليبي، على تثبيت هدنة اسمية مع صلاح الدين، بألا يعتدي أحد

---

(١) المرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص٤٩).

(٢) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٠٤).

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٨٢).

(٤) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص٤٤).

(٥) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٨١-١٨٢)؛ راينسمان(ج١/٤٠٧).

منهم على مصالح الآخر، فقد كشف المؤرخ الأوروبي بأن عقيدة النصارى تدعى أنه لا حاجة للتمسك بالصدق مع المسلمين، وحال ما كانت بينهم معاهدة ودية؛ حتى بدأوا بالنهب في وادي الليطاني، وحرقوا الذرة والمزروعات، وأشعلوا النيران في بيوت الفلاحين، وعادوا منتصرين محملين بالغنائم، يقودون عدداً كبيراً جداً من قطعان الأغنام، والمواشي المسروقة[١].

ويبدو أنه كانت تعقد اتفاقات بين المسلمين والصليبيين، وذلك للحد من تعدي الفرنج على الثروة الحيوانية لمواطني الشام، وكذلك تسمح للمسلمين لرعي دوابهم في المراعي بأمان، حيث قال ابن جبير: " وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة"[٢].

وقد حث قادة الفرنج فقرائهم على تقديم عُشر غنائم القتال، وكان التقسيم الذي اتفقوا عليه كما يلي: الربع للكهنة الذين يقيمون الطقوس الدينية، والربع للأسقف، والنصف لبطرس الناسك، الحارس المرخص له بحماية الفقراء، ورجال الدين وعامة الناس، وأعطى بطرس بدوره هذا المبلغ لرجال الدين وللعامة، وبالتالي جمعوا أعداداً هائلة من الخيول والجمال، وعلى الرغم من الرخاء المفاجئ لهم إلا أن عجرفة القادة وطمعهم أوجد بينهم الخلاف[٣].

كان الصليبيون ينهبون دواب أهل الشام حتى في أعنف غاراتهم، ومنها في غزوتهم على حلب من شرقيها، بقيادة تنكريد، ودمروا أسوار البلد بالكباش، وقتلوا وسبوا من وجدوا، وأخذوا ما قدروا عليه من المواشي والدواب، بعدما غدروا بالفلاحين وأعطوهم الأمان على أنفسهم وأموالهم [٤]، وفي غزة ملك الفرنج قلعة الداروم[٥]، وأغاروا على جنود مصريين وأسروا خمسمائة رجل، وسلبوا نحو ثلاثة آلاف جمل[٦].

---

(١) بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس(ص١٣٥).

(٢) ابن جبير، الرحلة(ص٢٤٦).

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٨٩).

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٥٢).

(٥) لم تزل غزة وهي يد صلاح، ثم في يد العزيز ثم، في يد الأفضل أخيه، ثم في يد عمه الملك العادل، ثم في يد ولده الملك المعظم، ثم صارت في يد الملك الكامل، إلى أن مات، فتغلب عليها الملك الناصر ابن الملك المعظم، وولّى فيها. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ج١/١٠٨).

(٦) المقريزي، السلوك(ج١/٢٢٣).

وأبرم سكان الشام اتفاق سلام في منطقة جنوب لبنان مع ملك الافرنج، وحصلوا بموجبه على الإقامة في غابة بانياس، وأحضروا عدد كبير من حيواناتهم، لا سيما الخيل وتركوها ترعى في هذه الغابة لوفرة المراعي الخصيبة بها، وجاءت طائفة من الصليبيين وصفهم الصوري بأولاد ابليس الشريرين، وأغروا الملك باقتراحهم، لأنه كان مثقلاً بالديون، وشاركهم في الخطة، وباغتوا الناس وشنوا هجوم عليهم دون مراعة للعهد الذي قطعه، وأخذ الملك قطعانهم ومواشيهم لرجاله، وعدد ضخم من الأسلاب، وأسروا الكثير من الرعاة، كما وزع عدد كبير من الجياد بالقرعة، فلم يبقَ فرد حتى أدنى القوم مكانة بين الصليبيين إلا أخذ نصيب، ولم تحظ هذه الأفعال بالثناء من الأوساط النصرانية من شناعة التصرف اتجاه الأبرياء، ولأن الفرنج طعنوا اتفاقاً سلمياً، وأساءوا المعاملة مع قوم لم يضروا بهم[١].

٣- التعدي الافرنجي على الثروة المائية في بلاد الشام

تعددت مصادر الثروة المائية اللازمة للشرب والري في بلاد الشام، ومنها: والأنهار، والآبار، والعيون، ومياه الأمطار، ومثلت عصب الحياة للناس، ليستخدموها في كل مجالات الحياة من الشرب، وسقي الدواب، وري المزروعات، قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}**[٢].

وتقوم الزراعة في بلاد الشام على مياه الأنهار، والينابيع، والعيون، والقنوات، وماء الغوطة من عين تنحط من أعلى الجبل كالنهر[٣]، وتعتبر الأنهار من المصادر الرئيسة للمياه في بلاد الشام، ومنها نهر العاصي الذي يمر بمدينة حماة، وإلى جانبها نواعير دائرة، تسقى بساتينها، وهى في الجهة المقابلة لها، وتصبّ أيضا في بركة جامعها ومدارسها وغيرها[٤]، ونهر الأردن بين بيت المقدس ودمشق، وعلى طرفه بحيرة طبرية، وهو شديد الحر غير طيب

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/٤٠٣-٤٠٤).

(٢) سورة الأنبياء: [٣٠].

(٣) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار(ص٤٣١).

(٤) البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع(ج١/٤٢٤).

الماء، وأكثر ما يستفاد منه زراعة قصب السكر[١]، وأيضاً نهر اليرموك يعدّ من أكبر روافد نهر الأردن، وينبع من مرتفعات حوران، ويلتقي معه في جنوبي بحيرة طبرية[٢].

ومياه فلسطين لها ميزة خاصة بها، فقد وصفها المقدسي بالتفصيل بقوله: " ماء بانياس فإنه يطلق، وماء صور يحصر، وماء بيسان ثقيل، ولا ترى أخف من ماء أريحا، وماء الرملة مري، وماء نابلس خشن، وفي ماء دمشق وإيليا أدنى خشونة، وفيها عدّة من الأنهار" [٣]، أورد الحاج الروسي دانيال الراهب عن ماء مدينة نابلس قائلاً: " ويتخلل المدينة عدد من الينابيع العذبة باردة المياه"[٤].

اعتمد أهل القدس على مياه الأمطار في حياتهم، فهم يجمعونها ويخزنونها بصهاريج لاستعمالهم، ولا يستخدمون ماء آخر، وإن فرقة الداوية الصليبية وضعت صهريج ضخم مزود بألة متحركة من ضخها، ومصادر المياه في فلسطين محدودة، وتتمثل في نهري الأردن واليرموك، وبحيرتي طبرية والحول، وأمطار الشتاء، وبعض الينابيع والعيون والآبار[٥]، استخدمت الخزانات المفتوحة داخل وخارج أسوار القدس، وقد عدت مصدراً مهماً للتزود بمياه الشرب، بالإضافة إلى استخدامها لسقى المواشي والخيول، والبساتين، أكثر من استعمالها للشرب[٦]. وسيطر الصليبيون على مياه بحيرة طبريا ومنابع نهر الأردن[٧] وما يؤكد بسط نفوذهم هو ما جاء به الراهب دانيال عن نهر الأردن بقوله:" هذا هو المكان الذي تم فيه تعميد السيد المسيح، ويبعد عن نهر الأردن مرمى حجر صغير، وهنا يستحم كل النصارى الذين

---

(١) ياقوت، معجم البلدان(ج٤/٢١٧).

(٢) شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة(ص٢٩٧).

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم(ج١/١٨٤).

(٤) دانيال، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين(ص٩٢).

(٥) الدالي، الزراعة في الأراضي المقدسة (ص٢٤)؛ الإصطخري، المسالك والممالك(ص٤٣).

(٦) Boas,Jerusalem,p.176.

(٧) دانيال، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين(ص٩٤).

يقومون بزياته[1]، وأورد في موضع آخر أن جميع النصارى يقفزون إلى الماء، ويعمدون في مياه النهر في منتصف الليل، كما حدث للسيد المسيح حسب اعتقادهم[2].

وشاهد الرحالة المسلم قبيل الغزو الصليبي للشام عين ماء تنبع من الصخر تسمى عين سلوان[3]، وهي تخرج من مكان في الجبل الذي عليه بناء مدينة القدس، ويجري في داخل ذلك الجبل، ثم يخرج من صدع في الجبل إلى ساحة لطيفة في انفراجه في الجبل لا ترى إلا جدولاً جارياً، والنبع من داخل الصدع[4].

ذكر الراهب دانيال الروسي أن أراضي أريحا تمتاز بالخصوبة، ووفرة الإنتاج، ومليئة بالينابيع العديدة المنتشرة في كل مكان، لذلك اشتهرت المنطقة بزراعة أشجار الكرمة الجيدة، والتي كانت تنتج أجود أنواع الفواكه، العنب، وكذلك زراعة النخيل في الأراضي المقدسة[5].

واهتم أهل الشام بتوفير مياه الشرب في الأماكن العامة، لتكون في متناول جميع الناس، وتجلى ذلك في الأسواق، من خلال بناء مشرعة ذات خمسة صنابير، يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم، ويفيض الباقي منه على الأرض، ويصرف في البحر[6].

وظهرت تعديات النصارى على مصادر المياه في الشام، عندما أقاموا معسكراتهم فوق منابع المياه العذبة واستولوا عليها، وكلما عثروا على منبع الماء بنوا فوقه حصونهم ومستوطناتهم وأحاطوا به، ولقد اختار بلدوين الأول بقعة على ساحل البحر، تقع على بعد ستة أميال جنوب مدينة صور، وهذه البقعة قريبة من نبع ماء صاف عذب، وشيد حصناً عرف بحصن " سكنداليوم"[7]، وهذا يدل على أن مواطني الشام حرموا من الحصول على القدر الكافي واللازم من المياه العذبة؛ بسبب تعدي الفرنج على منابعها.

---

(١) المصدرالسابق(ص٦٣).
(٢) المصدر نفسه(ص٦٥).
(٣) خسرو، سفرنامة(ص٥٧).
(٤) شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار(ج٥٤٣/٣).
(٥) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٣٤٢).
(٦) خسرو، سفر نامة(ص٤٧).
(٧) الصوري، الحروب الصليبية(ج٤٢/٣).

ووضح ابن جبير في كتابه عن صورة انتهاكات الصليبيين بعدما استوطنوا في بعض قرى الشام، وتحكموا في منابع المياه، استفردوا بالاستفادة لصالح عائلاتهم النصرانية فقط، دون مشاركة المسلمين في استخدام مياه الشرب بقوله: " ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة[١]، ليس فيها من المسلمين أحد، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد، وفي وسطه صهريج كبير مملوء بالماء، ويتسرب له من تحت الأرض عين، فهو لا يزال ملآن، ثم رحلنا منه الى قرية تعرف بالنبك[٢]، بها ماء جار ومحرث متسع[٣].

ويبدو الدوافع الزراعية من الأسباب جعلت الصليبيين يستولون على المياه في بلاد الشام وفلسطين، وظهر ذلك في اهتمامهم بزراعة قصب السكر، وقاموا بإنشاء القنوات والمجاري من أجل توصيل المياه إلى الأراضي المزروعة بقصب السكر، وكانت هذه القنوات تكثر في المناطق المجاورة لقيسارية وأريحا[٤].

يبدو أن الصليبين قد زاد اهتمامهم بالثروة المائية أكثر بعد ما عرفوا أهميتها الاستراتيجية في تدعيم مكوثهم في بلاد الشام، ولأنهم اعتمدوا على الحيوانات في عملية النقل، والتي تحتاج أيضاً للارتواء، وقد أورد مؤرخ الحملة أنهم في فترة اقتحامهم مدن الشام، واشتباكهم مع المجاهدين المسلمين شعروا بالضيق، ونقص الماء والطعام لديهم، وبقوا عشرة أيام لا يجدوا خلالها الخبز، وكانوا يمشون ستة أميال؛ ليسقوا جيادهم، وحيواناتهم، غير أنهم وجدوا الماء عند نبع سيلو، الواقع عند سفح جبل صهيون، إلا إنه كان يباع بينهم بثمن غال جداً[٥].

وقد عانى جيش الفرنج كثيراً من ندرة الماء أثناء القتال في أنطاكية، ومعرة النعمان، والقدس؛ حتى أنهم خيطوا جلود الثيران والجاموس والماعز، وصنعوا منها قوارير جلدية وملأوها

---

(١) قارة: وتكتب القارا وهي قرية تقع بين حمص ودمشق في سوريا. ابن خرداذبة، المسالك والممالك(ص٧٦).

(٢) النبك : قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق فيها عين عجيبة باردة في الصيف صافية طيبة عذبة يقولون مخرجها من يبرود، وقال الراجز: أنى بك اليوم وأنى منك ... ركب أناخوا موهنا بالنبك. ياقوت، معجم البلدان(ج٥/٢٥٨).

(٣) ابن جبير، الرحلة(ص٢٠٩).

(٤) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٣٦٣).

(٥) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١١٥).

بالماء الذي يكفيهم لمسافة ستة أميال، ودرجوا على شرب هذا الماء الدنس[١]؛ وتفاقمت صعوبة امدادات المياه للجنود؛ حتى أن أعداداً من دواب الحمل والقطعان كانت تهلك في كل يوم من العطش؛ مما دفع الجيش إلى إرسال فصائل من الجنود حتى الأردن للبحث عن المياه[٢].

وأشار المؤرخ الأوروبي أن سبب نقص الماء لدى جيش الفرنج كان بفعل مقاومة المسلمين لهم، حيث قال:" كان الماء الذي حملناه معنا في الأواني قد أسن ونتن، واقتصر طعامنا اليومي على خبز الشعير، مما صار مثار حزننا، ومبعث أسانا، والواقع أن الشرقيين عملوا من ناحيتهم سراً على نشر المرض بين رجالنا، بإفسادهم مياه الينابيع والعيون"[٣].

وعندما علم أهالي بيت المقدس باقتراب الجيش الصليبي أخذوا يخربون منابع الآبار، وأفسدوا مخازن المياه التي حول المدينة، أملاً منهم أن ييأس جنود الفرنج في حصار المدينة، ويتراجعوا عنها حينما يجدون أنفسهم يعانون من العطش الشديد، ونجحت بالفعل خطة الأهالي في تعذيبهم، وبينما كانت المياه الكثيرة متوفرة داخل المدينة بفضل ما خزنوه من مياه الأمطار في الشتاء، بالإضافة إلى ما أحضروه من الينابيع الموجودة حول المدينة[٤].

وكابد الفرنج من الظمأ، وذلك لوقوع بيت المقدس في أرض خالية من الماء، أما القنوات والينابيع والآبار العذبة فكانت بعيدة عنهم، وزاد الأمر مشقة أن المسلمين قد أفسدوا مصادر هذه المياه، وألقوا فيها الأوساخ ومختلف الفضلات، وعمدوا إلى بعض الصهاريج وخزانات مياه المطر فثقبوها، لذلك أصبحوا مجموعات متفرقة منتشرين في البحث عن الماء[٥].

واتخذ افتخار الدولة تدابير فعالة، ومن ضمنها أن مصدر المياه النقي الوحيد كان يأتي من بركة سيلوم، أسفل السور الجنوبي، وكانت معرضة بشكل خطير لقذائف المدافعين عن المدينة[٦].

---

(١) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٣١٤).

(٢) رانسيمان، الحملات الصليبية (ج١/٤٣٠).

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١١٦).

(٤) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٩٣-٩٤).

(٥) المصدر السابق(ج٢/٩٩-١٠٠).

(٦) رانسيمان، الحملات الصليبية(ج١/٤٢٨).

وضع قادة الفرنج خططهم للاستحواذ على الثروة المائية في بلاد الشام، وراحوا يقيمون حدودهم، وهي عبارة عن تحصينات وأبراج مراقبة، عند الأماكن الغنية بالمياه، ولم يقيموها عند مياه نهر الأردن الضحلة، ذلك أنهم أنشأوا خطاً من الحصون، يبدأ من وادي نهر اليرموك، فيما عدا عمان والعقبة، وصارت القلعتان الكرك والشوبك التي سميت مونتريال[1]، وعدد من القلاع الصغيرة مقار الحاميات الصليبية، وصارت تلك القلاع الحصينة تستخدم كأماكن لتزود القوافل التجارية والجيوش بالمياه[2].

وأورد ابن العديم أن صنجيل عندما حاصر البارة، غدر بأهلها؛ وعاقب الرجال والنساء، وقلَّ فيها الماء، فأخذها أهلها بالأمان[3]، وكان البرنس صاحب الكرك ويمنع أهله من ورود الماء، فنال أهله شدة شديدة، وضيق عظيم[4].

واحتل الصليبيون مدينة بانياس[5]، واعتلى جنودهم أسوارها، وسيطروا على حصن هونين، الذي يطل على الأراضي الزراعية الواسعة، والتي لها حظ من الشرب، والأغوار التي تسقى من أودية جارية من الجبال، مثل سيل الزرقاء، والسائل من جهة عجلون إلى الغرب، ومثل مياه بَيسان، المنحدرة من صوب مرج بني عامر إلى الشرق، ومثل ماء الفارعة، النازل من الغرب إلى الشرق، ومثل عين السلطان، التي تسقي جنان أريحا، ومثل غور نمرين، المنحدر من وادي شعيب أسفل الصلت إلى الغرب، وماء حسبان وغيرها من المياه، فالقريب من الماء يروي أرضه أو بستانه بالقربة، أو المدار كأهل الزور، وجزيرة ابن عمر في أقصى

---

(١) مونتريال: تعرف بإسم قلعة الشوبك، وقد شيدها الملك بلدوين سنة(٥٠٨هـ/١١١٥م)، لأنه لم يكن لدى الفرنجة قلعة فيما وراء نهر الأردن ، وقد شيدت القلعة في موقع مرتفع مناسب ، واكتبت حصانتها من خلال موقعها الطبيعي، بالإضافة إلى عمل خندق أمامها، ولأن مؤسس هذه القلعة ملكاً فقد وهب ها اماً مشتقاً من الملكية، وهي تعني الجبل الملكي. انظر الفيتري: تاريخ بيت المقدس(هامش١/٣٥).

(٢) براور، عالم الصليبيين(ص٥٣).

(٣) زبدة الحلب(ص٢٤٤).

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٤٦٨) .

(٥) سقطت مدينة بانياس بيد الفرنج سنة(٥٤٣هـ/١١٤٨م). الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب(ج٣/٨٤).

الشام، فإن هذه الأنحاء في وسط المياه كالفرات والخابور، وكان نهر بردى ونهر الأعوج يستفاد منهما أكثر من جميع الأنهار [١].

ويتبين أن الصليبين سنوا قوانين، تنفذ سياسة قطع مياه الشرب عن أهالي الشام، كأداة من أدوات الحصار، والسيطرة العسكرية، ويظهر أن هذا الأسلوب كان ناجعاً لديهم، لهذا نفذه صنجيل الإفرنجي بعدما ثبت عساكره في أنطاكية، وحاصر البارة[٢]، وقل الماء عندهم، فأخذها بالأمان[٣].

ووصلت حشود الفرنج وحديدهم إلى دمشق في الخلق الكثير، بما يقدر خمسين ألف من الخيل والرجل، ومعهم من السواد والجمال والأبقار، وقصدوا المنزل المعروف بمنازل العساكر فصادفوا الماء معدوماً فيه، مقطوعاً عنه، فقصدوا ناحية المزة[٤] فخيموا عليها لقربها من الماء وهجم جيشهم على المنطقة، ووقف المسلمون بإزائهم مدافعين عن مياههم، لكنهم استظهروا على المسلمين بكرة أعدادهم، وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين ونصبوا معسكرهم فيها[٥].

لما وصل الفرنج مدينة صيدا نصبوا خيامهم على طول شاطئ النهر كي يتوفر لديهم الماء، وعبروا هذا النهر المتعرج وبلغوا مدينة صور، وفيها نصبوا معسكرهم على مقربة من نبع الجنان المعروف، وهو نبع غزير الماء، ويعد أعجوبة من أعاجيب الدنيا، فأمضوا ليلتهم هناك في بساتينه[٦].

واحتل صنجيل قمة تل مواجهة لمدينة طرابلس، وكان هذا التل جزءاً من جبل لبنان، وموقعه هذا صالحاً لأن يصبح قلعة، إذ يستطيع المسيطر عليه أن يحول دون تدفق المياه من

---

(١) ابن جبير، الرحلة(ص٢٤٦)؛ كرد، خطط الشام(ج٤/١٣٣).

(٢) البارة: بلد نواحي حلب في سوريا، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة. ياقوت، معجم البلدان(ج١/٣٢٠).

(٣) ابن الشحنة، الدرر المنتخب(ص٢١٦).

(٤) المزة: من ضياع غوطة دمشق السورية غزيرة المياه كثيرة البساتين، والغوطة أيضا هي أشجار وأنهار ومياهها مخترقة تشق البساتين والديارات. الإدريسي، نزهة المشتاق(ص٣٦٦).

(٥) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٤٦٣).

(٦) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٦٤-٦٥).

الجبل إلى طرابلس، وقام ببناء حصن شديد المناعة، وذلك قبل أن تصل الامدادات الجديدة من خراسان فتغلبه، فكرس كل جهده للاستيلاء على ذلك المكان[١].

ثانياً: ضرائب الفرنج على أهل الشام وتدميرهم التجارة والصناعة

أ- فرض الفرنج الضرائب على أهل الشام ونهبهم أموالهم

استمر حكام مدن الشام في دفع الرشاوي للفرنج، أثناء تقدم قواتهم في المنطقة، لدرجة أن بعض الحكام صاروا يعرضون عليهم الإتاوات كي يتجنبوا إيذاء الصليبيين؛ لذلك بعث ملك طرابلس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب من أموال المسلمين، بالإضافة إلى الخيول، والبغال، والملابس الكثيرة، وفعل مثله سيد جبلة؛ خوفاً من حصار آخر عليه، وقد أهدى إلى الفرنج ضريبة قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية، وخيولاً، وبغالاً[٢].

يقول ريموند أجيل:" تأثر مبعوثو أمير حمص وملك طرابلس، الذين كانوا في المعسكر في ذلك الوقت، بمنظر شجاعتنا وقوتنا.. وعادوا بهدايا فخمة وخيول كثيرة، وكان ذلك بسبب الخوف الذي سيطر على المنطقة كلها بعد استيلائنا على القلعة "[٣].

ويظهر أن حكام الشام كانوا يتخوفون من اعتداءات الفرنج التي باغتتهم، ودقت ناقوس الخطر في البلاد، واستهدفت الإنسان، والشجر، والحيوان، بدون شفقه؛ لذا تنازلوا عن أموالهم حفاظاً على حياة أبنائهم، وأعراضهم، وصون ما تبقى من مصالحهم المنتشرة البلاد، والتي أصبحت عرضة للتلف والهلاك.

وسارع أهالي بيروت بتقديم الهدايا للصليبيين خشية من أن يقوموا بتدمير الحدائق الباسقة، وبساتين الفاكهة، وذلك عندما اقتربوا من البلد وسمحوا لهم بالمرور بجانب أراضيهم الزراعية، شريطة عدمَ إضرارهم بأشجار الفاكهة والكروم والمحاصيل، وقبل أمراء الفرنج شرطهم[٤]، فلما تقرر أمر بيروت رحل الملك الإفرنجي بلدوين في جموع الصليبيين ونزل على ثغر صيدا، وراسل أهل البلد، يطلب منهم الاستسلام، فاستمهلوه مدة محدودة فوافق إليهم بعد أن

---

(١) أنّا كومنينا، ألكسياد (ص٤٣٩).

(٢) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٨٩-١٩٠).

(٣) المصدرالسابق(ص١٨٥).

(٤) رانسيمان، الحملات الصليبية (ج٤١٨/١).

قرر عليهم ستة آلاف دينار تحمل إليه مقاطعةً وكانت قبل ذلك ألفي دينار ورحل عنها إلى بيت المقدس[١].

بعث الملك رضوان –صاحب حلب– إلى الصليبيين اثنين وثلاثين ألف دينار، يرسلها إليهم مع خيول وثياب، لإبعاد ايذاء الصليبيين، ودفع لهم أصحاب البلاد أموالاً، وسالموهم، وكذلك صالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار، ومثله ابن منقذ– حاكم شيرز– على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي حاكم حماه على ألفي دينار[٢]، فإن سيد جبلة خوفاً من حصار آخر أرسل إلى قادة الفرنج ضريبة قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية، وخيولاً وبغالاً وكمية وافرة من النبيذ[٣].

فرض حكام القدس وطرابلس الصليبيين حصار بحري على صور، بمساعدة البنادقة وأربعين سفينة شراعية وكثير من السفن الأخرى الصغيرة والكبيرة، مدججين بمختلف بكل أنواع السلاح، أجبروا سكان المدينة على الاستسلام بعد خمسة شهور للحصار، فلم يستطع السكان تحمل المجاعة، وسلموا المدينة بشرط الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم[٤]، حاول أهالي صور رشوة جندي صليبي بمبلغ مالي كبير اسمه رنفريد Rwinfried كي يسهل لهم عبور قافلتهم التجارية التي تحمل أغراضهم وأموالهم، ولكنه بلغ بلدوين بذلك، فهجموا على بضائعهم واستولوا عليها[٥].

اجتمع أمراء مدن عسقلان وقيسارية وعكا وأرسوف، قرروا إرسال الهدايا من الحبوب والفاكهة والزيتون، والخيول العربية إلى جودفري، وعرضوا عليه دفع إتاوة شهرية قدرها خمسة آلاف بيزنطة إذا سمح لهم بأن يفلحوا أرضهم في سلام، فقبل جودفري عرضهم[٦]، وأغار

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٦٩).
(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٢/ص٢٢٥).
(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٨٩).
(٤) الفيتري، تاريخ بيت المقدس (ص٥٣-٥٤).
(٥) حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية(ص١٠٦-١٠٧)
(٦) رانسيمان، الحملات الصليبية(ج١/٤٦٤).

بلدوين على عسقلان، عرض عليه أميرها شمس الخلافة أسد مال يرسله إليه ويرحل عنه، وقرر على أهل صور سبعة آلاف دينار تدفع له خلال مدة سنة وثلاثة أشهر، وأنكر ذلك الأفضل[١].

تطور موقف حكام الصليبيين، وصاروا هم الذين يطلبون تحصيل الضرائب من أمراء المدن العربية، مقابل رفع الحصار عن السكان، ومنها حشد بلدوين لعساكره وقصده مدينة صور، ثم نزل بقواته فيها وشرع في بناء حصن في منطقة تطل على مساحات واسعة تسمى تل المعشوقة وأقام شهراً، وصانعه واليها على سبعة آلاف دينار فقبضها منه ورحل عنها[٢].

تمكن الفرنج من السيطرة على طرابلس فنهضوا إلى رفنية[٣]، وترددت وبينهم وبين حاكمها مراسلات ومخاطبات حتى توصلوا إلى أن يكون للفرنج حصن المنيطرة وحصن ابن عكار، ويكفوا عن العيث والفساد في البلاد وما حولها، وأن يكون حصن مصياث وحصن الطوفان وحصن الأكراد ضمن شروط الاتفاق، ويدفع أهلها عنها مالاً معيناً في كل سنة إلى الافرنج فأقاموا على ذلك مدةً يسيرةً ثم نكثوا الاتفاق وعادوا إلى رسمهم في الفساد والعناد[٤].

بعدما ثبت الصليبيون دعائم استيطانهم في بلاد الشام، واصلوا ابتزاز للأهالي في أموالهم من خلال تهديد للمدن المجاورة لهم في، وأرغموا السكان في حلب وغيرها أن يدفعوا لهم الضريبة حتى نصف دخلهم، لدرجة أنهم صادروا عائدات المطحنة في بوابة الحديقة[٥]، ويبدو أن ثروة رجال الدين النصرانيين في الشام توسعت، ويشار هنا أيضاً إلى احتكارهم مخابز المدن التابعة لهم[٦].

كان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم وضعف أهلها عن كف عاديهم وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب ..حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجا وإتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٦)؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص١٧٢).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٥٥)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٦١).

(٣) مدينة من أعمال حمص، وقيل: بلدة قرب طرابلس من سواحل الشام. ابن شمائل، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع(ج٢/٦٢٣).

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/٢٦٤).

(٥) بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس(ص٥٢).

(٦) حسين، التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية(ص٦٢).

عنهم.. وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا، وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها، حتى في الرحا التي على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين[١].

قوي طمع الفرنج في دمشق، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم اشتد البلاء على أهلها[٢].

كتب إيتان دي بلوا إلى زوجته من جوار أنطاكية: " صدقيني، يا عزيزتي، أن ما عندي الآن من الذهب والفضة ضعفي ما كان عندما فارقتك"[٣]، ويقول الشارتري:" يكفي أن أقول إن كثيراً من رجالنا اغتنوا بعد فقر، رأيت كثيراً من جثث الشرقيين الذين قتلوا هناك وقد جمعت في كومة وأضرمت فيها النار[٤].

أظهر بوهيمند في معرة النعمان بالغ قسوته وطمعه وغدره، لأنه خدع السكان، من الرجال والنساء والأطفال، عندما توسلوا إليه بعدم قتلهم، ولكنه قبض عليهم، وانتزع منهم كل ما معهم من مال أو ذهب فضة ومختلف المجوهرات[٥]، وكذلك فعلوا غي مدينة طرسوس عندما اقتحموها ليلاً، براً وبحراً وأسعدهم الحظ عندما عثروا على كميات ضخمة من المؤنة والغنائم[٦].

يقول ريموند أجيل: " اختبأ المسلمون في كهوف تحت الأرض، وبالفعل لم يظهر منهم أحد في الشوارع، وسرق الصليبيون كل السلع التي كانت فوق الأرض، ودفعهم الأمل في الحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض، فأطلقوا الدخان على المسلمين لإخراجهم من كهوفهم باستخدام النار وحرق الكبريت"[٧].

---

(١) أبو شامة، الروضتين(ج١/ص١١٧).

(٢) المصدر السابق(ج١/ص٣٠١).

(٣) زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص٩١).

(٤) الشارتري، تاريخ الحملة(ص١١٥).

(٥) المصدر السابق(ص١١١).

(٦) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٤٨)؛ الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس(ص١٢٤).

(٧) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٦٩).

ولما اتجه الفرنج إلى مدينة قيسارية، نفذت ذخائرهم وأموالهم أثناء الطريق، وظهر عليهم حالة الفقر والبؤس وبعدما نفذ ما بأيديهم من زاد، اقتحموا البلد وارتكبوا الجرائم بحق الأهالي، يروي الصوري: " أما اليوم ، وقد أصابوا الكثير من أسلاب والغنائم فقد أترفوا غاية الترف بسبب كثرة ما نهبوه" [١].

واجتاح الصليبيون مدينة قيسارية، ونهبوا أموال المحاصرين[٢]، ورفعوا بعد ذلك عنهم الحصار[٣]، وجمعوا شتى الغنائم في صعيد واحد داخل المدينة، وفصلوا ثلثها جانباً نصيباً للجنوبيين حسبما تم الاتفاق عليه، فصار الفقراء من النصارى أغنياء بعدما أصابوا الكثير من الأسلاب[٤]، وساروا نحو بيروت، وعملوا برجاً من الخشب فكسره أهل بيروت، فاندلعت الحرب فاخذل المسلمون " وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد، واستولوا على الأموال و الذخائر "[٥].

بعدما قتل الفرنج من أهالي بيت المقدس ما يزيد عن سبعين ألفاً، وأخذ الفرنج عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً فضة، كل واحد وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم فضة، وتنور فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي وأموالاً لا تحصى[٦].

حاصر الفرنج سروج ثم احتلوها، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يسلم إلا من هرب، واحتلوا حيفا عنوة، وسيطروا على أرسوف بالأمان، وأخرجوا أهلها منها، استولوا على قيسارية بالقوة، وقتلوا أهلها، ونهبوا ما فيها[٧]، وحاصر صنجيل البارة وغدر بأهلها، وعاقب الرجال والنساء، وجرد منهم أموالهم وسبي بعضاً وقتل بعضاً[٨].

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٢٢).

(٢) ملك الفرنج مدينة قيسارية بالسيف سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م)، وقتلوا أهلها، ونهبوا ما فيها. ابن الأثير، الكامل(ج٨/٤٥٨).

(٣) الفيتري، تاريخ بيت المقدس(ص٥٨).

(٤) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٢٢).

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٥)؛ الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس (ص١٤٦).

(٦) الغرناطي، الرحلة (ص١٥٥)؛ ابن الأثير، الكامل(ج٨/٤٢٥) ؛ ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/١٥٦)؛ ابن خلدون، تاريخ(ج٥/٢١١)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٩/١٤٩)؛ ابن العماد، شذرات(ج٥/٤٠١).

(٧) مجموعة من الباحثين، الموسوعة التاريخية(ج٤/١٥٣).

(٨) ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٤٤).

بنى الصليبيون حصن الكرك، وعرف بأنه أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والقاطع لطريق المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أقل، وحركة القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم[١]، وكتب العماد عن حصن الكرك أنه " الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب أشراك اشراكه منه على طرق الاجتياز "[٢].

وأنشأت الملكة أم حاكم عكا والتي نعتها ابن جبير بالخنزيرة، حصن تبنين[٣] وهو موضع تمكيس القوافل، كانوا يفرضون الضرائب على كل المارين من العرب، بمقدار دينار وقيراط صوري على الرأس، والتجار يدفعون ضريبة التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً، وأكثر الخاضعين لهذه المكوس هم المغاربة، لأن من المغاربة قاتل في جيش نور الدين فكان من الفرنج الزامهم بالضريبية المكسية، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم، وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كنا نسالمهم، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم[٤].

وضع الصليبيون في فلسطين حدوداً للفصل بين أراضي مستوطناتهم في الجزء الغربي منها وبين المسلمين، وكانت نفوذ سيادتهم تمتد حتى ساحل يافا، وثبتوا وجودهم إلى الشرق نحو مدن الأردن ليسيطروا على القوافل التجارية المتجهة من سوريا أو بغداد أو مصر إلى بلاد الحجاز[٥].

---

(١) ابن جبير، الرحلة(ص١٦٤)؛ الحميري، الروض المعطار(ص٢٠٢).

(٢) أبو شامة، الروضتين(ج٤/٤٧).

(٣) أورد الفيتري أن الذي بنى قلعة تبنين هيو سانت أومر –حاكم طبريا–بين مدينته وصور، وذلك من أجل التضييق على أهل صور، ومباغتتهم من نقطة قريبة، في الوقت نفسه يتجنب هجماتهم، وتقع هذه القلعة في منتصف الطريق بين لبنان والبحر، وهي غنية جداً بالأشجار والكروم والأراضي الزراعية المحروثة. الفيتري، تاريخ بيت المقدس(ص٥٢).

(٤) ابن جبير، الرحلة(ص٢٤٧).

(٥) براور، عالم الصليبيين(ص٥٣).

عاش بعض المسلمون في غرب سوريا حالة من الترفيه، وبنوا الضياع والعمائر المنتظمة، قرب حصن تبنين، وهم تحت حكم الإفرنج، يقول ابن جبير أنهم وقعوا في الفتنة، وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلة، عند أول قطفها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم[1] كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد اشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل الرساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين[2].

اتصف إبرنس الكرك " أرناط" بالغدر والخبث، والسلوك المُشين، ومنها " نقضه للمواثيق المحكمة، والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمة وهم على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز... وهو يمكس القادم والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق، وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها "[3].

قطع ريتشارد– ملك إنجلترا– طريق قافلة تجارية المسلمين ونهبها، واستعان بالبدو، وتجسسوا لصالحه، وجندهم بالعطاءات والنقود، فأخبروه أن قافلة تجارية قادمة من مصر في طريقها للشام، وهي أغنى قافلة تمر منذ سبع سنوات، وهي تسير مطمئنة، وأرسل صلاح الدين معها ألف دارع لحراستها، ودل البدو ريتشارد عن مواطن القوة والضعف في القافلة، فأعد كمين للقافلة لها في منطقة الصهريج الأحمر تقع بين يافا والقدس، فجدوا أن أهل القافلة قد استراحوا، ونصبوا خيامهم، فانقض عليهم جيش ريتشارد، ويقال أنه قتل ألف ومئتان مسلم، ولم تتجاوز

---

(١) رساتيق جمع: الرستاق كلمة بمعنى "الناحية" التي هي طرف الإقليم. الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير(ج١/٢٢٦).

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص١١٥).

(٣) أبو شامة، الروضتين(ج٣/ص٢٧٤).

خسارة الصليبيين ستين رجلاً، وساق ريتشارد القافلة إلى يافا ولم يسبق له مثل هذه الغنيمة من قبل[1].

يتبين مما سبق أن الصليبيين قوضوا حرية القوافل التجارية، ووضعوا العوائق الكبيرة أمام حركة تنقل البضائع، منها الحصون التي بنوها على الطرق الاستراتيجية لربط مدن الشام، في البر والبحر، وضايقوا على حركة الصادرات والواردات للبضائع، كي يفرضوا الضرائب ويستولوا على القوافل والبضائع، بالإضافة إلى قتلهم التجار والبائعين، وهذا بالتأكيد يؤثر سلبياً على أوضاع الأسواق، فقد خربوها بكل معنى الكلمة، ندرت البضائع، وشحت الأقوات، وتفشى الغلاء وارتفاع الأسعار.

ب-تدمير الصليبيين للتجارة والأسواق في بلاد الشام

اشتهرت مدن الشام بالتجارة، وذلك قبيل الغزو الافرنجي عليها، وكانت الأسواق تعج فيها بالبضائع والبائعين، فمنها مدينة صور التي توافد إليها الناس جماعات كل يوم من البر والبحر، واكتظت غاية الاكتظاظ بشتى أنواع السلع، التي يستوردها التجار عبر هذين الطريقين، ولكن بعد الهجمات الصليبية المتكررة والغارات المستمرة علي الأهالي جعلتهم يشعروا بالضيق والخوف، تفشى الفقر ونقصت البضائع، وقلت الأطعمة، وعجز المواطنون وحتى الأغراب الدخول إليها أو مغادرتها، وخربت الأسواق[2]، وكانت مدينة حمص عامرة بالناس والمسافرون يقصدونها بالأمتعة والبضائع من كل مكان، وأسواقها قائمة ومسرات أهلها دائمة[3].

من البضائع التي كانت معروفة في أسواق الشام أيام الغزو الصليبي، منها في فلسطين الزيت والقطّين، والزبيب، والخرنوب، والملاحم، والصابون والفوط، ومن بيت المقدس الجبن والقطن، وزبيب العينونيّ، والدوريّ غاية والتفّاح، وقضم قريش الّذي لا نظير له، والمرايا، وقدور القناديل، والإبر، وفي بيسان التمور، ومن عمّان الحبوب والخرفان والعسل، وفي صور السكّر والخرز، والزجاج المخروط والمعمولات، ومن مآب قلوب اللوز، ومن بيسان الرزّ، ومن دمشق المعصور والبلعيسيّ وديباج ودهن بنفسج دون والصفريّات، والكاغذ والجوز، والقطّين والزبيب،

---

(١) حبشي، ذيل وليم الصوري(ص٢٣٤).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/٣٢).

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق(ص٣٧٤).

ومن حلب القطن، والثياب والأشنان والمغرة، ومن بعلبكّ، الملابن، ولا نظير لقطّين وزيت الإنفاق[1].

كانت مدينة أنطاكية تشتهر بصناعة المنسوجات البديعة الألوان، والأقمشة الحريرية الغالية الثمن، وكانت لمنسوجات أنطاكية شهرة واسعة ومتميزة في الأسواق الأوروبية، فقد كانت تستخدم في تزيين الكنائس، وذلك لأنها مطرزة بالخيوط الذهبية والفضية[2].

بالإضافة إلى صناعة السكر، ازدهرت صناعة الزجاج في المناطق الصليبية، وحازت المدن الساحلية شهرة فائقة في مجال هذه الصناعة، فقد تألقت مدن صور وأنطاكية وطرابلس وحبرون وعكا ودمشق في صناعة الزجاج والمصنوعات الزجاجية[3].

كانت أسواق مدينة معرة النعمان قبيل الإحتلال الإفرنجي، وافرة العمران، وكانت محاصيل الفلاحين فيها وفيرة مثل: القمح والخضار، وتتميز بشجر وفير، منه التين والزينون والفستق واللوز والعنب، ومياه المدينة من مياه المطر والآبار[4] وقال عن مدينة حلب:" تحصل بها الضرائب لكل من يمر بها من بلاد الشام والروم، وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد، ولها أربعة أبواب والوزن في سوقها بالرطل الظاهري وهو أربعمائة وثمانون درهماً"[5]، ووصف كذلك مدينة بيت المقدس وقال: " وفي المدينة صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة[6]، والرملة إحدى مدن الشام وهي مدينة عامرة بها أسواق وتجارات[7].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم(ص١٨٠).

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق(ص٣١٣).

(٣) البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية(ص٤٤).

(٤) خسرو، سفرنامة(ص٥٦).

(٥) المصدر نفسه(ص٥٥).

(٦) المصدر نفسه(ص٥٦).

(٧) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار(ص٢٥).

يروي الرحالة عن أوضاع السوق قبيل وصول الصليبيون، أنه " في صيدا[1] سوق جميل ونظيف، وقد ظننت حين رأيته أنه زين خصيصاً لمقدم السلطان، أو لأن بشرى سعيدة أذيعت، فلما سألت قيل لي هكذا عادة هذه المدينة دائماً"[2]، وكتب ابن جبير عن أحوال التجارة في مدينة عكا بعدما استولى عليها الصليبيون:" بأنها قاعدة مدن الإفرنج بالشام، بها ميناء واسع وسفن كثيرة، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام، تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجساً وعذرة" [3].

تنوعت أسواق مدينة الرملة حسب تصنيف السلع المباعة فيها، فهي متصلة من أبوابها كلاً منهن الى وسطها، ومنها باب القدس، وعسقلان، ويافا، ويازور، وباب نابلس، فمن باب يافا مثلاً يدخل في سوق القماحين، يباع فيه جميع أنواع السلع، وهو متصل بسوق البصالين حتى يتصل بمسجد جامعها، وهي أسواق كانت حسنة، وفيها أيضاً سوق القطانين والمشاطين والخشابين والجزارين، والسقائين، والأكافين، والصياقلة، والسراجين[4]، يقول الحنبلي: " وأما في عصرنا فلم يبق أثر لتلك الأوصاف التي بالرملة وقد زالت أسوارها وأسواقها القديمة لاستيلاء الافرنج عليها نحو مائة سنة ولم يبق من المدينة ثلثها"[5].

تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين في عسقلان، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس، وضايقوا البلد إلى أن قرروا عليها عشرين ألف دينار تدفع لهم، وشرعوا في جبايتها من أهل البلد فاتفق حدوث الخلف بين المقدمين فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئاً وحكي أن الذين قتلوا في هذه الوقعة من أهل عسقلان من شهودها

---

(١) تقع على سواحل لبنان، احتلها بلدوين الثالث سنة(٥٠٤هـ/١١١٠م)، وطلب أهلها أن يُمهلهم مدةً عّينوها، فوافق بعد أن فرض عليهم ستة آلاف دينار، وظلت في يد الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصرُ صلاح الدين بالأمان، بعد قتال شديد وحصار مشدد سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م). ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ص٧٨).

(٢) ناصر خسرو، سفر نامه(ص٤٩).

(٣) رحلة ابن جبير(١١٦ص).

(٤) الحميري، الروض المعطار(ص٢٦٨).

(٥) الحنبلي، الأنس الجليل(ج٦٨/٢).

وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبعمائة نفس[١]، ولما وصلوا أرسوف وقع بينهم وبين المسلمين معركة، ووصلوا إلى سوق المسلمين، قتلوا من السوقية وغيرهم خلقاً كثيراً[٢].

فرض الصليبيون ضريبة الأسواق market taxes التي كانت تدفع بالعملة النقدية عند بوابات مدينة القدس، النوع الأول: الدينار الصليبي الفضي، والثاني الدرهم الإسلامي دون التميز بينهما، وكانت تفرض على كافة المحلات والسلع التي تدخل الأسواق، ومقابل استخدام الموازين والمقاييس[٣].

قامت في نابلس تجارة واسعة ولا سيما تجارة الكتان والخمر المنتوجين في السامرة، وقرب عكا كان يزرع القطن وأشجار الزيتون والأعناب، وكثرت مزارع قصب السكر، وكان الصليبيون في الضياع والمدن يجبون مختلف الرسوم الجمركية من الأسواق، وفرضوا في الموانئ ضريبة المرساة، مقدارها مارك فضي عن كل سفينة قادمة، وكذلك ضريبة الحجاج، وكان ملوكهم يحصلون رسوم المرور لقوافل التجار العرب، الذاهبة من القاهرة إلى بغداد، ومن سوريا إلى مصر، ومكة والمدينة، وحصلوا جزية من الرحالة البدو فيما وراء نهر الأردن مقابل الانتفاع بالمراعي التي انتزعوها منهم، ولم يتوقف الفرنج عن قطع الطرق والنهب[٤].

بعدما انقطع وصول السفن الأوروبية المحملة بالسلع إلى بلاد الشام، تفاقم سوء الأوضاع الاقتصادية في فلسطين بسبب الغلاء، وعاني الأهالي من ارتفاع الأسعار في الأسواق الصليبية، ومنها أسواق عكا وخصوصاً في فصل الشتاء[٥]، وهذا ما يدل على أن الصليبيون اقتصروا استيراد البضائع إلى فلسطين على أوروبا.

تكررت اعتداءات الصليبيين على قوارب التجارة المسيرة عبر المتوسط، وظهر ذلك عندما خرجت جماعة من التجار والمسافرين من مصر وأقلعوا في البحر، فأخذهم الفرنج، ونهبوا منهم ما يزيد على مائة ألف دينار، وعاقبوهم حتى افتدوا أنفسهم بما تبقى لهم من الذخائر في دمشق

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٣) ؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/١٥٠)؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان(ج١٩/٤٩٨).

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/٧٩).

(٣) امطير، الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية(ص١٢٩).

(٤) زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص١٤١).

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب(ج٣/١٤٠)؛ البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية(ص١٤٠).

وغيرها[١]، ولقد تعمد الصليبيون ضرب طرق التجارة البحرية، وأفسدوا حركتها في السواحل، ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار[٢].

وقد تحالف الفرنج والبنادقة في حصار بحري مطول لمدينتي عرقة وطرسوس، وبثوا الرعب في قلوب المواطنين، الأمر الذي جعلهم يخزنون قدر كبير من المؤن والبضائع، وقد تركوها بسبب خوفهم، ويقول ريموند أجيل: " وهو خوف جعلهم يعتقدون أننا كنا نتمتع بقوة كبيرة ونعتزم تدمير بلادهم"[٣].

وانقض الفرنج في ميناء اللاذقية على مركبان مملوآن بالأمتعة والتجار، كانا قادمين من مصر، فغدروا ونكثوا بفعلتهم الهدنة المتفقين عليها مع نور الدين، لذا أرسل إليهم إعادة ما أخذوه من أموال التجار، رفضوا واحتجوا بأمور منها أن المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء، وكان الشرط بينهم أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه، فلم يقبل حجتهم، فأغار على أنطاكية، وطرابلس، وحاصر بنفسه حصن عرقة وحصون أخرى، فأخذهم عنوة وغنم المسلمون غنائم كثيرة، ودمر طرابلس وأنطاكية، فراسله الفرنج، وأعادوا ما أخذوه من المركبين وهم صاغرون، وجددوا الهدنة معهم، فأجابهم إلى ذلك، وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم[٤].

كان لتحكم الصليبيين على موانئ مدن الشام تبعيات خطيرة على أسوق العمل والتجارة، كذلك الصيد، وما شاهده ابن جبير في رحلته، حينما أورد أن مدينة صور يحيط بها سور من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص، فالسفن تدخل تحت السور، وترسو فيها وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة، تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم، ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار، وإنما ترسى خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها[٥].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٦).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(٩/٤٦٨) .

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٨٦).

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٣٦٩)؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية(ص١٥٥).

(٥) ابن جبير، الرحلة(ص٢٧٨).

تفشى الغلاء الشديد في بلاد الشام، شمل جميع البضائع والسلع، وبلغ رطل الخبز درهمين ورطل اللحمة خمسة عشر درهماً، والجبن درهماً ونصفاً، والثوم أوقية بدرهم، والعنب رطلاً بدرهمين، ومن أسباب ذلك ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش قيل أنه كان في المائة نحو خمسة عشر درهماً فضة والباقي نحاس، وكثرت العملة المزيفة في أيدي الناس، وتسارع الناس في شراء أي شيء كان، وافتقر لسببها خلق كثير وأنتفع آخرون[١].

تزامن مع وصول الصليبيون إلى الشام، وارتكابهم الجرائم بحق السكان، رحيل عالم لا يحصى عددهم من البلاد الشامية فراراً من الفرنج والغلاء، وفيها عم الغلاء أكثر البلاد[٢]، وخرجت قافلة لأهل حلب إلى دمشق فيها تجار وغيرهم، بسبب ارتفاع الأسعار، رحلوا ببضائعهم وأموالهم، فلما وصلوا إلى القبة[٣] نزل الفرنج إليهم، وأخذوا منهم الضرائب، واعتقلوا الرجال والنساء وقادوهم إلى معرة النعمان، وحبسوهم ليقروا عليهم مالاً، فراسلهم أبو المعالي بن الملحي[٤] وحث قيادتهم على تثبيت الهدنة، وأرسل إلى حاكم أنطاكية مالاً وهدية، ولكن الفرنج زاد طمعهم في حلب، وغدروا ونقضوا الهدنة، وأغاروا على الأهالي، وانعدمت المعونات وقلت والأقوات، وصار ومكوك الحنطة بدينار[٥].

وتسلط الفرنج على تجار المسلمين، وتكرر استحواذهم على البضائع، ومنها بقيادة تنكريد أثناء حصاره لأنطاكية، فعندما جاء الأرمن والسريان من الجبال آمنين، يحملون المؤن لمساعدة المسلمين داخل أنطاكية، قطع عليهم تنكريد الطرق واعتقل التجار، واستولى على كل دوابهم، التي تحمل الحبوب، والعنب، والشعير، والزيت، وما شابه من سلع، وتمكن من سد كل

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان(ج١/٣٧٦).

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٢٥).

(٣) قبة جامع دمشق المعروفة بقبة النسر، ليس في المدينة شيء أعلى ولا أبهى منظرا منها، ولها ثلاث منائر إحداها، وهي الكبرى، يقال: إن عيسى، عليه السلام، ينزل من السماء عليها. ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٤٦٧).

(٤) ابن الملحي: سوري الأصل ومن دمشق بالتحديد، عينه السلاجقة في تولي حكم دمشق بعد يارقطاش . ينظر: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٢/٢٣٠).

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٦٨)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ص٧٨).

المنافذ من وإلى أنطاكية[1]، وعادوا إلى عرقة وعدم القوت فيها فملكوها بالأمان[2]، نزل جموع الفرنج على حلب وشرعوا في قتال من بها والمضايقة وتمادى الأمر في ذلك إلى أن قلت الأقوات فيها وأشرف أهلها على الهلاك[3].

يوري الحاج المقدسي: " أعرف كل تجار البلاد، وفتحت خاناً في بيت المقدس، وفي عكا، وفي يافا، وفي صور، وفي حلب، تأتي النار إلى هنا فأفر إلى هناك، كر وفر طوال حياتي، وفي كل مدينة جديدة، وكلما أردت أن افتح خاناً، تذكرت الخان في بيت المقدس، ورثته عن أبى، وأبي ورثه عن أبيه ، وجدي ورثه أيضاً، أحرقه الروم وكدت أن أحترق معه، الله يصليهم ناراً لا تنطفئ في جهنم، كل تجار البلاد أعرفهم تجار الزيت والقطين والزبيب والخرنوب، والملاحم والصابون، .. وتجار القطن والثياب والأشنان والمغرة في حلب، كلهم ناموا على فرش وتغطوا ببطانيات من عندي، كلهم يعرفونني، ودوابهم أكلت من تبن اصطبلاتي[4].

---

(١) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص١٧٠).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/٢٦١).

(٣) المصدر السابق(ج١/٣٣٧).

(٤)الغرناطي، الرحلة(ص٢٠٤– ٢٠٥).

المبحث الثالث: استيلاء الصليبيين على أراضي المسلمين في بلاد الشام

طغت المصالح الاقتصادية وتحقيق المكاسب المالية على تفكير الفرنج، وأكبر دليل ما حدث بين قياداتهم من في التنافس، وحب التملك والسيطرة على الأملاك وأراضي الفلاحين، إلى أن ظهر بينهم العداوة والبغضاء، وذلك منذ بداية استيلائهم على أنطاكية وبيت المقدس[١].

كان كبار القادة والفرسان يكرسون جهودهم، لاستباق بعضهم في الاستيلاء على القرى والمدن والقلاع السورية، وظهرت هيمنة الأقوياء على الضعفاء منهم، ولم تكن المخاصمات تنشب بسبب الأراضي الواسعة فقط، بل أيضاً بسبب أطماعهم في الحصول على ناحية معينة من مدينة معينة، أو الاستفادة من الأبراج أو الجسور أو البوابات[٢].

اعتمد الصليبيون في تأسيس مستوطناتهم على العنصر البشري النصراني، حيث جلبوا الأوروبيين ليمكثوا في أراضي المسلمين، فقد قام رجال الدين بتوطين مجموعة الفرنجة في مستوطنة البيرة، وزودوهم بقطع من الأراضي، ليقوموا بزراعتها مقابل دفع ضريبة العشر، واقتسام المحصول معهم[٣].

أنشأ الفرنج بنايات القرى على أراضي فلسطين، ففي عام (٥٣٠هـ/١١٣٦م)، قام الملك الصليبي فولك بتحصين بيت جبرين الواقعة على الطريق بين عسقلان وبيت المقدس، ومنحها لفرسان القديس جون- الاسبارتية -وجلب اليها عائلات النصارى[٤].

كان كل مستوطن صليبي يستلم قطعة أرض يلتزم بدفع ايجار مالي مقابلها، ويقدم عُشر إنتاج محصولاته، وعُشر إنتاج الفواكه، ماعدا الزيتون، ويلتزم بدفع نسبة مئوية من الغنائم، التي يحصل عليها النصراني نتيجة الغارات على أراضي المسلمين[٥].

أشرف رئيس كنيسة القيامة على زراعة أشجار الكرمة، في مساحات واسعة من الأراضي التي تعود ملكيتها لكنيسته، وأن كروم العنب التي زرعت في مستوطنة راماتيس

---

(1) Chalandon, Hist.de la premiere Croisade, (p.227).

(٢) زبراووف، الصليبيون في الشرق(ص١١٠).

(٣) امطير، الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية(ص٧٤).

(٤) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٠٧).

(٥) المرجع السابق(ص١٠٨).

الجديدة والتي قام رجال الدين اللاتين بمنحها إلى بعض المستوطنين الأوروبيين من أجل تشجيعهم على الاستقرار[(١)].

أصدر بلدوين قراراته، منذ أن عين أول ملك على بيت المقدس، وفيها: " كذلك منحت بمحض إرادتي الأسقف وحلفاءه ملكية بيت لحم، ويكون لهم التصرف فيها، وهي التي كنت قد أقطعتها للكنيسة بخلاص روحي وروح أخي الدوق جودفري وجميع أرواح أقاربي.. وكذلك أقطعه وأمنحه قرية في اقليم نابلس اسمها" سيلون" ، وثالثة قرب بيت لحم اسمها بيت بيزان، وكذلك قريتين في أرض عسقلان هما "زوفير، وكيكفا" بكل ملحقاتهما"[(٢)].

لم يكتف الفرنج بما استولوا عليه من أراض الفلاحين في الشام، ولكنهم سلموا عدة ثغور لبيزا والبندقية والجنويين منها: يافا، وصور، وعكا، وبيروت، وعسقلان، إلى البندقية، نظير ما قدموه لهم من دعم عسكري بحري، والذي ادعى منهم أنه صاحب ملكية أرض الشام هم الأشراف، يتمتعون بصلاحية اختيار الملك أيضاً، وأنزلوا ملاكها الحقيقيين السابقين" سواء كانوا نصارى أو مسلمين" منزلة الرقيق، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية قاسية طبقت في ذلك الوقت في أوروبا وقتئذ في أوربا[(٣)].

في عام (٥١٩هـ/١١٢٣م) وقعت معاهدة بين حكام البندقية، وقيادة الصليبيين والتي وضعت البنود الأساسية للاستيطان، فقد منح الصليبيون البنادقة بمقتضى هذه المعاهدة حياً تجارياً بكامل محتوياته، مرافقه في مدينة صور، وفي كل مدينة يتم استيلاء الصليبيين عليها بمشاركة البنادقة[(٤)].

يروي الفارس مدون الأخبار والقريب من بوهيمند وأعلنوا:" هذه المدينة لن تكون من نصيب واحد بمفرده، بل سنملكها جميعاً بنسبة متساوية، وبما أننا بذلنا بالقدر نفسه في هذه القضية جهودنا القتالية، فينبغي أن نتحصل على تشريفات واحدة"[(٥)].

---

(١) البيشاوي، الممتلكات الكنسية في بيت المقدس(ص٣٤٣).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٨٥-٢٨٦).

(٣) ديورَانت ، قصة الحضارة(ج١٥/٢٧).

(4) William of Tyre, Op, cit,Vol,I, (p.552-556).

(٥) زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص٩١).

يبدو أنه عندما صارت الأراضي والممتلكات متاحة في متناول الغزاة الفرنجة، في بلاد الشام، احتار الجنود هل يستولى أحدهم على البيوت أم الأراضي أم كلاهما؟، فيجيب على هذا القرار شاهد العيان بقوله:" وانطلقنا إلى بيت المقدس، بعد أن استأذنا الأسقف وحراسه، وفي اندفاعنا الجنوني بسبب الطمع في الاستيلاء على القلاع والمنازل ذات الحدائق، وأول من يصل ينصب علماً فيتملك، وهكذا دفع الطموح الكثيرين أن يخرجوا من فراشهم في منتصف الليل دون أن يصبحهم رفاقهم ويستولوا على كل القلاع الجبلية والمنازل التي تحيطها الحدائق في سهول الأردن[(١)].

نزحت الكثير من العائلات العربية في بلاد الشام من موطنهم إلى أماكن أكثر أمناً، للمحافظة على عائلاتهم، وبعضهم من جازف وآثر البقاء تحت الحكم الصليبي، صمموا على التمسك بأرضهم والبقاء فيها إلى أن يحين موعد التحرير[(٢)]، فبعدما استولوا على عكا، قتلوا كثيرين من المسلمين، ولكنهم أبقوا على حياة البعض، واستولوا على جميع ممتلكاتهم[(٣)].

وقع المسلمون والفرنج اتفاق تقاسم أراضي الفلاحين في الشام، ورغم ذلك غدر حكام النصارى بكل ما يتفق عليه، وقالوا: " ما نصالح إلا على أن تكون الأماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين" وترددت الرسل بينهم لتثبيت ما اتفق عليه ولكن دون جدوى [(٤)].

أرسى في ميناء يافا عدد من النرويجيين، بأسطولهم المكون من خمس وخمسين سفينة، واسم قائدهم سيجورد، وهو من أقارب ملك تلك البلاد، واتفقوا مع بلدوين أن يدعموه في حصار مدينة صيدا، فحاصرها بلدوين براً والنرويجيون بحراً، وتوسل حكام البلد لبلدوين أن يسمح لهم بالخروج سالمين، وبإمكانه أن يبقي الفلاحين للاستفادة منهم في زراعة الأرض[(٥)]، يتبين من هذا الموقف قدر تمسك الفلاحين العرب بأرضهم.

---

(١) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص٢٣٥).

(٢) الفراني، المقاومة الشعبية(ص٢٦٤).

(٣) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٩٣).

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٩٨).

(٥) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٢١٥-٢١٦).

الفصل الثالث

انتهاكات الصليبيين للحقوق العلمية والدينية لأهالي الشام

الفصل الثالث: انتهاكات الصليبيين للحقوق العلمية والدينية لأهالي الشام

المبحث الأول: موقف الصليبيين من علماء المسلمين في بلاد الشام

للعلماء مكانة عظيمة في المجتمع الاسلامي، وكرمهم المولى عز وجل في الآية الكريمة: {هَل يَسْتَوِي الَّذين يعلمُونَ وَالَّذين لَا يعلمُونَ}[1]، كما حث سبحانه وتعالى الناس على ضرورة الرجوع للفقهاء، والأخذ منهم في حل المسائل الحياتية، فيما يخص الدين، بقوله تعالى: { فاسألوا أهل الذّكر إِن كُنْتُم لَا تعلمُـونَ}[2]، عزز كذلك دورهم الضروري في أحلك الظروف، والأمور العصيبة التي تواجه الأمة، فقد وجب الرجوع للعلماء لأنهم دائماً الأقرب لطريق الهداية والرشاد كما في قوله تعالى: { وَيرى الَّذين أُوتُوا الْعلم الَّذِي أنزل إِلَيْك من رَبك هُوَ الْحق وَيهْدِي إِلَى صِرَاط الْعَزِيز الحميد}[3].

اهتم المسلمون بتأسيس المدارس في الشام، وكان إذا رأى آلب أرسلان في بلد عالماً متميزاً بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً، وقرر فيها للفقهاء داراً للكتب، وكانت المدارس بمثابة دور مرتبة، يأتي إليها طلاب العلم، وتدر عليهم العلوم والأرزاق، وكان من مؤسسي المدارس في بلاد الشام نور الدين محمود بن زنكي[4].

وشرع نور الدين بتجديد المدارس في حلب، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، واستدعى برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي الخفي، وولاه تدريسها، فغير الأذان بحلب، ومنع المؤذنين من قولهم: حي على خير العمل وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء، وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع، واستمر الأمر من ذلك اليوم،

---

(١) سورة الزمر: [٩].

(٢) سورة النحل: [٤٣].

(٣) سورة سبأ: [٦].

(٤) الذهبي، العبر في خبر من غبر(ج٢/٣٥٠)؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(ج٥/٢٧٤)؛ كرد، خطط الشام(ج٦/٦٦-٦٧).

وجدد المدرسة العصرونية على مذهب الشافعي، وولاها شرف الدين بن أبي عصرون، ومدرسة النفري، وولاها القطب النيسابوري[1].

وقد ذكر الرحالة ابن جبير عن ما شاهده في دمشق، وأن بهذه المدينة نحو عشرين مدرسة[2]، وأول مدرسة شافعية بنيت في حلب أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق– حاكم حلب– وعرفت بإسم المدرسة الزجاجية، وأول مدرسة أسست في القدس أنشأها صلاح الدين يوسف ابن أيوب ونُسبت إلى جماعته[3].

لقد كثف علماء المسلمين في بلاد الشام جهودهم الدعوية والجهادية، لتوعية الناس اتجاه مخاطر الاحتلال الافرنجي للبلاد، بالإضافة إلى مضاعفة دورهم في استنهاض همم الشباب من على منابر المساجد، وحثهم على الجهاد ضد هذا الغزو، ولهذه الأسباب كانوا دائماً في ميادين المواجهة، مما جعل الصليبيون يصبون جم حقدهم على هؤلاء الدعاة والعلماء في مدن الشام، ومنها في بيت المقدس قتلوا جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم، وقرائهم وعبّادهم وزهّادهم، ممّن فارق أهله ووطنه، وسكن بذلك الموضع الشّريف[4].

ويظهر أنه لم يعبه الصليبيون بمكانة وقدر علماء المسلمين في بلاد الشام، بل تجاهلوهم بالمطلق، وما يؤكد هذا القول هو عدم ذكر مؤرخي النصارى لأي موقف لعلماء المسلمين في الشام، يخص تلك الفترة لا بالخير ولا بالشر، مما يدلل على شمول اعتداءاتهم التي طالت كافة شرائح المجتمع في البلاد، دون التفريق بين أحد منهم، فالجميع كان واقع تحت طائلة القمع الافرنجي، بمن فيهم الأئمة والعلماء، وما وصلنا من أخبار عن العلماء عن تلك الفترة، إنما كان بفضل المصادر العربية الإسلامية دون غيرها، ومن هؤلاء العلماء: الفقيه الإمام يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، كان فقيها عالماً صالحاً ، صاحب تحرّق على الحنابلة

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب(٣٣١-٣٣٢).

(٢) رحلة ابن جبير(ج١/٢٣٠).

(٣) الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب(ج٢/٦٧); كرد، خطط الشام(ج٦/٦٧).

(٤) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(ج٢٨/٢٥٧)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء(ج٣/٢٣).

حيث استشهد في مقاومته للفرنج، وقال: بعنا واشترى، وكان بصحبته الشيخ عبد الرحمن الحلحولي الذي زار بيت المقدس(١).

وكان الفقيه الفندلاوي والشيخ عبد الرحمن الحلحولي من جملة جنود جيش دمشق المسلم، عندما خرجوا لقتال الفرنج، وأنهما كانا من خيار المسلمين، وهذا الفقيه قدم إلى الشام حاجاً وسكن بانياس مدة وكان خطيباً بها، ثم انتقل إلى دمشق وسكن بها، وحدث بالموطأ وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، وكان صالحا ومتعصبا للسّنّة(٢)، فلما شاركا في قتال الفرنج تقدما وقاتلا حتى قتلا في نفس المكان(٣)، وكان الفندلاوي شيخاً كبيراً، زاهداً عابداً، خرج قبل مقتله ماشياً إلى معين الدين، وسلم عليه وقال له معين: يا شيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيله ولا نستقيله، وتقدم فقاتل، وبعدما قُتل قويت شوكة الفرنج وتقدموا، وضعف حال أهل البلد عن ردهم عنه(٤).

عندما نفذ الفرنج جرائمهم البشعة في حرم المسجد الأقصى، أثناء احتلالهم لمدينة بيت المقدس، قتلوا العلماء بسيوفهم بينما هم في صلاتهم(٥)، وكان في صفوف المقتولين المقرئ الصوفي، أبا بكر محمد بن أحمد بن علي الطوسي، وأيضاً الشيخ أبي الفتح الزنجاني(٦)، وسعد بن أحمد بن محمد أبو القاسم النسوي القاضي، الذي سكن دمشق مدة وحدث بها، وكان من رواة الحديث(٧)، والعالم المعروف بالمقدسي كامل بن ديسم بن مجاهد بن محمود، أبو الحسن النصري الفقيه العسقلاني، وكان من رواة الحديث الشريف(٨)، وكما قتل الفرنج المحدث

---

(١) أبو شامة، الروضتين(ج١/١٨٦)؛ ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٤٦٤)؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس(ج٢/٨)؛ ابن العماد، شذرات الذهب(ج٦/٢٢٢).

(٢) الحموي، معجم البلدان(ج٤/٢٧٨).

(٣) ابن منقذ، الاعتبار(ص٩٥).

(٤) أبو شامة، الروضتين(ج١/١٩٠)؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان(ج٣/٢١٥)؛ الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية(ج١٧/١٤٦)؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر(ج٦/٥٥٠).

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق(ج٥٠/١٢).

(٦) المصدر السابق(ج٥١/٨٩)؛ المصدر نفسه(ج٧٤/٢١٥).

(٧) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق(ج٩/٢٣١)؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق(ج٢٠/٢٠٣-٢٠٤)؛ الشافعي، تاريخ مدينة دمشق(ج٢٠/٢٠٤).

(٨) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق(ج٢١/١٣٢).

الصوفي يوسف بن إبراهيم أبو الفتح الزنجاني[1]. وكثرت جرائم الفرنج في بيت المقدس، حتى أنهم هدموا المشاهد وقبر الخليل- عليه السلام- وقتلوا عامة من كان في البلد، وكان من ضمنهم العباد والصلحاء والعلماء والقراء، وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر، قتلهم الفرنج بالسيوف وأفنوهم عن آخرهم، ولم ينجى منهم إلا اليسير، وأحرقوا ما كان في بيت المقدس من المصاحف والكتب، ويقال إنه قتل في المسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً، وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوا منهم[2].

وكما انتهك الفرنج حقوق العلماء في هجومهم على حماة وجماعيل[3]، حيث أن فرسانهم وراجليهم اقتحموا قرية بالقرب من حماة عرفت بإسم بالرقيطا أو الرقيطاء، وعندئذ امتلأت أيديهم من الغنائم، واعتقلوا رجالاً كثر من أهل حماة، فيهم الفقيه شهاب الدين بن البلاعي، الذي عرف بالشجاعة والقيادة، حيث خلع العمامة وانضم لجيش المجاهدين، ولبس زي الجنود، لذلك لاحقه الفرنج وصار مطارداً لهم في جبال بعلبك، ورجع بعد معاناة شديدة إلى أهله سالماً[4].

وأما في جماعيل، فقد هرب الشيخ الزاهد، أحمد بن محمد بن قدامة، في عمر سبع وستون سنة بدينه من الفرنج، وهو والد الشيخ أبي عمر، وكان خطيب البلد، ونزل بمسجد أبي صالح، ومكث هو وولداه بسفح قاسيون[5]، وكانوا يعرفون بالصالحية لنزولهم بمسجد أبي صالح، فسميت الصالحية بهم[6]، ورجع الشيخ أحمد بن محمد إلى جماعيل وأقام بها، واشتغل بالعلم وانتفع الناس به وبإقرائهم القرآن والعلم، وكان يخطب أيام الجمعات ويجتمع الناس حوله، كي يقرأ لهم الأحاديث النبوية، وكان مع ذلك لم يرض بمقامه تحت أيدي الكفار، لأن ابن باوان

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق(ج٧٤/٢١٥).

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٢٣).

(٣) قرية في جبل نابلس، من أرض فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يوم. ابن شمائل، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع(ج١/٣٤٥).

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب(ج٣/١٦٣)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/١٠٦)؛ ابن الوردي، تاريخ(ج٢/١٢٠)؛ العمري، مسالك الأبصار (ج٢٧/٢٠٥)؛ الحموي، التاريخ المنصوري(ص٤٤).

(٥) قاسيون: جبل مشرف على مدينة دمشق وفيه عدة مغاور وفيها آثار الأنبياء وكهوف، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح، وهو جبل معظم مقدس يروى فيه آثار وللصالحين فيه أخبار. ياقوت، معجم البلدان(ج٤/٢٩٥).

(٦) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(ج٦/٣٠٤).

الفرنجي عندما وصله خبر هذا العالم صرح بقتله[1]، وكذلك محمد بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي، عاش بجماعيل وهاجر بِهِ والده وبأخيه الشيخ الموفق وأهلهم إِلَى دمشق لاستيلاء الفرنج عَلَى الأَرْض المقدسة، فنزلوا بمسجد أَبِي صالح[2].

وهاجر كلاً من: ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الدمشقي، الفقيه الزاهد الورع العابد، والشيخ عماد الدين، أبو اسحق، إلى دمشق مع جماعتهم بسبب استيلاء الفرنج على أرضهم، وقرأ الشيخ عماد القرآن وسمع من أبي المكارم بن هلال، وعبد الرحمن بن علي الخرقي، وغيرهما، وحفظ غريب القرآن للعزيزي، ومختصر الخرقي في الفقه[3].

يظهر أن الفرنج قد نهجوا سياسة مطاردة العلماء، وسجنهم في بلاد الشام، لدرجة أنهم كانوا يهربون منهم إلى مغارات الجبال، وكان شأن الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري[4] وأخوه الظهير، وأصحابهم، قد ضلوا عن الطريق فوجدوا أنفسهم بالقرب من الصليبيين فدخلوا في مغارة، فعلم الفرنج بهم فساروا إليهم واعتقلوهم، ووضعوهم في الأسر، وما أفرج عن الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين، بصفقة تبادل الأسرى بين المسلمين والفرنج، أطلق فيها المسلمون سراح أسرى صليبيين، بالإضافة إلى دفع ستين أو سبعين ألف دينار للفرنج[5]، ودفع مقابلها ابن بارزان للمسلمين لتحرير نفسه، مائة وخمسين ألف دينار، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وأما ابن القومصية فإنه افتكته أمه بخمسة وخمسين ألف دينار صورية[6]، وبرز الدور الجهادي الكبير للفقيه عيسى عندما كان أشد الناس قتالاً في معركة الرملة بين صلاح الدين والفرنج سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م)، وهزم فيها المسلمين[7].

---

(١) الصالحي، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية(ص٦٨).

(٢) الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة(ج٣/١٠٩).

(٣) المصدر نفسه(ج٣/١٩٩).

(٤) من أعيان أمراء عساكر صلاح الدين، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً، جندياً، شجاعاً، كريماً، اتصل بأسد الدين شيركوه فصار إماماً له، فرأى من شجاعته ما جعل له أقطاعاً، وتقدم عند صلاح الدين تقدماً عظيماً. ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج١٠/٧٧).

(٥) الأصفهاني، مختصر سنا البرق الشامي(ص٥٤)؛ المقريزي، السلوك(ج١/١٧٥).

(٦) أبو المعالي، مضمار الحقائق(ص١٨).

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٤٢٨-٤٢٩).

كانت بعض مدن الشام عامرة بالعلماء قبل وأثناء قدوم الصليبيين، مثل: قنسرين وكفر طاب، بقيتا مملوءة بأهل العلم، وكان بهما من يقرأ الأدب ويشتغل به، وهاتان المدينتان أصبحتا بفعل الإحتلال الفرنجي بلدتين مدمرتين، وأيضاً كان في قرى غوطة دمشق علماء لم يشعروا بالاستقرار في بلدهم من تأثير الاحتلال عليهم(١).

ولاحق الصليبيون الشيخ أبو القاسم مكي بن عبد السلام بن الحسين بن القاسم الأنصاري الرميلي(٢) الشافعي، كان من الجوالين بين بلاد الشام والعراق ومصر، وكانت الفتاوى تأتي إليه من تلك المدن لغزارة فقهه وعلمه، ويتصف بالورع، وكان صدوقاً، متحرياً، عالماً، ثبتاً، كاد أن يكون حافظا(٣)، وكتب في تاريخ بيت المقدس وفضائله، وجمع فيه أشياء كثيرة، حيث اعتقله الفرنج من بين صفوف المقاتلين، لما أخذوا بيت المقدس، وبعثوا به إلى البلاد لينادى في فكاكه بألف دينار، لما علموا إنه علماء المسلمين قتلوه رمياً بالحجارة على باب أنطاكية(٤)، وقيل أنه عندما عاد إلى البيت المقدس قتل به شهيداً محارباً مقبلاً غير فار عند استيلاء الفرنج، وكان فقيهاً فاضلاً شافعياً، ومدرساً للفقه في بيت المقدس إلى أن قتل(٥).

وكان لعلماء الشام باع طويل في تقديم التضحية والفداء لأجل خلاص الناس من الاحتلال الصليبي النصراني، حيث شهد أهالي مدينة عكا قتالاً حامي الوطيس مع الصليبيين، شارك فيها علماء المسلمين، وأطلق عليها ابن شداد اسم المصاف على عكا، وحدث فيها كسرة عظيمة للصليبيين(٦)، وكذلك ولما عزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس قصده العلماء، والصالحون، والمتطوعة، من كل فج عميق(٧).

---

(١) كرد، خطط الشام(ج٤/٤٢).

(٢) الرميلي: هذه النسبة الرميلة وهي من الأرض المقدسة في الشام والمشهور به ذلك المكان. الشيباني، اللباب في تهذيب الأنساب(ج٢/٣٨)؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق(ج٥٢/٢٩٥).

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام(ج٣٤/١٣٨).

(٤) العليمي، الأنس الجليل(ج١/٢٩٨-٢٩٩)؛ السمعاني، الأنساب(ج٦/١٧٣)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام(ج٣٤/١٣٩).

(٥) ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب(ج٢/٣٨).

(٦) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية(ج١/١٠٩)،

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٦/٥٨٤).

شاهد عدد الجنود المشاركين في فتح مدينة الرها، الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران، الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا، وهو يقاتل، " ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح[١].

وضح العماد الأصبهاني عن تلك الموقعة واصفاً ذلك: " واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز، ومنعوا من الدخول والخروج، ولج أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج، والإسلام ينادينا باستصراخه"[٢]، وكما سماها ابن واصل: الوقعة العظمى بمرج عكا[٣]، واستشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه ضياء الدين عيسى، وكان الفقيه يضحك وهو جالس والناس يعزونه، وهو ينكر عليهم، وهو يقول: " هذا يوم الهنا لا يوم العزا "، واستشهد في ذلك اليوم الأمير مجلى بن مروان، والحاجب خليل الهكّارى[٤]، ويبدو أن دور العلماء كان أثره المباشر في تحقيق هذا الانتصار.

قتل الفرنج الأديب الفقيه الشاعر حسين بن عبد الله بن رواحة ابن إبراهيم بن عبد الله بن رواحة أبو عليٍ الأنصاري الحموي، في واقعة مرج عكا، سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م)، والذي ولد بحماة ونشأ بها، ورحل إلى دمشق فأقام بها مدةً واشتغل بالفقه، وله من قصيدةٍ مهنئاً بها صلاح الدين الأيوبي بعيد الأضحى، بينما كان السلطان متواجد بمرج فاقوس[٥] تدل دعوته للجهاد ضد الفرنج، بأبيات شعره:

فساق إلى الفرنج الخيل براً ... وأدركهم على بحرٍ بسفن

وقد جلب الجواري بالجواري ... يمدن بكل قدٍ مرجحن[٦].

ومن الشهداء إسماعيل الصوفي، وغلام في الخزانة أمين، وآخرون صودفوا فدفنوا عند التل[١] وأمر صلاح الدين بدفن جثث الشهداء، وكان من جملتهم الشيخ جمال الدين أبو على

---

(١) أبي شامة، الروضتين(ص١٤٠).

(٢) الفتح القسي(ج١/١٦٢).

(٣) مفرج الكروب(ج٢/٢٩٤).

(٤) المصدر السابق(ج٢/٢٩٩).

(٥) مدينة في حوف مصر الشرقي، منها إلى مصر مسيرة يومين، من جهة الشام. ابن شمائل، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع(ج٣/١٠١٥).

(٦) ياقوت، معجم الأدباء(ج١٠/٤١٠).

الحسين بن الشيخ أبى محمد عبد الله بن الحسين بن رواحة، جده عبد الله بن رواحة الأنصاري – رضى الله عنه– وكان رجلاً عالماً فاضلاً شاعراً زاهداً، سافر من حماة بلده إلى الديار المصرية، وسافر في البحر فأسره الفرنج ثم وأطلقوا سراحه[٢].

ولم تسلم المكتبات العلمية في بلاد الشام للخراب والتدمير، من قبل جيش الصليبيين عندما داهموا المدن، واقتحموا البيوت والمساكن، وشدوا في قتال الأهالي، ومن هذه المدن مدينة طرابلس نزل عليها ريموند بن صنجيل، حيث هجمت قواته على الأبراج ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها؛ واستولوا على الأمتعة والذخائر ودفاتر دار العلم وما كان في خزائن علمائها ما لا يحصى عدده من كثرتها[٣].

ولعظم أثر العلماء في محاربة الصليبيين، لذا دأب هؤلاء الغزاة على مصادرة كتبهم ومؤلفاتهم، محاولين طمس العلم وإزالته من حياة الناس، وما حدث مع الرحالة المسلم علي الهروي عندما أخذ ملك الفرنج كتبه، لغرض الوصول إليه، فلم يمكنه ذلك، ويبدو أنه لم يكن راكباً مع شحنة الكتب، فألقى الصليبيين كتبه في البحر، وكان مدون فيها ما شاهده من أماكن عديدة، في بلاد الشام وفلسطين بأسرها، والمغرب وبلاد الروم، وكما تضييع الفرنج لكتبه جعله ينسى ما دونه مما شاهده ولامسه من معاناة، والأشياء النادرة، ومثله لا يدركه أحد من السائحين والعلماء، ولا يصل إليه أكثر الرحالة والمسافرين، إلا رجل طاف الأرض ماشياً وأثبت ما ذكره بقلبه وقلمه[٤].

وحاول الهروي استرجاع القليل مما فقده من كتاباته مجابهاً محاربة الفرنج للعلم والعلماء بقوله: " وأكثر كتبي أخذتها الفرنج وغرقت في البحر، بل قد عملت كتاباً مفرداً، لهذا أذكر فيه ما أقدر عليه، وأصل إليه ووسمته بكتاب: منازل الأرض ذات الطول والعرض"[٥]، وكل ذلك حدث سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) صادر الفرنج كتبه وقت الوقعة بخويلفة[٦] عندما قدم ملكهم إلى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب(ج٢/٣٠٢).

(٢) المصدر السابق(ج٢/٣٠١).

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٣–٤٤).

(٤) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات(ج١/١٤).

(٥) المصدر السابق(ج١/٨٥).

(٦) موضع بنواحي فلسطين. ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٤٠٨).

فلسطين، بعث إلى الهروي رسول، ووعده بإعادة ما أخذه من كتب وأغراض مقابل الاجتماع به، فلم يذهب الهروي إليه[1]، يبدو أن الهروي لم يذهب لمقابلة ملك الفرنج لعلمه بأنه سيؤذيه، أو قد يريد مساومته عن مبدأه في أمر ما ليس في مصلحة المسلمين، ولمعرفته بأبعاد الضرر في مقابلة هذا الملك.

وكما حول الفرنج مدرسة صندحنة[2] إلى كنيسة، والتي كانت دار علم في مدينة القدس، فلما فتح السلطان صلاح الدين القدس أعادها للشافعية سميت بالمدرسة الصلاحية ويقال لها: الناصرية[3] وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد[4]، وجاء في كتاب الروضتين عن حال العلماء بعدما حررت مدينة بيت المقدس إلى التحسين في حرية التعليم بقوله: " وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الأئمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الإيمان باشره، ووجوه أهل الصليب عوابس، ومحت أيامن هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات وصلى في محرابه المحرب ودرس فيه الخلاف والمذهب[5]، وكذلك وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بتأسيس المدرسة العزيزية، وكانت دار الأمير أسامة يعني عز الدين نائب بيروت أخذها منه الفرنج من غير قتال[6].

ومن اهتمام المسلمين بالعلم والعلماء في الشام، أظهر نور الدين زنكي بحلب محاربة بدع الدين، وقمع الرافضة وبنى بها المساجد والمدارس، ووسع في أسواقها، وأحسن إلى العلماء

---

(١) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات(ج٣٥/١).

(٢) كانت مدرسة قبل الإسلام تعرف بصندحنة، يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يتملك الفرنج بالقدس، ثم لما ملك الفرنج القدس في سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٨م)، أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام. انظر: المختصر في أخبار البشر(ج٨٣/٣)؛ ابن واصل، مفرج الكروب(ج٤٠٧/٢)؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج٢٧/ص١٥٩) ؛العليمي، التاريخ المعتبر في أنباء من غبر(ج٩٨/٢) ؛ القلقشندي، صبح الأعشى(ج١٠٥/٤).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية(ج٥٩٤/١٦).

(٤) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج١٥٩/٢٧).

(٥) أبي شامة، الروضتين(ج٣٥٣/٣).

(٦) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس(ص٢٩٣).

وأكرمهم، وبنى دور العدل وحضرها بنفسه، ووقف على المرضى وأدر على الضعفاء والأيتام، ما شد عن طاعة الخلافة، وكان يميل إلى التواضع ومحبة العلماء والصلحاء[1].

وكان نور الدين يزور دار العدل في الأسبوع أربع مرات، ويحضر عنده العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحجاب والبوابين، وأنفق على عمارة جامع الموصل ستين ألف دينار، وفوض أمر عمارته إلى الشيخ عمر المنلا الزاهد، ويقال أنفق عليه ثلاثمائة ألف دينار فتم في ثلاث سنين، وبنى جامع حماة على جانب العاصي[2].

---

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس(ص٤٦٧-٤٦٨).

(٢) المصدر السابق(ص٤٧٠).

المبحث الثاني: انتهاك الفرنج لحرية العبادة واستهزائهم بالإسلام

أولاً: تنصير الفرنج الإجباري للمسلمين في الشام:

بذل قساوسة الفرنج جهود كبيرة في محاربة دين الإسلام، ضامرين له بالمعاداة، وأرادوا أن يخضعوا المسلمين في كافة بلاد الشام تحت طاعتهم، ليقبلوا سلطة الكنيسة سواء كانوا مؤيدين أو مكرهين(١)، وفي مثل هذا قال عَزَّ وَجَلَّ: { **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**}(٢)، ولذلك هاجموا مدن الشام عن عقيدة أملاها عليهم رهبانهم، وصمموا على سلخ المسلمين عن دينهم، كما في قوله سبحانه وتعالى: { **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**}(٣)، ولكن المسلمين يؤمنون بأن الإسلام هو الدين الحق وأن ما سواه باطل، كما في قوله سبحانه وتعالى: {**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**}(٤).

كما يؤمن المسلمون أن الارتداد عن الاسلام كفر؛ فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد احصانه فعليه الرجم، أو قتل عمداً فعليه القود، أو إرتد بعد إسلامه فعليه القتل..)(٥).

والإسلام لا يوجب إكراه غير المسلمين لإعتناقه، فهي حرية ظاهرة، إذ إنه لا يغصب أحد على إعتناق الإسلام مع أنه المخلص للبشرية من ضلالاتها، وكل مشكلاتها، حيث قال عز وجل: {**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**}(٦)، ولكن الصليبيون نظروا إلى إنتشار الدين الإسلامي من وجهة نظر قساوسة الكنيسة ورهبانها، والذين أفزعهم وآلمهم ضياع حكمهم لبلاد العرب مثل الشام

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس(ص٣٨).

(٢) سورة البقرة: [١٢٠].

(٣) سورة البقرة: [٢١٧] .

(٤) سورة آل عمران: [٨٥].

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٥٠٢/١، رقم الحديث: ٤٥٢.

(٦) سورة البقرة: [٢٥٦].

ومصر والعراق، والتي ارتبطت أغلبها بأصول النصرانية ونشأتها، وعلى الرغم من ذلك فرض المسلمون سيطرتهم الدينية على البلاد[١].

وأثناء اجتياز جيش الفرنج شوارع مدينة صور اللبنانية؛ استولوا على كافة مرافق الحياة للسكان، حولوها إلى النصرانية[٢]، وأكد ذلك راينسمان بقوله: " لكن أنطاكية عادت نصرانية مرة أخرى"، وذلك على أنقاض المدينة بعد قتل وأسر وسبي أهلها، ونهب منازلهم وكان عدة من خرج إليه من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، ولم يكن بوسع المرء أن يسير في الشوارع دون أن يطأ الجثث التي تعفنت سريعاً بفعل حرارة الصيف[٣]، ويروي المؤرخ المجهول بقوله: "وقد ازدانت بكل ضروب الفتنة لما تحويه من الكنائس العدة، التي تكاد تبلغ ثلاثمائة كنيسة، كما تضم ستين ديراً يشرف بطركها على مائة وثلاثة وخمسين أسقفاً[٤].

يروي ما شاهده المؤرخ المجهول بقوله: " جئنا بعد ذلك إلى مدينة الرملة التي أخلاها المسلمون خوفاً من الفرنجة، وكانت على مقربة كبيرة منها كنيسة مقدسة دفن فيها جثمان القديس جورج الطاهر، وذلك لأنه كان قد نعم بالشهادة السعيدة في هذه البقعة على أيدي الوثنيين الكفرة(المسلمين) من أجل اسم المسيح، فعقد قادتنا مجلساً قرروا فيه انتخاب أسقف، لرعاية هذه الكنيسة وإدارتها ووهبوا الأعشار، وأمدوه بالذهب، والفضة، والجياد، وغيرها من الأنعام[٥].

وتجدر الإشارة إلى أن الفرنج هاجموا حصن بزاعا، ونصبوا عليه المجانيق وأحكموا قبضتهم، ثم غدروا بأهل الحصن، ونادى منادي يتوعد الناس أنه من تنصر من المسلمين يكون آمناً على نفسه وأهله فلا يتعرض للقتل أو الأسر، وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمان مائة نفس، واستجاب لهم من الخوف جماعة من أعيانها، نحو أربعمائة شخص، وتنصر قاضيها، وأقام الفرنج في البلد عشرة أيام يتعقبون من هرب منهم، واستدلوا على جماعة

---

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى(ص١٠٥).

(٢) الحروب الصليبية(ج٤٣/٣).

(٣) تاريخ الحملة(ج٣٦٣/١).

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١٠٣).

(٥) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١١٤).

كثيرة قد نزلوا إلى المغارات، فدخنوا عليهم وقتلوهم خنقاً[1]، يبدو ذلك لأنهم تمسكوا بالإسلام، وقد لاقوا حتفهم.

ويبدو أن الهجرات الضخمة للأهالي والتي أعقبت مذابح الصليبيين في الشام، وبفعل تخويفهم للسكان حول المسلمين إلى أقليات في بعض القرى والمدن، كما أن بعض الناس آثروا الارتداد عن دينهم، واعتناق النصرانية؛ خوفاً على حياتهم، وليحافظوا على ثباتهم في وطنهم حتى لو بقوا مكرهين على ذلك، لأن الصليبيين سار في فكرهم الذي تشبع بالحقد بالكراهية على المسلمين، وبفعل دعاة الحملات الصليبية، تحت شعار: إما التنصير وإما الإبادة[2]، ويبدو أن تأثير المواعظ النصرانة زادت من الوحشية عند الجندي الفرنجي، وجعلت نظرته العدائية واضحة وهو يقاتل ويحسب نفسه على حق.

وقد ساوم الفرنج المسلمين في بلاد الشام على أن يكفروا بالإسلام، وذلك عندما كانوا في قبضتهم، وطلبوا منهم الدخول في النصرانية، مقابل نجاتهم بحياتهم وحياة عائلاتهم، وأبقوا على حياة مجموعة من الناس اعترفوا بالمسيح كمخلص، ورغبوا في أن يعمدوا، وقتلوا كل من رفض منهم اعتناق المسيحية[3].

واقتحم ريموند بيليه قلعة " تل منس" واستسلم أهلها له، وأقام في تلك البلدة ثمانية أيام، وتحصن بها وجعلها قاعدة عسكرية له، وانطلق يحاصر الفلاحين في الحصن المجاور، وألقى القبض على جميع الفلاحين، ونكلوا بالناس، لا لشيء اقترفته أيديهم؛ ولكنهم كانوا فقط مسلمين، وقتل الصليبيون كل من رفض اعتناق النصرانية، وأفرجوا عن الذين فضلوا الإيمان بالمسيح[4].

فلم يترك الصليبيون باباً من أجل تنصير المسلمين في الشام إلا وطرقوه، وحيث عرض الحاكم الصليبي، وبإجماع كنسي، على العادل أن يزوجه أخته بشرط أن يتنصر العادل ويدخل في دينها، بحجة غضب المسيح إذا لم يحدث ذلك، واجتمع الحاكم الفرنجي بالعادل عدة

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٩٠)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/١٣) ابن واصل، مفرج الكروب(ص٧٨)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ج١، ق٢/ص١٢٣)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (ج٣٦/٢٠٧)؛ الدواداري، كنز الدرر (ج٦/٥٢٦).

(٢) هونكة، الله ليس كذلك(ص٢٥).

(٣) توديبود، تاريخ الرحلة(ص٢٥٦).

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص٩٩).

اجتماعات، في كل وقت يتهاديا، وكان خديعة من الاثنين لبعضهما، واشترط النصراني بقوله: لا بد من القدس وصليب الصلبوت، فادفعهما إلينا، ولك من قاطع الأردن إلى ناحية الشرق، وقال السلطان: أما القدس فهو عندنا أعظم مما هو عندكم، لأنه مسرى نبينا– صلى الله عليه وسلم– ومجمع الملائكة، فلا تنازل عنه، وأما صليب الصلبوت فهلاكه عندنا قربة عظيمة[1].

ومهما أبدى المسلمون حسن المعاملة اتجاه الفرنج إلا أنهم قوبلوا بإرادة نصرانية تريد النيل من الإسلام، حيث أرسل ملك مدينة حمص، الهدايا والخيول والذهب إلى ريموند كونت صنجيل، رغبة منه في عقد اتفاق سلام مع الفرنج، محترماً رغبات النصارى في كل شيء، وأن يغمرهم بكرمه في بلاده، كما أيضاً بعث ملك طرابلس لنفس الغرض في عقد اتفاق سلام مع الفرنج، وأرسل إليهم عشرة من الجياد، وأربعة من البغال، ومبلغ من المال، غير أن ريموند صرح بأنه لن يقبل عروض السلم مالم يعتنق ملك طرابلس النصرانية[2]، ويبدو أن اختيار الفرنج الحرب على السلام مع المسلمين بالإضافة إلى محاربة المسلمين بدينهم.

وكان حكام مصر يواصلون الدعم لمدينة طرابلس وهي تحت حكمهم، وعندما شرع الصليبيون في قتالها ضايقوا أهلها وألصقوا أبراجهم بأسوارها، فلما رأى الجيش المُدافع عنها قرب سقوطها، ذلت نفوسهم، وما وزادهم ضعفاً إلا تأخر إغاثة الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة[3]، ولكنهم اشترطوا للتخفيف عن الناس، بعد اتفاقهم مع ملك طرابلس على أن يعتنق هو النصرانية ويتسلم أراضيه منهم[4].

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان(ج٢١/٣٨٨).

(٢) توتديبود، تاريخ الرحلة(ص٢٩٠).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٧٨).

(٤) توتديبود، تاريخ الرحلة(ص٢٩٣).

ثانياً: استهزاء الفرنج من الإسلام

قام الفرنج في طعن الإسلام والقرآن، واستهزأوا برسول الله –صلى الله عليه وسلم– وفعلوا ذلك جهاراً، ويستدل من ذلك على مدى كراهيتهم للإسلام، وقال ريجنلد[1]: " إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم"[2]، وبين المولى عز وجل سبب معاداة النصارى للمسلمين في قوله تعالى: {**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**}[3].

ولذا حاول الفرنج بكل الطرق المتاحة لديهم عرقلة انتشار الإسلام، واتخذوا الاستهزاء بالإسلام ودعوة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– عادة، والتقليل من شأنه وسيلة معتمدة عندهم، على الرغم من تيقنهم بأن الاسلام دين الحق، كما وضح ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: {**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**}[4].

وأقدم الصليبيون على شتم النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– أثناء دخولهم حلب، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا: يا مسلم أبصر كتابكم، وأخذه أحد الفرنج وثقبه بيده، وشده بخيطين، وعمله ثفراً لبرذونه، فظل البرذون يروث عليه، وكلما أبصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً[5].

وكما تجدر الإشارة إلى أن الكفر الناتج من الحسد في الدين هو سبب رئيس من أسباب البغي والظلم والذي أدى بالنصارى لاقتراف الجرائم في بلاد الشام وغيرها، بسبب الحسد الذي ولد العناد وقول الحق الأبلج ورغم ذلك يجادل عن الباطل، فقال سبحانه: {**قُلْ يَا أَهْلَ**

---

(١) ريجلند أمير شاتيون Reginald of Chatillon نصب نفسه أميراً مستقلاً في قلعة الكرك، وراء نهر الأردن، وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقود بين الملك اللاتيني وصلاح الدين، وأعلن عزمه على أن يغزو بلاد العرب، ويهدم قبر النبي في المدينة، ويدك أبنية الكعبة في مكة. ديورانت، قصة الحضارة(١٥/٣٥).

(٢) ديورانت، قصة الحضارة (ج١٥/٣٦).

(٣) سورة البقرة: [١٠٩].

(٤) سورة الأعراف: [١٥٧].

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٩٣).

الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[1]، وعبر عن ذلك قسيسيهم بقولهم: " يا لتلك الشعوب العمى المعدة للقتل، ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً "[2]، ولهذا كان عند الفرنج قانون يشجع على نبذ المسلمين ونبيهم عليه الصلاة والسلام[3].

وقد استهزأ الفرنج بالأنبياء لغرض إثارة العوام من النصارى في أوروبا؛ لحشدهم ضد المسلمين في بلاد الشام، وعلى إثر انتصار صلاح الدين في تحرير مدن الشام، وعندما أخذ ينتزع المعاقل الإسلامية وقلاعها من أيديهم؛ لذلك طافت جماعة من رهبانهم ومعهم وخلقاً كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم، في مدن سواحل الشام وجميع مدن أوروبا، وهؤلاء كانوا في بيت المقدس، وقد لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج القدس من حكمهم، وبغرض الدعاية والتحريض في طلب الحث والاستنجاد على ذلك، وقد صوروا صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه ويؤذيه، فإذا سألوهم من هذا الذي يضرب المسيح؟ قالوا هذا محمد نبي المسلمين، يضربه وقد جرحه ومات، فينزعجون لذلك ويحزنون، ويثورون، ويبكون فعند ذلك خرجوا من بلادهم لنصرة دينهم ونبيهم[4].

والجانب المفاجئ في ذلك هو أن استهزاء الفرنج بالأنبياء، وتصويرهم الخيالي عن الأنبياء، حقق نجاح وصدى إعلامي سريع في أوساط المجتمع الأوروبي، فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الإفرنج في البحر عالم لا يحصى من كثرتهم، وساروا إلى عكا، وضايقوها وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ولم يبق للمسلمين إليها طريق[5]، وفي مثل تلك الأفعال قال تعَالَى: {يَا أهل الْكتاب لم تلبسُونَ الْحق بِالْبَاطِلِ وتكتمون الْحق وَأَنْتُم تعلمُونَ}[6].

---

(١) سورة آل عمران: [٩٩].

(٢) لوبون، حضارة العرب(ص٣٣٧).

(3) August, The first crusade (p225).

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٦٩/١٠)؛ ابن كثير، البداية والنهاية(ج٣٣٥/١٢).

(٥) أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر(ج٧٦/٣)؛ ابن الوردي، تاريخ(ج٩٩/٢)؛ العمري، مسالك الأبصار(ج١٤٩/٢٧).

(٦) سورة آل عمران: [٧١].

وفي الحقيقة أن استهزاء الفرنج بالله عز وجل، وبالأنبياء، صارت ثقافة عندهم، وحيث قال ابن منقذ: " ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين –رحمه الله– وهو في الصخرة فقال تريد تبصر الله صغيراً؟ قال نعم، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه الصلاة والسلام صغير في حجرها فقال هذا الله صغير، فتعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً[(١)].

فلم يدرك الصليبيون عظيم ما أقدموا عليه من الإلحاد وإظهارهم كفرهم بالله، واستهزائهم بالأنبياء، فإنه ليس لهم عذر، ولقد حذر المولى عز وجل من الاستهزاء بالدين في كتابه العزيز: **{قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ}**[(٢)].

ولم يروق للفرنج سماع صوت الأذان من فوق مآذن المسلمين، وبسبب جرائمهم في حلب والمعرة، فخافهم الملك رضوان بن تاج الدولة، لعجزه عن صدهم ومنعهم، فاضطُرّ إلى مصالحتهم فاقترحوا عليه أشياء كثيرة من ضمنها أن يبعث إليهم في كلّ سنه جملة من مال وخيل، وأن يتعلّق بقلعة حلب الجرس ويضع صليباً على منارة المسجد، ولكنه اعترض على ذلك[(٣)].

وظهرت تعديات الفرنج على المسلمين في مدينة اللاذقية الساحلية العتيقة، لما أبنية قديمة، فعندما احتلوها كان للمسلمين بها جامع وقاض وخطيب، فإذا أذن المؤذن للصلاة ضرب الفرنج بالناقوس غيظاً، قال المعري:

باللاّذقيّة فتنةٌ	ما بين أحمد والمسيح
هذا يعالج دلبه(الجرس)	والشّيخ من حنقٍ يصيح![(٤)].

ولقد وصف ابن منقذ سوء احترام النصارى للمسلمين بجفاء الأخلاق، لأنه عندما دخل المسجد الأقصى شاهد مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة، فوقف يوماً للصلاة واستقبل القبلة في

---

(١) الاعتبار(ص١٣٥).

(٢) سورة التوبة: [٦٤-٦٥].

(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ص١٧).

(٤) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد(ج١/٢٥٩).

المسجد، فهجم عليه شخص إفرنجي ومسكه ورد وجهه إلى الشرق، وقال كذا صلي، وعاد إلى الصلاة فرجع له الفرنجي نفسه ورد وجهه إلى الشرق، وقال: كذا صلي، فشعر ابن منقذ بالحزن والتعجب، ولم يكمل صلاته فخرج من المسجد الأقصى[(١)]، ومن جهل الصليبيون عن الإسلام، وعن العبادات، واستهتارهم بمشاعر المسلمين التعبدية، ظهر ذلك في كتابة الشارتري عندما شاهد تمسك المسلمين بصلاتهم في المساجد فقال : " لقد مارس الشرقيون هنا عبادتهم الوثنية بشعائر خزعبلية، كما أنهم لم يسمحوا بدخول المسيحيين إليه"[(٢)].

---

(١) الاعتبار (ص١٣٤-١٣٥).

(٢) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٧٥).

المبحث الثالث: تخريب الفرنج للمراكز الدينية وآثار المسلمين

أولاً: تدمير الفرنج للمساجد والآثار الإسلامية قطعهم طرق الحجاج

اتخذ المسلمون المساجد للصلاة والعبادة وتعلم القرآن وعلومه، والحديث الشريف وعلوم اللغة العربية، وما يتعلق بذلك من المتطلبات العلمية، والاجتماعية التي يرونها تخدم دينهم ودنياهم(١)، قال تعالى: {**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ**}(٢).

لقد دمر الصليبيون المساجد عند اقتحامهم مدن الشام، وهدموا المآذن حتى لا يظل الآذان يصدع بذكر الله، واسم نبي الإسلام، لعلمهم أن هذا معتقد يختلف عن طقوسهم في التعاليم النصرانية، ولقد اعتبروه هدفاً معادي ولزم القضاء عليه، قال تعالى: {**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ**}(٣)، ولهذا عندما احتلوا أنطاكية هدموا مساجدها ومآذنها، وأصر زعمائهم عند اقتحامهم البلد على إقامة حصن عند رأس الجسر مكان مسجد، لكي يسدوا الطريق(٤)، وفي هذه الأفعال يقول سبحانه وتعالى: {**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها**}(٥).

ويجدر بالذكر أن الفرنج شوهوا ملامح المساجد وحولوها إلى كنائس في بلاد الشام، وقد ذكر ابن جبير في رحلته أنه عندما وصل إلى مدينة صور وأقام بمسجد بها، حدثه أحد مشايخها أن للبلد مساجد أخري كثيرة، أخذها منهم الصليبيون(٦)، وعندما زار ابن جبير عكا شاهد المساجد التي حولها الفرنج إلى كنائس، وغيروا صوامعها إلى مضارب للأجراس، وأبقوا

---

(١) كرد، خطط الشام(ج٦/٦٦).

(٢) سورة التوبة: [١٨].

(٣) سورة التوبة: [١٧].

(٤) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/٣١٧).

(٥) سورة البقرة: [١١٤].

(٦) ابن جبير، الرحلة(ج١/ص١٧٦).

موضع مسجد صغير يجتمع الغرباء منهم فيه لإقامة الصلاة، وعند محرابه قبر النبي صالح عليه الصلاة والسلام[١].

بنى المسلمون في اللد عدة مساجد، وكان بها في القرن الرابع جامع واسع يجمع به خلق كثير من أهل المنطقة، وما حولها من القرى وجامعها الكبير حوله الصليبيون إلى كنيسة[٢]، ويذكر مؤرخ الحملة الأوروبي رانسيمان أن الصليبيين عندما احتلوا بلدة روحة: " أعيد تسكين المسيحيين في المدينة وحول المسجد إلى كنيسة"[٣]، ويقول ابن جبير: " وكانت راحتنا مدة مقامنا بمدينة صور بمسجد بقى بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد أخر، فأعلمنا به أحد مشايخ أهل صور أنها أخذت منهم" [٤].

واتبع الصليبيون أسلوب الإهانة الجماعية لسكان كل مدينة يسيطرون عليها في الشام، فلم يراعوا أي حق للناس ولم يحترموا حرمة الدين، حيث طغى عليهم حب الاستحواذ والسلب، فعندما هاجم ريموند على مدينة البرة، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، ارتكب في شوارعها المذابح، وباع الكثير من أهلها في أنطاكية، وداهم المساجد وحولها إلى كنائس، وبعدما شرد أهل البرة جلب النصارى مكانهم، وعين ريموند القس بطرس أوف ناربون أسقفاً للمدينة، وشعر الجيش الصليبي بفرحة انتصارهم على المسلمين[٥].

وعندما دخل الفرنج معرة النعمان؛ هدموا سور البلد؛ وأحرقوا مساجده، ودوره، وكسروا المنابر، وعاد قائدهم بيمند إلى أنطاكية، وقمص الرها إليها؛ وهدموا سور البلد، ودمروا، مساجدها ودورها وكسروا المنابر[٦]، واجتاحوا بيت المقدس، وفعلوا ذلك في المسجد الأقصى فعلوا[٧]، وعندما اقتحموا معرة مصرين، قتلوا من وجدوا من أهلها وكسروا منبرها[٨] ولما ملكوا

---

(١)ابن جبير، الرحلة(٢٧٦).

(٢) كرد، خطط الشام(ج٦/٥٦).

(٣) تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٤).

(٤) رحلة ابن جبير(ص٢٧٩).

(٥) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية (ج١/٣٩٤).

(٦) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٤٥).

(٧) المصدر السابق(١/٢٤٤).

(٨) المصدر نفسه(ج١/٣٨).

مدينة سروج، سبوا أهلها، ونهبوا أموالهم، وأخربوا مساجدهم[١]، ولما دخل الفرنج إلى داريا[٢]، أحرقوا مسجدها، وأخذوا بابه، ورحلوا عنها بنفس اليوم[٣].

وأورد المؤرخون في كتاباتهم عن مذبحة الفرنج في بيت المقدس، التي راح ضحيتها ما يزيد عن سبعين ألف إنسان، ولاحقوا الأهالي في ساحات المسجد الأقصى، وأخذوا في تقتيلهم، ونهبوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، كل قنديل وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنّور فضة وزنه أربعون رطلاً، وأخذوا نيفاً وعشرين قنديلاً من الذهب[٤]، وبعدما سيطروا على المدينة، حولوا المسجد الأقصى الغربي إلى بيت للسكن، وحولوا مسجد قبة الصخرة–ذي القبة الكروية– إلى كنيسة سموها" هيكل السيد Lemplum Domini، وخصصها ملك وبطريرك القدس للهيكليين[٥].

وبكى المسلمون حرقة على المسجد الأقصى؛ حين منعهم الفرنج من الأذان والصلاة، ولم يكتف المعتدون بذلك بل حولوه إلى اصطبلات للخيول، وشاهد ذلك الرحالة الأوروبي فورزبروغ، عندما شاهد في أزقة القدس فقال: " حيث يوجد اصطبل بحجم رائع، يمكن أن يشتمل على أكثر من ألفى حصان، وخمسمائة جمل، وتمتلك جماعة فرسان الداوية العديد من المباني المتصلة" [٦]، ويبدو أنه وعلى الرغم من تعديات النصارى على المساجد إلا أن المسلمون حافظوا قدر ما استطاعوا على استقلالية مصلاهم وقداسته؛ فيقول الشارتري: " لقد مارس المسلمون شعائرهم في أماكن لم يسمحوا بدخول المسيحيين إليه"[٧]، وقال العماد: " لما

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٤/٢١).

(٢) قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة، والنسبة إليها داراني على غير قياس، وبها قبر أبي سليمان الداراني وهو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الزاهد. ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٤٣١).

(٣) الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان(٤١٢).

(٤) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك(ج١٧/٤٧)؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان(ج١٩/٤٩٧)؛ ابن العماد، شذرات الذهب(ج٥/ص٤٠١)؛ العليمي، الأنس الجليل(ج١/٣٠٨).

(٥) زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص١٦٠).

(٦) فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين(ص٥١).

(٧)الشارتري، الطريق إلى القدس(ص٧٥).

فتحنا القدس أُمِرَ بتعمير المحراب، وترخيمه، وتكميل حسنه، وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضى به الفرض"[1].

وأورد صاحب مسالك الأبصار أن الفرنج عملوا في المسجد الأقصى مستراحاً، وعندما حرره المسلمون، أمر صلاح الدين بإزالة ذلك، وإعادة المسجد إلى ما كان عليه، وأمر بإحضار منبراً قد عمله نور الدين محمود بن زنكي بحلب وتعب عليه مدة، وقال: هذا لأجل القدس؛ فأرسل صلاح الدين بإحضاره من حلب، وجعله في المسجد الأقصى[2].

وعندما حرر صلاح الدين بيت المقدس، خطب بالناس محيي الدين بن زكي الدين، وهو يومئذ قاضي حلب وأزيلت الصلبان من قبة الصخرة، ومحراب داود، وأزيل ما كان بالمسجد الأقصى من حوانيت الخمارين، وهدمت كنائسهم والمعابد، وبنيت المحاريب والمساجد[3].

وعن تمسك المسلمون بصلاة الجماعة في المساجد رغم الهجمة النصرانية على طمسها، فقد شاهد ابن جبير في مدينة عكا مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الفرنج في شرقيه محراباً لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه، وهو بأيدي النصارى معظمه محفوظ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين[4].

وأصبح المسلمون يتوقون لعودة المساجد إلى حظيرة السيادة الإسلامية، ويظهر في وصف ابن جبير لمدينة عكا عندما قال عنها: " هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام.. تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً، زفرةً قذرةً، مملوءة كلها رجساً وعذرة، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المئة السادسة، فبكى لها الاسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه، فعادت مساجدها كنائس، وصوامعها مضارب للنواقيس، وطهر الله من مسجدها الجامع"[5].

---

(١) أبي شامة، الروضتين(ج٣/٣٩٢).

(٢) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج٢٧/١٤١).

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٤١٢).

(٤) ابن جبير، الرحلة(ج١/٢٤٩).

(٥) المصدر السابق(١/١١٦).

ولقد سيطر الفرنج على معظم مدن الشام عدا دمشق، ونقل المسلمون مصحف عثمان من مدينة المعرة إلى دمشق[١]، ويبدو أنه لم يتخذ المسلمون هذه الخطوة إلا بعدما عرفوا وأيقنوا، أن الصليبيين كانوا يقتحمون المساجد، ويتلفون المصاحف، ولم يراعوا حرمة العبادة، ومن ناحية أخرى عندما قصد بردويل الإفرنجي مصر؛ ليأخذها، وصل إلى قطاع غزة ودخلها، وخربها، وأحرق مساجدها، ورحل عنها وهو مريض، ومات في الطريق قبل وصوله إلى العريش فشق أصحابه بطنه ورموا حشوته هناك[٢].

تعرضت الأماكن والآثار الإسلامية لانتهاكات الفرنج، التي اعتبرها المسلمون في حيازتهم؛ لحفظها منذ زمن طويل، ومنها موجود في مدينة عكا تسمى "عين البقر"، ويذكر أن البقر خرجت عنها لآدم فحرث عليها، وعلى هذه العين مشهد ينسب إلى على بن أبى طالب- رضى الله عنه- وذلك أن الفرنج عملته كنيسة[٣]، وأيضاً عندما وصل صلاح الدين إلى الشام، وفتح حصناً قد بناه الفرنج في مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب- عليه السلام- وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطان النبيين عصبة   تمين لدى أيمانها وهي تحلف

نصحتكم والنصح للدين واجب   ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف[٤].

واتخذ الفرنج مشهد زكريا عليه السلام في سبسطية[٥] وحولوه إلى كنيسة وأودعوا فيه أمتعة كثيرة وكان فيها جماعة من الرهبان والقساوسة[٦].

كما حاول الصليبيون منع المسلمين من التمتع بفريضة الحج، وقد أصر البرنس أرناط، حاكم الكرك الصليبي، باعتراض طريق الحجاج؛ ليهاجمهم، وصرح أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج أن يرجع إلى طريق الجيش المصري؛ ليصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين، فلما سمع أرناط

---

(١) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر(ج٦/٤٥٢).

(٢) العليمي، الأنس الجليل(ج١/٣٠٩).

(٣) الإشارات إلى معرفة الزيارات(ج١/ص٢٩).

(٤) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(ج٢٧/ص١١٨).

(٥) بلدة فلسطينية بينها وبين البيت المقدس يومان، وبها قبر زكريا، ويحيى بن زكريا- عليهما السلام- وجماعة من الأنبياء والصديقين، وتتبع لنفوذ مدينة نابلس. انظر، ياقوت، معجم البلدان(ج٣/١٨٤).

(٦) ابن المظفر، مضمار الحقائق وسر الخلائق(ص١٩٠).

بقرب صلاح الدين من بلده؛ ظل فيها ولم يفارقها، وانقطع عمًّا طمع فيه، فوصل الحجاج سالمين[1]، واستمر أرناط بغدر المسلمين وقطع طريقهم إلى الحج، وبينما هم سائرين في طريق الحجاز، سواء في ذهابهم أو إيابهم[2]، ولذلك قد نذر السلطان صلاح الدين أنه إذا ظفر به قتله[3].

وقال غوستاف لوبون: " لم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشية وضرباً من قطع الطرق وفضائح مزرية إلا اقترفوها"[4]؛ ولحماية الحجيج أقطع نور الدين محمود إقطاعات كثيرة؛ لئلا يتعرض الفرنج للحجاج [5].

ثانياً: اعتداءات الفرنج على مقابر المسلمين وموتاهم في بلاد الشام

يحث الإسلام على حفظ كرامة موتى المسلمين، والدعاء لهم، فعن أبي موسى الأشعري: (كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر؛ فكان قائلهم يقول في رواية أبي بكر: السلام على أهل الديار، وفي رواية زهير: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية)[6].

وتفشى الإجرام الصليبي في كافة تصرفاتهم وأفعالهم، ويمكن القول بأنه نُزعت الرحمة من قلوبهم تماماً، لدرجة وصول إرهابهم لموتى المسلمين، ولقد عقد قساوستهم بعد مذبحة بيت المقدس اجتماعاً، وأمروا بأن يقوم الصليبيون أولاً بسحب جثث قتلى المسلمين خارج المدينة؛ لخشيتهم أن يضرهم العفن، ويؤكد توديبود ذلك، بقوله:" وفي الواقع كانت المدينة كلها مكدسة بالجيف، وقام الأحياء من المسلمين بسحب جثث زملائهم إلى خارج أبواب المدينة، وكفنوها وجمعوها في أكوام في روابي بلغت ارتفاع البيوت، ثم أشعلوا فيها النيران"[7]، وكل ذلك بأوامر من الجيش الصليبي.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج١٠/٢٠).

(٢) أبو شامة، الروضتين(ج٣/٢٧٤).

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية(ج١/١٢٩).

(٤) حضارة العرب(ص٢٤١).

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١/ص٢٧٨).

(٦) مسلم، صحيح مسلم، ٦٧١/٢، رقم الحديث: (٩٧٥).

(٧) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٣١٩).

وعمد الفرنج إلى قبور المسلمين فنبشوها، مما أثار استفزازاً لمشاعر المسلمين، ولعلمهم أن تلك الأفعال كان الغرض منها إحباط معنوياتهم؛ فعندما اقتحم الفرنج بلدة ماردين[1]، بلغ ذلك قاضي حلب، أبو الحسن محمّد بن يحيى بن محمّد بن أحمد بن الخشّاب، ولذلك أخذ الكنائس من النصارى التي كانت بحلب أربعاً، وجعل فيها محاريب وحولها إلى مساجد[2].

وصف توديبود عن أفعال الفرنج في الشام، بقوله: "سارع رجالنا بالاستعداد بعد أن وصلتهم أنباء دفن موتى المسلمين؛ للتوجه إلى (المسجد الشيطاني)، حيث نبشوا القبور، وحطموا النعوش، وأخرجوا الجثث من المقابر، ثم قذفوا بالجثث في حفرة ونقلوا رؤوس الموتى إلى خيامهم، وهكذا عرفوا عدد قتلى المسلمين بدقة، فيما عدا حمولة أربعة جياد من رؤوس قتلى المسلمين، قاموا بنقلها إلى مندوبي أمير القاهرة، الذين كانوا يعسكرون بالقرب من ساحل البحر، وأوقع هذا المنظر اكتئاباً، وحزناً شديدين وفي كل يوم، ولم يفعلوا شيئاً سوى البكاء والعويل"[3].

فلم يسلم حتى موتى المسلمين في مقابرهم من العدوان الصليبي على بلاد الشام، أثناء الغارات على الأحياء، حيث أغار جوسلين على الجبول[4]، وما حولها، وتوجه إلى دير حافر؛ فخنق أهلها بالدخان في المغاير، وفتح المقابر، وسلب أكفان الموتى[5].

ولم تتوقف وحشية الفرنج عند هذا الحد فحسب؛ بل تعدى إلى أكثر من ذلك؛ فخلال زحفهم على مدينة حلب؛ راحوا يتلفون المزارع، وقطعوا الشجر، وخربوا مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور موتى المسلمين، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم، وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، واعتدوا على من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله؛ فربطوا في أرجلهم الحبال، وسحبوهم مقابل

---

(١) قلعة في شمال الشام، مشهورة على قمة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ودارا ونصّيبين. ابن شمائل، مراصد الاطلاع(ج٣/١٢١٩).

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ج١/١٧).

(٣) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص١٦٧).

(٤) الجبول: قرية كبيرة إلى جنب ملاحة حلب، وفيها ينصب نهر بطنان، وهو نهر الذهب. ياقوت، معجم البلدان(ج٢/١٠٧).

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٨٧).

المسلمين[١]، وعندما أخرج الفرنج موتى المسلمين حرقوهم، وما أمثلة ذلك: لمّا حاصر الفرنج حلب، نبشوا القبور الّتي بداخلها وأحرقوا من فيها[٢].

ويروي وليم الصوري عن سبب استخراج الفرنج لجثث قتلى المسلمين، بعدما اشتبكوا معهم في قتال شديد، بأنه: " كان في ذلك المكان مسجد، وقد جعلوا ناحية منه موضعاً؛ لدفن موتاهم، ومع مطلع اليوم التالي، ظلوا ينقلون جثث موتاهم إلى ذلك الموضع، فلما تأكد رجالنا من صدق هذا الخبر؛ اندفعوا اندفاعاً شديداً إلى ذلك المكان يحدوهم الأمل في العثور به على غنائم تكون مدفونة مع الموتى؛ فنبشوا القبور، وأخرجوا الجثث، ولم يكتفوا بما أخذوه من الذهب والفضة والأقمشة الغالية؛ بل امتدت أيديهم إلى الجيب ذاتها.. ولقد وجدوا في تلك المقبرة ألفاً وخمسمائة جثة، سوى من بلعهم النهر في مرات كثيرة وسوى الذين قبروا في المدينة.. وأرسل الصليبيون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى إلى من كانوا موجودين في الميناء؛ فتضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا هناك"[٣].

يبدو أن الفرنج كانوا يعبثون في مقابر المسلمين؛ لأهداف متعددة، منها: الإساءة للمسلمين كما ذكر سابقاً، والبحث عن أمور دينية؛ ليثبتوا ولائهم لهذه البلاد عن طريق الاهتمام بقبور الأنبياء؛ لأنه في زمان الملك بردويل انخسف الموضع في هذه المغارة، ودخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك؛ فجدوا فيها إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب– عليهم السلام– قد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط، وعلى رءوسهم مناديل، ورؤوسهم مكشوفة؛ فجدد الملك أكفانهم، ثم سد الموضع[٤]، وخرب الفرنج حول هذه المقابر، وبعد ذلك حررها المسلمون، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدسة، وأقيمت الخمس وكان التثليث يحضرها[٥].

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(ص٢٩٢).

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ص٣٨).

(٣) الحروب الصليبية(ج١/٣٢٤-٣٢٥).

(٤) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات(ص٣٥).

(٥) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ص٩٨).

ومن تعديات الفرنج على قبور الأنبياء في فلسطين وتحديداً في بلدة سبسطية[1]، والتي فيها مشهد زكريا –عليه السلام– وقد اتخذه الفرنج كنيسة، وأودعوها أمتعة كثيرة، وكان فيها جماعة من الرهبان والقساوسة؛ فمنذ أن احتلها الفرنج ، وسكنها الرهبان، ولا يؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة[2]، وكذلك اقتحموا باحات المسجد الأقصى، وتسلموا المحراب بالأمان، وهدموا المشاهد، وقبر الخليل علية السلام[3].

---

(١) سبسطية بينها وبين البيت المقدس يومان، وبها قبر زكريا ويحيى بن زكريا، عليهما السلام، وجماعة من الأنبياء والصديقين، وهي من أعمال نابلس. انظر: ياقوت، معجم البلدان(ج٣/١٨٤).

(٢) ابن المظفر، مضمار الحقائق وسر الخلائق(ص١٩٠)؛ الأصفهاني، مختصر سنا البرق الشامي(ص١٤٥).

(٣) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٢).

المبحث الرابع: موقف الصليبيين من البيزنطيين واليهود في بلاد الشام

أولاً: موقف الصليبيين من نصاري الشام

ظهرت دعوة قال أوربان الثاني فرنسي الجنسية، عندما حرض الصليبيين على المشاركة في الحملة على بلاد الشام، وضمن خطابه مساندة النصارى في الشرق بقوله: "عليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم القاطنين في المشرق الذين يحتاجون لمساعدتكم"[١]، وقال: " يا شعب الفرنجة، شعب الله المحبوب المختار.. لقد جاءت من تخوم فلسطين، أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا الآخرين، بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب، وهم يهدمون المذابح في الكنائس، بعد أن دنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان[٢]، يظهر من هذه الشعارات الحماسية أنها للاستهلاك الإعلامي والتحريضي.

وجلبت اعتداءات الصليبيين على بلاد الشام كوارث كثيرة على المجتمع النصراني الشرقي، ومن ضمنها الكارثة على الأقباط[٣] منهم[٤]، والحقيقة أن غزو جيش الفرنج لفلسطين أثر سلبياً على النصارى الشرقيين في الدولة الإسلامية، الذين كانوا منسجمين ومتفاعلين بعلاقة مودة مع جيرانهم، ومحافظين على الاحترام المتبادل في الخصوصية الدينية، والكثيرون منهم شغلوا مناصب مهمة في الإدارة، وكانوا محل تقدير الحكام وثقتهم، ولكنَّ هجمات الفرنج على

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٣٦).

(٢) ديورانت، قصة الحضارة(ج١٥/١٥).

(٣) والقبط طائفة نصرانية بمصر، ويقال: بنو قبطي بن مصر، ينسب إليهم كثير منهم إبراهيم بن مسلم بن يعقوب القبطي مولى بني فهم كان فقيهاً، وكان جده يعقوب ممن بعثه المقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع مارية، ويقال: قبط بن قوط بن حام، وقبط بطن من حمير، وقبطي اسم فرس سبّاق، يقال له القبطي الفرسي، فنسب إليه عبد الملك بن عمير، وهو أبو عمر. انظر: السمعاني، الأنساب(ج١٠/٣٢٨)؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب(ج٣/١٣).

(٤) أوقف الأقباط رحلات الحج التي كانوا يقومون إلى الأرض المقدسة، وذلك بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وعطلوها بسبب ما عرف عن كراهية الصليبيين لهم، لمعتقداتهم المختلفة عنهم. براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٢٦٤).

العالم الاسلامي قد ولدت كراهية عميقة بين الناس، ونظر الصليبيون المحتلين وهم أتباع الكنيسة الرومانية إلى المسيحيين الشرقيين إلى أنهم انفصاليون، وأشد سوءاً من الهراطقة، فلم يحترم هؤلاء المحتلون إلا طائفة المراونة[1] في لبنان؛ لأنهم أظهروا تبعيتهم للكنيسة الرومانية[2].

ويتضح وجود خلافات وأحقاد من الفرنج على طائفة المراونة في الشام، رغم تبعيتهم واحترامهم لهم، وتبين ذلك في قول المؤرخ النصراني يعقوب الفيتري:" إن الهرطقة[3] التي ارتكبها مارو وأتباعه لا يزالون عليها، وهي أن السيد المسيح مازال كما كان منذ البدء، ذا مشيئة واحدة، وطبيعة واحدة، وقد عقد ضدهم المجمع المسكوني السادس الذي تحملوا فيه عقوبة اللعنة، ويقال إنهم نبذوا هرطقتهم، وعادوا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية تحت قيادة بطريركهم والعديد من أساقفتهم[4].

وجد الفرنج استقبال وترحاب نصارى الشام لهم، وأكثر من ذلك فقد ساعدوهم وفتحوا لهم أبواب مدنهم، وأمدوهم بالطعام والعتاد، فرحاً بهم ليتخلصوا من حكم المسلمين، واعتبروهم أنهم من نفس الديانة النصرانية، فلما وصل تانكريد إلى طرطوس، بينما كانت تحت حكم المسلمين، اتصل النصارى الذين يسكنون المدينة منهم الأرمن واليونانيون بتنكريد متوسلين إليه أن يحتلها، ولكن المسلمين قاوموهم، وصمدوا ثلاثة أيام حتى قدم بالدوين بجيشه، وتكاثرت جموع الفرنج، فهرب المدافعون تحت جنح الظلام، وفي الصباح فتح المسيحيون البوابات لتانكريد، ووصل بالدوين ليجد رايات تانكريد ترفرف على الأبراج[5].

---

(١) تعود أصولهم إلى بطن من درما من ثعلبة طي من القحطانية، منازلهم مع قومهم ثعلبة بأطراف مصر مما يلي الشام، وينسبون إلى بني أمية من قريش من العدنانية، وهم بنو مروان بن الحكم ابن العاص بن أمية الأكبر، القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب(ج١/١٥٨-١٥٩).

(٢) عطية، تاريخ المسيحية الشرقية(ص١١٤).

(٣) الهرطقة: إذا أنكر النصراني بإصرار إحدى الحقائق التي يؤمن بها الكاثوليكيين، أو شك بها، فهي تناقض مباشر وفوري على شكل تعارض أو تضاد مع نقطة من العقيدة التي اقترحتها الكنيسة. انظر: ويلتر، الهرطقة في المسيحية(ص٢٣).

(٤) تاريخ بيت المقدس (ص١٢١/هامش٢)

(٥) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/ص٣١٥).

فلم يستطع الصليبيون كسب ود المسيحيين الشرقيين؛ إذ لم يعتبروهم في وضع متكافئ ومتساو مع السكان الأوروبيين المهاجرين، وفرضوا الضرائب على هؤلاء النصارى المواطنين القدامى، كما فرضوها على المسلمين واليهود في الشام، ومنها ضريبة الرأس Capitatio(١).

وكان من مواعظ أوربان الثاني في الحاضرين لمهرجان الدعوة للحملة الصليبية بقوله:" كما أننا سوف نبسط حماية الكنيسة، ورعاية المباركين بطرس وبولس، ونرسم بأن يطمئنوا، وألا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم وذويهم، فإن اجترأ أحد ما- أثناء هذا الحج- على أن يسبب لهم ضيقاً؛ سيصدر أسقف ناحيته قراراً بالحرمان ضده، ويظل فرَّاراً مسلّطاً عليه عند الجميع حتى ترد المسروقات، ويقدم التعويض الملائم عن الأشياء المفقودة، كما أن الأساقفة والقساوسة الذين لا يقفون موقفاً صلباً ضد أمثال هذه الأحداث سيعاقبون بحرمانهم من ممارسة مهام وظائفهم، حتى يتوبوا؛ لينالوا رحمة الكنيسة الرسولية"(٢).

وعلى الرغم من توصية قساوسة الفرنج في محاولة منهم حفظ حقوق نصارى الشام، إلا أن جيشهم اعتدوا بوحشية على الجماعات المسيحية الوطنية وصادروا ممتلكاتهم، وعاملوهم بأنهم سكاناً مضطهدين لهم؛ حيث قام أحد الفرسان الصليبيين بالاستيلاء على أراضي اليعاقبة(٣)، واغتصبها منهم، وظل يبسط سيادته عليها مدة جيل كامل من التقاضي أمام المحكمة، إلى أن تم إعادة هذه الأراضي إلى أصحابها من اليعاقبة، وهذا الاسترداد لم يتم بموجب حكم قضائي؛ بل جاء من خلال تدخل وساطة الملكة الصليبية- مليسندا Melissand- ابنة الأميرة مورفيا(٤).

عانى نصارى طرابلس من حصار الفرنج لهم، وراح بلدوين يطبق الطوق على الناس من جميع الجهات، وحينها فقد الأهالي الأمل برفع الضيق عنهم، ثم توصلوا إلى اتفاقية مع الفرنج، وصادق بلدوين وأقسم عليها، ونصت على أن لا يقتلوا الأهالي، وبذلك دخل جيش الفرنج البلد، وعندها تسلق أهل جنوى الأسوار بالحبال، واقتحموا المدينة، وقطعوا رأس أي شرقي

---

(١) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٢٦٥).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج١/١٠٥).

(٣) اليعاقبة: قوم من نصارى الشام ومصر، وينسبون ليعقوب البردعاني الأنطاكي كان يعمل البرادع جمع بردعة. الشافعي، مختصر فتح رب الأرباب(ص٦٩).

(٤) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٢٦٨-٢٦٩).

صادفوه مسلم، أو نصراني كان أو يهودي[١].

وعندما تقدم الصليبيون نحو عسقلان؛ وجدوا قرى عربية قد هجرها أهلها ومعهم دوابهم وممتلكاتهم، واختبأوا في الكهوف خوفاً من الهجوم الصليبي، وعندما عجز الصليبيون عن الوصول اليهم وإخراجهم؛ أشعلوا الحرائق على مداخل الكهوف؛ فخرجوا واحد تلو الآخر؛ بسبب الدخان، وكان من بينهم بعض المسيحيين السوريين مختبئين معهم، وتم قطع رؤوسهم مجرد خروجهم من الكهوف، والابقاء على حياة السوريين وزوجاتهم وقتل قرابة مئة من العرب [٢].

وأيضاً لم يكن فرسان الفرنج يتلطفون مع طائفة الأرمن[٣]؛ وإنما كانوا يعاملونهم بالاحتقار حيناً، وبالعنف أحياناً، وعلى صعيد وجهائهم فقد وجدوا أنفسهم متجاهلين ومبعدين عن مجلس قيادة الفرنج الذين اقتصروا عليه الأوروبيين فقط، ووجدوا أنفسهم مفروض عليهم دفع الضرائب للفرنج، وكما اغتصبوا منهم الضياع، والأراضي، وصارت تمنح للقادمين الجدد، وأصبح الفلاحون المواطنين من الأرمن مجبرين على العمل فيها، كما في النظام الاقطاعي الغربي المتشدد، وكلما اعترضوا على ذلك أُلقي عدد كبير من الأرمن في غياهب السجون، وصودرت أملاكهم وأموالهم[٤].

طلب الأرمن والسريان أثناء حصار أنطاكيا مغادرة البلد كل يوم، وهم متظاهرين بالفرار، وكانوا يتواجدون بين الصليبيين يومياً، ولكن بقيت نساؤهم داخل المدينة، وكانت عادتهم أن يتحققوا من أحوال الفرنج ومعرفة موقفهم، ثم ينقلون كل شيء إلى أولئك المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة وطرقها، فلما ألم المسلمون كل الإلمام بكل أخبار الصليبيين شرعوا يغادرون المدينة، ومضوا يحاصرون بالفرنج، ونصبوا لهم الكمائن في كل الجهات براً وبحراً[٥].

يبدو أن خوف ياغي سيان– حاكم أنطاكية– من النصارى الذين بها، الأمر الذي دفعه إلى إخراج المسلمين لوحدهم، ليس معهم غيرهم، وأمرهم بحفر الخندق، وثاني يوم أخرج النصارى لعمل الخندق أيضاً، ليس معهم مسلم، فاشتغلوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا الرجوع

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة(ص١٤٥).

(٢) المصدر السابق(ص٨٢).

(٣) الأرمن وهي طائفة من الروم " النصارى" سكنت بلاد الشام. السمعاني، الأنساب(ج١/١٧٢).

(٤) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٣١).

(٥) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة(ص٥٠).

إلى البلد منعهم، وقال لهم: " أنطاكية لكم تهبونها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج، فقالوا له: من يحفظ أبناءنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم" وظلوا مقيمين في جيش الفرنج، فحصروها تسعة أشهر، وحفظ ياغي سيان عائلات نصارى أنطاكية الذين أخرجهم[١]، وبعد استيلاء الفرنج على أنطاكية أخرج صنجيل من البلد بقية الصليبيين والأرمن الذين في طاعتهم من النصارى، وانضموا إليه، ووصلوا إلى معرة النعمان[٢].

لم يكن عدد نصارى العرب بالهين عند هجوم الصليبيون على أنطاكية، بل كان يوجد داخل أسوارها أربعة جبال ضخمة، وكانت تحتوي عدد كبير من الكنائس، التي تكاد تبلغ ثلاثمائة كنيسة، وضمت ستين ديراً يشرف بطركها على مائة وثلاثة وخمسين أسقفاً[٣]، وكان سكان انطاكية مرتاحين في بيوتهم خرجوا راكضين إلى الأسوار، وحرق الفرنج بأمر من بوهيمند عمارات شامخة وقصور فخمة، يسكنها نصارى، وكنائس مشهورة مصممة على الطريقة اليونانية[٤].

لذلك يصف الفيتري طائفة السريان الذين سكنوا مدينة صور اللبنانية، أو في سوريا ويدعون سوريان، بأنهم في معظم الأوقات غير جديرين بالثقة، ومنافقين، وثعالب ماكرين، وكذابين، ومرتدين، ومحبين لإحراز الثروة، وخونة، ويصبحون جواسيس مقابل مبلغ حقير من المال، ويخبرون جميع أسرار المسيحيين إلى المسلمين، ويتحدثون بلغتهم، كما يقلدونهم، وخالطوا الأمم الوثنية، وتعلموا أعمالهم، وستروا نساءهم تبعاً للمسلمين، وأجبروهم على ارتداء الملابس هن وبناتهن؛ بحيث لا يمكن رؤيتهن، وهم يعفون لحاهم كما يفعل المسلمون، واليونان ومعظم الشرقيين، جاعلين اللحية علامة الرجولة والشرف للوجه[٥]، ويقول الفيتري:" ومن المؤسف أن اليونان والسريان لا يفهمون العقيدة التي أعدت في مجمع نيقيا من قبل الآباء القديسين"[٦].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤١٧).

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب(ص ٢٤٤).

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١٠٣).

(٤) مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة(ص١٢٠).

(٥) تاريخ بيت المقدس(ص١٠٩).

(٦) المصدر السابق(ص١١٢).

ويجدر الذكر أن الصليبيون مروا بأيام عصيبة في الشام، ولم يجدوا فيها قوتهم، وكان الأرمن والسريان يرونهم عائدين من الجبال والمزارع صفر اليدين، وراحوا يفتشون تفتيشاً دقيقاً، ويشترون الحنطة والأطعمة ويرسلونها إلى المعسكر الذي فيه المجاعة، فصاروا يبيعون حمولة الحمار بثماني بوبرات، أي ما يعادل مائة وعشرين جنيه، فمات الكثير من رجال الفرنج الذين عجزوا عن دفع ذلك الثمن الغالي[١]، ويبدو هذا بسبب اتساع الفجوة في العلاقة بين أتباع الكنيستين الغربية والشرقية.

ولما احتل الفرنج بلدة روحة الواقعة على نهر العاصي، وعلى بعد ثلاثين ميلاً من أنطاكية، أعادوا تسكين المسيحيين فيها، وحولوا المسجد إلى كنيسة، وعين ريموند القس بطرس أوف ناربون أسقفاً للمدينة مما أدخل البهجة على جيشها، وقد تم هذا التعيين لأنه لم تكن توجد أسقفية أرثوذكسية رسمية في المدينة، وعلى الرغم من حدوث الصدع الكبير بين الكنيستين اليونانية واللاتينية أدى إلى ازدواجية الأسقفية، كما شجع بطرس بارثولوميو على الاقرار باستبدال رجال الكنيسة اليونانية المحليين بغيرهم من اللاتينيين[٢].

ولذلك صارت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أكثر الكنائس تأثراً بالغزو الصليبي لبلاد الشام، ففي المدن الشمالية من الشام كان يوجد عدد كبير من أتباع المذهب الأرثوذكس، ويعود هؤلاء إلى البيزنطيين، ومن أنصار الكنيسة البيزنطية جماعة السوريان، وكانت أوضاع كنيستهم قوية، إذ كان لها أملاكاً كثيرة في ظل الحكم الاسلامي، وتدخلت في المنازعات والمناقشات الخطيرة الخاصة بسياسة أمراء المسلمين، وسرعان ما تغير حالها مع الغزو الصليبي للشام، وذلك بسبب سوء العلاقات بين الصليبيين وبين الامبراطور البيزنطي، بالإضافة إلى الاختلافات المذهبية الدينية بين الفرنج والبيزنطيين[٣].

أصدر قساوسة الكنيسة الغربية مرسوم حرمان كنسي لطائفة اليعاقبة الذين ينسبون إلى معلمهم يعقوب، وهو تابع لأحد بطاركة الاسكندرية، ويتبعون لمذهب القديس متي الحواري، ويعيشون بين المسلمين، وكانوا يختتون أطفالهم مثل عادات المسلمين، لعدم ايمانهم أن فضل

---

(١) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة(ص٥٤-٥٥).

(٢) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٤).

(٣) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص٢٦٦).

عملية التعميد جعلت عملية الختان باطلة[1] ويظهر من ذلك صورة واضحة تدلل على مدى التنافر العقائدي بين الفرنج ونصارى الشام، وإرادة الصليبيون في فرض ما يومنون به على أهل البلاد.

ومن أشكال اضطهاد الفرنج لرهبان الأرثوذكس، هو عندما أخفى هؤلاء صليب الصلبوت في القدس وهي تحت الحكم الفاطمي، ولما استقر أرنولف الصليبي في الحكم، سعى إلى تحديد مكان الصليب، وأخفوا عليه ذلك إلى حد أنهم أقسموا بعدم معرفتهم شيئاً، وبعدما أجبرهم قالوا: " أن الوحي يقول أنكم شعب الله المختار، وأنكم تخلصتم من المحن، وأعطيت لكم بيت المقدس، ومدناً أخرى كثيرة، ليس بقوتكم الكبيرة، بل من رب غاضب على أهل الكفر، والذي منح قائدكم أبواب المدن التي لا يمكن اختراقها، وكسب لكم معارك رهيبة، وإذا كان الرب في جانبكم، فلماذا نصر على أن نخفي آثاره عنكم؟ "، ثم أخبروا في قيادة الصليبيين في قاعة في الكنيسة، ونقبوا عن الصليب وسلموه[2]، وحرم الفرنج فيها المذهب الأرثوذكسي من تولي أي من مناصب الحكم، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية، والمطران الإيطالي والحكم البابوي[3].

وعين الفرنج بطريرك جديد على كنائس القدس، ليعمل بتوازن مع المذاهب المختلفة، وحتى لا يقحم نفسه في مشاكل مع جودفري، حيث اقتصر نشاطه على المسائل الكنسية، وركز على إضفاء صبغة لاتينية، فزود كنيسة القيامة بأجراس لإعلان مواعيد الصلاة وهو الأمر الذي كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين في بيت المقدس، واستبعد قساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة، مما أثار استياء نصارى بيت المقدس[4].

وعلى إثر احتداد الخلاف الطائفي بين فرنج أوروبا ونصارى الشام، كان لأديمار أسقف لوبوي دور سياسي مهم في ايجاد تفاهم مرضي مع المسيحيين الشرقيين، سواء مع بيزنطة أو مع كنائس سوريا الأرثوذكسية، واستحوذ على ثقة البابا أوربان الذي عرف آراءه، وساعده في

---

(١) الفيتري، تاريخ بيت المقدس(ص١١٥).

(٢) ريموند اجيل ، تاريخ الفرنجة(ص٢٥٩).

(٣) ديورانت، قصة الحضارة(ج١٥/٢٦).

(4) Runciman: op. cit. I,(p.294).

كبح التعصب الافرنجي العنصري والديني[1]، وفيما يشار إليه بالعدائية إلى الطوائف المسيحية الوطنية التي اتهمت بأنها طوائف هرطقية[2].

ويعرب الشارتري عن ما يكنه ضمير الصليبيين اتجاه النصارى من العرب بقوله:" ذهب رجال الكهنوت والعامة إلى كنيسة القيامة وإلى هيكل الرب المجيد مبتهجين كما كانوا يتمنون، من أعماق قلوب كل المؤمنين بالديانة الكاثوليكية، التي كانت تعمل الرغبة بأن المكان الذي اختاره عيسى، إن هذا المكان سيعاد إلى جلاله الأزلي، على أيدي أولئك الذين آمنوا ووثقوا به"[3].

أما تنظيم المملكة وقوانينها فكانت تضعها المحاكم العليا في مدينة بيت المقدس، والتي سيطر عليها نفوذ الحكم الاقطاعي، والتي حثت بموجبها امتلاك الأشراف جميع الأراضي، وأنزلوا ملاكها السابقين– سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين– منزلة أرقاء الأرض، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذ في أوربا، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى عدل حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التي مرت بحياتهم في هذه البلاد[4].

وشهد شاهد من أهلهم، عندما كتب بطرك بيت المقدس رسالة خاصة إلى زميله بطرك القسطنطينية، وجاء في هذه الرسالة بالنص القطعي:" إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أي أذي أو تعنت"، ويعلق أحد الكتاب الغربيين المحدثين على ذلك، بقوله: " إن الحق يتطلب منا أن نعترف بأن النصارى عاشوا في كنف الدولة الإسلامية أسعد حالاً بكثير، مما كانت عليه بعض الطوائف النصرانية التي عاشت في كنف الدولة البيزنطية ذاتها[5]؛ لأنهم كانوا يمارسون شعائرهم الدينية بلا عائق، ولكنهم أخذوا يواجهون انعدام الصبر عند رجال الدين

(١) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٨٨).

(٢) المصدر السابق(ج١/٣٩٣).

(٣) تاريخ الحملة(ص٧٦).

(٤) ديورانت، قصة الحضارة(ج١٥/٢٧).

(٥) عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية(ص١٧).

الكاثوليك، الذين اعتبروا جميع غير الكاثوليك أنصاف هراطقة، مما أدى إلى تراكم الأعباء الطائفية[1].

وبعدما حرر المسلمون بيت المقدس؛ عرض السلطان صلاح الدين على أهل بيت المقدس أن تكون لهم الحرية الكاملة في تحصينها، وأن يعمروا الأرض ويزرعوا ما حولها، إلى ما بعد أسوارها بخمسة عشر ميلاً دون أن يقف أحداً في سبيلهم، وتعهد أن يحافظ على أرواح النصارى وأموالهم[2].

ثانياً: موقف الصليبيين من اليهود في الشام

الحقيقة الراسخة لعقيدة المسلمين فيما يتعلق بأمر الصلب، أن الذي صلبوه هو الشبيه للنبي عيسى–عليه السلام–كما جاء في القرآن الكريم يذم به اليهود، كما قال سبحانه وتعالى: **{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}**[3].

وقال الشاعر:

أَن الَّذِي عادى الْيَهُود ابْن مَرْيَم ... رَسُول أَتَى من عِنْد ذِي الْعَرْش مُرْسل[4].

ولكن الصليبيون الذين غزو بلاد الشام ظلوا حاملين في قلوبهم عداوة خاصة لليهود، وتلك الأحقاد لها جذور تاريخية وعقائدية، لعلمهم أن اليهود هم السبب في صلب النبي عيسى– عليه الصلاة السلام– كما جاء في إنجيلهم المقدس: " فَأَجَابَ بِيلاَطُسُ أَيْضًا وَقَالَ لَهُمْ: فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ بِالَّذِي تَدْعُونَهُ مَلِكَ الْيَهُودِ؟ فَصَرَخُوا أَيْضًا: اصْلِبْهُ، فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: وَأَيَّ شَرّ

---

(١) زابوروف، الصليبيون في الشرق(ص١٣٣).

(٢) ديورانت، قصة الحضارة (ج١٥/٣٧).

(٣) سورة النساء: [١٥٧].

(٤) ابن بشر، كتاب الأصنام(ص٤٤).

عَمِلَ؟ فَازْدَادُوا جِدًّا صُرَاخًا: اصْلِبْهُ، وَأَسْلَمَ يَسُوعَ، بَعْدَمَا جَلَدَهُ، لِيُصْلَبَ[١]، أَجَابَهُ الْيَهُودُ: : لَنَا نَامُوسٌ، وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ، لأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ الله"[٢].

ولهذا كان اليهود في بيت المقدس عرضة لسيوف الصليبيين، انتقاماً منهم لما تسببوا به في رأيهم، وعبر ريموند أجيل عن موقف الصليبيين من اليهود بقوله: " ثم سألت ماذا تفعل بالمتشككين؟ فأجاب الرب: لا تظهر لهم أي رحمة، أقتلوهم إنهم خانوني- أخوة يهوذا الإسخريوطي- أعطوا ممتلكاتهم الدنيوية لأول صف وفقاً لاحتياجاتهم.. فقال الرب : إنني أحمل الكراهية للجنس اليهودي وأضعهم مع أحط الأجناس، لذلك تأكدوا من أنكم لستم كفاراً ، وإلا ستكونون مع اليهود وسوف أختار شعباً آخر وأحقق لهم وعودي التي وعدتكم بها"[٣]، ولهذا قتل الصليبيون اليهود في بيت المقدس لحملهم عليهم بالكراهية لهم، وصنفوهم بأنهم كافرين[٤] وقال الفرنج في فرنسا :" إننا نذهب إلى بلد بعيد لنحارب ملوكاً أقوياء، ونعرض حياتنا للخطر لنغزو ممالك لا تؤمن بالمسيح في حين أن اليهود قتلوه وصلبوه"[٥].

لما أمر الحاكم الفاطمي- افتخار الدولة- السكان النصارى كلهم من الأرثوذكس بالبقاء خارج الأسوار، سمح لليهود بالبقاء داخلها، وكانت خطوة تتصف بالحكمة، وكان يوجد في القدس ألوف النصارى، عديمي الفائدة كمقاتلين، كان طردهم يعني تقليل عدد الافواه التي تطلب الطعام أثناء الحصار[٦]. يبدو أن افتخار الدولة كان يعلم بمدى كراهية الصليبيين لليهود، لذلك جعلهم في الجبهة الداخلية مع المسلمين.

وعندما اقتحم الصليبيون بيت المقدس، هرب يهود القدس في حشد واحد إلى كنيسهم الرئيس، لكن الصليبيون لم يظهروا اتجاههم أي رحمة، واشعلوا النيران في المبنى، واحترق

---

(١) مرقس١٥: ١٢-١٥.

(٢) يوحنا(١٩: ٧).

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة(ص١٩٩).

(4) August, The first crusade (p272).

(٥) جوناثان، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية(ص١٠٥).

(٦) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج٤٢٧/١).

اليهود كلهم بداخله، وأفرغ الصليبيون القدس من سكانها المسلمين واليهود، وأصيب كثيرون وحتى المسيحيون بالهلع مما جرى[١].

ارتكب الفرنج مذبحة بحق اليهود في بيت المقدس عندما تجمعوا في كنيس لهم، وجاءهم الصليبيون وحرقوهم فيه[٢]، وكشف المؤرخون عن أحد أسباب حرق اليهود في الكنيس بقولهم بأنهم هربوا في حشد واحد إلى كنيسهم الرئيس، لكن الصليبيون اعتبروا أنهم قدموا المساعدة للمسلمين، فلم يظهروا تجاههم أيه رحمة، وأشعلوا النيران في المبنى، واحترق اليهود كلهم بداخله[٣].

ولما بلغ الفرنج ساحة هيكل سليمان جرت فيها مذبحة هائلة، حيث كان الصليبيون يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى، ولقد فاض المعبد كله بدماء المسلمين، ولما غلب الفرنج وسيطروا، عثروا في المعبد على فئة كبيرة من الرجال والنساء، أثخنوا فيهم القتل وأبقوا على الذين أحسنوا فيهم الظن، ولجأوا إلى الناحية العليا من معبد سليمان فريق كثيف من كلا الجنسين للمسلمين، ورفعوا بسبب الخوف أعلام تنكريد وجاستون بيرن، واشتد السرور بجنود الفرنج حتى بكوا من فرحتهم، وفي صباح اليوم التالي تسلقوا سطح الهيكل وهجموا على المقدسيين رجالاً ونساء، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد[٤].

وأما عن أصناف اليهود في بلاد الشام فكانت متعددة، منهم العانانية، والأشمعيثية، والجالوتية، والفيومية، والسامرية، والعكبرية، والأصبهانية، والعراقية، والمغاربة، والشرستانية، والفلسطينية، والمالكية، والربانية وأما يهود فلسطين فإنهم يزعمون أن عزيراً ابن الله، على جهة التكرمة والرحمة، كما يقال إبراهيم خليل الله، وكثير من اليهود ينكرون هذا القول[٥].

---

(١) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٤٣٥).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٢).

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة(ج٥/ص١٥٠)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء(ج١/٣٠٤)؛ رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٤٣٥).

(٤) المؤلف المجهول، تاريخ الفرنجو وحجاج بيت المقدس(ص١١٩-١٢١).

(٥) المقدسي، البدء والتاريخ(ج٤/٣٤-٣٥).

ضايق الفرنج على اليهود أثناء تعبدهم، حيث أنهم حولوا كنيسهم اليهودي، الذي كان أيام حكم المسلمين لهم، وعندما جاء الغزاة غيروه إلى كنيسة نصرانية، وجعلوها للصليبيين، وأطلقوا عليها اسم: "كنيسة القديس إبراهيم"، وفي هذه الكنيسة ستة قبور، يقول النصارى: إنها أضرحة إبراهيم وسارة ويعقوب وليئة، يحجها اليهود للتبرك لقاء إتاوة يؤدونها، فإذا جاء يهودي دفع المال إلى الحارس القائم على القبور[١].

بعدما لقب الفرنج جودفري بحامي الضريح المقدس، أصدر مرسوم رسمي لإبعاد اليهود نهائياً، ومنعهم من الإقامة في المدينة، لاعتقاده أن وجودهم سوف يدنس قداسة المكان، وصارت الأحياء تتبع الأكثرية الأوروبية، ومن بقي من اليهود فإنهم كانوا يدفعون لهم الإتاوة[٢]، أما عن السبب الرئيس لمنعهم إسكان واليهود وإقامتهم في المدينة المقدسة، إذ اعتبروهم إنهم أولئك هم الذين رفضوا المسيح، في المكان الذي شهد معاناته وصلبه، وإبقاؤهم يعد تدنيس للمدينة المقدسة، وانتهاك حرمتها[٣].

وأرسل قادة معركة أنطاكية الصلبيين رسالة إلى بابا روما رسالة كتب فيها: " من بيهمند والكونت روبيرت النورماندي، والكونت روبيرت فلاندرز، والكونت يوستاس بوبون، إننا نرغب ونتمنى أن نحيطكم علماً، بأننا برحمة الله الوافرة وبمعونته الجليلة أخذنا مدينة أنطاكية، وأن الأتراك(المسلمين) الذين لطخوا بالعار سيدنا عيسى-عليه السلام- قد انهزموا وقتلوا، وإننا كحجاج يسوع المسيح إلى القدس، قد انتقمنا لجراح الرب القدير"[٤]، ويبدو أنه توافق رأي قيادة جنود الفرنج على نجاح مهمتهم العسكرية، في الانتقام لمن صلب عيسى حسب اعتقادهم من المسلمين واليهود على حد سواء.

وأثناء رحلة بنيامين في بلاد الشام، لا يكاد يجد يهوداً في مناطق الوجود الصليبي، إلا الطائفة السّامرية في طرابلس، وهذه الطائفة لم يكن اليهود يعترفون بهم كيهود، وإنما ينظرون إليهم أنهم أصحاب دين مستقل هو الدين السامري، التوراة عندهم تختلف عنهم، والتلمود لا يقيم له

---

(١) بنيامين التطيلي، الرحلة(٢٥٧/١).

(٢) ديورَانت، قصة الحضارة(ج١٥/٢٧)؛ حسين، التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية(ص٥٩).

(٣) براور، عالم الصليبيين(ص٤٩).

(٤) الشارتري، تاريخ الحملة(ص٦٤).

السامريون وزنا، وبنيامين لا ينظر إليهم بود، فليس بمستبعد أن يكون الصليبيون قد وضعوا ذلك في الاعتبار، لذا شاهد أكبر تجمع يهودي في البلاد التي كان فيها وجود صليبي هو التجمع السامري في نابلس[١].

ونتج عن اضطهاد الصليبيين لليهود في فلسطين، عدم استقرارهم في البلاد، كان عددهم ضئيلاً جداً، سكنوا نابلس من طائفة الكوتيين (السامريين) الذين يتبعون أسفار موسى ولا يؤمنون بغيرها، ويرفضون التلمود وغيره، وهم لا يتزوجون من غير بنات جماعتهم ولا يختلطون مع اليهود الآخرين، ويقول بنيامين مؤكداً أنهم غرباء عن بني إسرائيل، وكانوا يبالغون في الطهارة، وإذا قصدوا الصلاة خلعوا ثيابهم، واغتسلوا بالماء واستبدلوها بثياب غيرها [٢].

وفي إحصائية سكان فلسطين، قدرت نسبة المسلمون وقت سقوط القدس بيد الصليبيين خمسون بالمائة من سكان هذه المدينة، بينما المسيحيون يؤلفون أربعين بالمائة أو أقل قليلاً، واليهود العدد الباقي، وقد قضي على السكان المسلمين واليهود فيها، مما أدى إلى جعل سكانها كلهم من النصارى[٣]، ويبدو أن قلة عدد اليهود في البلاد دليل على عدم استقرارهم، وهروبهم من الاضطهاد والقتل الفرنجي والملاحقة لكل منهم.

---

(١) بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي(ص٤٥).

(٢) المصدر السابق(١/٥٠).

(٣) برجاوي، الحروب الصليبية(ص١٧٤).

الفصل الرابع

آثار الانتهاكات الصليبية في بلاد الشام

الفصل الرابع: آثار الانتهاكات الصليبية في بلاد الشام

المبحث الأول: أثر الانتهاكات الصليبية على حكام المسلمين

إن للمسلم على المسلم حقوقاً في الإسلام، ومنها نصرته إذا ما احتاج إليه وطلب منه المساندة، وبين النبي- صلى الله عليه وسلم- مدى ترابط مصالح المسلمين مع بعضها، في قوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1].

لقد حاول أمراء الشام الوقوف في وجه الخطر المحدق في البلاد، وكان لأثر احتلال الفرنج معرّة النعمان وأنطاكية في إحداث وقع جلل على المسلمين، ولهذا اجتمع ملوك الإسلام بالشام، وهم حكام حلب والموصل وماردين[2] وسنجار[3]، ولم ينهض الأفضل بإخراج جيش مصر في الحال، فاجتمع الجميع ونازلوا أنطاكية وحاصروا الفرنج حتّى أكل الفرنج ورق الشجر، وكان صنجيل بمكره قد رتب مع راهب حيلة وقال: اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا، ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربة مدفونة فأخرجوها، فإن وجدتموها فالظّفر لكم، وهى حربتي، فصاموا ثلاثة أيام وتصدقوا، ثم قام وهم معه إلى المكان ففتشوه فظهرت الحربة، فصاحوا وخرجوا إلى المسلمين، وقاتلوهم حتى دفعوهم عن البلد[4].

يبدو أن الفرنج قد شعروا بالهزيمة وهم محاصرين من جيوش المسلمين في أنطاكية، فلم يجد قسيسهم أمامهم سوى اللجوء إلى الوازع الديني لدى جيشهم، فزعم الكثير منهم رؤى متعددة

---

(١) البخاري، صحيح البخاري: (٦٠١١)؛ النيسابوري، صحيح مسلم: (٢٥٨٦).

(٢) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وذلك الفضاء الواسع وأمامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس، ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الأخرى، وعندهم عيون قليلة الماء، وجل شربهم من صهاريج معدة في دورهم. ياقوت، معجم البلدان(ج٥/٣٩).

(٣) سنجار: وكانت لمعين الدين، وهي عن يمين الطريق إلى الموصل، وتقع بقرب جبل ينسب إلى سنجار، وبها نخيل. الاصطخري، المسالك والممالك(ص٥٣)، ابن جبير، الرحلة(ص١٩٢).

(٤) ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/١٤٧).

ليثيروا الحماسة لديهم، ولكن الجيش صدق أمر الحربة المدفونة مسبقاً بأيديهم، وزعموا بأنها مهداة لهم من السيد المسيح[١].

وتوجه الأمير ياغي سيان-أمير أنطاكية- والأمير سقمان بن أرتق، والأمير كربوقا[٢] في جيوشهم إلى أنطاكية وقد وردت الأخبار بقرب الافرنج منها، وأرسل ياغي سيان ابنه إلى دمشق للملك دقاق، وإلى جناح الدولة بحمص، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث بسرعة إلى الجهاد وقصد تحصين أنطاكية وإخراج النصارى منها[٣].

وتقدمت قوات الأتراك بقياد كربوقا لمحاربة الفرنج، وأبدوا بأساً شديداً في قتال المعتدين، حتى أن الفرنج هربوا من باب أنطاكية الضيق، ومات الكثير منهم مخنوقين تحت أقدام رفاقهم، ولقد بلغ شدة حصارهم أن أكلوا الخيول والحمير[٤].

تواصلت دعوات أهالي بلاد الشام في طلب النجدات والإغاثات من حكام المسلمين في المدن المجاورة، لما أصابتهم النكبات من جرائم الصليبيين[٥]، ويوصف الصوري عن أحداث صور، بأن نفوس أهلها في تلك الأثناء قد كلت، وأنهكهم ما يلاقونه من الهجمات المتكررة، والغارات المستمرة، ولهذا قرروا أن يكاتبوا إلى خليفة مصر، وكذلك بعثوا إلى حاكم دمشق يخبرونهما بالوضع البالغ السوء الذي يعيشون فيه، وسألوهما وألحوا في السؤال إلى أن يبادروا في نجدتهم، وأنه بلغ السيل الزبى في صور، ووصلت الأمور إلى اليأس، وأوضحوا لهما مدى إجرام العدو وعناده، وقوة جيشه، وازدياد امداداته يوماً بعد يوم، وكما وصفوا لهما ما ابتلوا به من الضعف ونقص الطعام، ووضحوا لهما موقفهم الذي لا قدرة لأحد على احتماله، وأدت هذه الخطوة إلى رفع روحهم المعنوية بعض الشيء، وهم في انتظار النجدة المرجوة[٦].

---

(١) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس(ص١٩٧).

(٢) كربوقا: حاكم مدينة الموصل مات في سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م). ابن شداد، الأعلاق الخطيرة(ص١٣٧)؛ ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٧).

(٣) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢١٨).

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة(ص٧٩-٨٠).

(٥) أبى شامة، الروضتين(ج١/٢٨٩).

(٦) الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/٣٢-٣٣).

وعلى أثر استصراخات أهالي صور من جرائم الفرنج بحقهم، لبى حاكم دمشق نداءهم، وجاء بالنجدة ليحبط مخططات بلدوين، حيث توجه بالمجاهدين إلى بانياس، وبث سراياه والمقاتلين في المناطق التي تقع تحت سيطرة الفرنج، وأغار على حصونهم ومعسكراتهم، وهجم على مواقعهم في صيدا وأحرق عشرين مركباً من مراكب الفرنج[١].

وعندما سار بلدوين إلى البيت المقدس بجيشه المكون من خمسمائة فارس وراجل، فبلغ الملك دقاق، صاحب دمشق، خبره، فنهض إليه في جيشه، ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه، فقاتله، فنصره الله على الفرنج[٢].

وصل نبأ لأهل صور بأن ملك دمشق – طغتكين– قد حركته رسائل المحاصرين فيها، وغادر دمشق على رأس جيش كبير من الأتراك، وكان معه عدداً كبيراً من الفرسان، وقد عسكر بهم على مقربة من صور، وتحديداً على شاطئ نهر يبعد عنها بما يقرب أربعة أميال، وكما راجت الشائعة أنه سيصل إليهم في مدى ثلاثة أيام أسطول مصري، أكبر مما جرت به العادة ومعه الإمدادات من الرجال والمساعدات اللازمة لأهل صور[٣].

وكان عدد المقتولين من أهل صور أربعمائة مسلم، ومن الفرنج في الحرب أيضاً تقدير ألفي شخص، وقال ظهير الدين أتابك[٤]: إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين لا لرغبة في مال ولا مملكة، فكثر الدعاء له والشكر بحسن فعله، ووعدهم أنه متى دهمهم خطب مثل هذا سارع إليه، وبالغ في المعونة عليه، وعاد إلى دمشق بعد مكابدة المشقة في مقابلة الافرنج إلى أن فرج الله عن أهل صور[٥].

وتناقلت الأخبار الصادمة في بلاد الشام عن أحداث المعرة، ووصل صداها إلى دمشق، فحينها خرج خمسين رجلاً لنجدة إخوانهم هناك، وتفاجأوا بالجيش الصليبي المسيطر

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٦٣٩)؛ كرد، خطط الشام(ج١/ص٢٦٩).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٥٧).

(٣) الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/٣٣).

(٤) أتابك: يسمي بهذا اللقب عند السلاجقة الذي يربي أولاد الملوك، وأتابك العساكر: من صفات الأمير الأتابك ومن في معناه كالنائب الكافل ومن في رتبته. الصفدي، الوافي بالوفيات(ج١١/١٣٣)، القلقشندي، صبح الأعشى(ج٦/٣٥)

(٥) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٨٨).

حول أنطاكية وكان تعداده نحو ثلاثين ألفاً كانوا يعيثون في الأرض القتل والخراب، وفي طريقهم تم قتلهم جميعاً بسيوف الغزاة الصليبيين(١).

عقد الأميران سقمان بن أرتق(٢)، وجكرمش حاكم الموصل على توحيد صفوف جيوشهم، وتعاهدا على مجاهدة الافرنج، وبذل الطاعة والاستطاعة في حربهم، ونزلا في رأس العين، وبرز لهما بيمند وطنكري في الجيش الصليبي من جهة أنطاكية، فلما قربا من جيش المسلمين النازلين على الرها تأهب كل منهم للمعركة، فنصر الله المسلمين عليهم، وقتلوا منهم مقتلة كثيرة، وكان عددهم يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل، وهرب بيمند وطنكري في نفر يسير، وكان نصراً حسناً للمسلمين لم يتهيأ مثله(٣).

وبعيد قدوم الصليبيين على أهل حران(٤) فإنهم بعثوا بالكتب وأنفذوا الرسل إلى أمراء المسلمين، يسألونهم المبادرة إلى نجدتهم بأقصى سرعة، وإلا سيستسلمون للفرنج، غير أنهم عانوا من المجاعة، كما خاب رجاؤهم في نجدة تأتيهم من قبل الأمراء الذين استنجدوا بهم، ولذلك أخذوا يتشاورون فيما بينهم عما يفعلون، وقرروا على أن يسلموا المدينة للصليبيين، أفضل من أن يموتوا جوعاً داخل أسوار المدينة(٥)، ثم جاءت نجدات المسلمين حاملة معها كميات وفيرة من التموين، كما دل حسن إدارة أهل حران تمكنهم من وضع خطة حكيمة وهي تقسيم كتائبهم إلى فرقتين، يشتبك واحد منهما مع الصليبيين دون اكتراث لما يصدر عن هذا الاشتباك من نصر أو هزيمة، أما الفريق الآخر فيقوم بتزويد المدينة بالمؤن والاحتياجات(٦).

وعلى أثر الجرائم التي افتعلها الصليبيون الفرنج في بيت المقدس، وصل المستنفرون إلى بغداد في شهر رمضان، فاجتمع أهل بغداد في الجوامع، واستغاثوا وبكوا، وفوض الخليفةُ

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢١٩).

(٢) سكمان، ويقال: سقمان بن أرتق بن أكسب التركماني، تولى هو وأخوه إيل غازي إمرة القدس بعد أبيهما، فقصدهما الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش، وأخذه منهما، فتوجها إلى الجزيرة، وأخذا ديار بكر، ثم توفي سقمان بين طرابلس وماردين، وكان الملك رضوان قد اقطع معرة النعمان سكمان بن أرتق وأعمالها. الذهبي، تاريخ الإسلام(ج٣٤/٢٧٩)؛ ابن العديم، زبدة الحلب(ص٢٣٣).

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب(٢٣٢/١).

(٤) حران: من قرى حلب السورية. ابن شمائل، مراصد الاطلاع(ج٣٨٩/١).

(٥) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢٥٠/٢).

(٦) المصدر السابق(ج٢٥٠/٢-٢٥١).

ببغداد وهو المستظهر بالله العباسي الفقهاءَ إلى الخروج إلى البلاد؛ ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابنُ عقيل، وآخرين من أعيان الفقهاء، فساروا في الناس، فلم يفد ذلك شيئاً، ووقعت الخلافات بين حكام السلاجقة، فتمكن الفرنجُ من البلاد، واستاء المسلمون في سائر بلاد الإسلام لذلك(١).

واضطر حاكم طرابلس الشيعي- فخر الدين الملك بن عمار- للجوء إلى الاستغاثة من السلطان السني وذلك بعدما نفذ صبره، وحضر يأسه من تكوين أي حلف يسانده في بلاد الشام، وانقطع أمله من كثرة رسائله للسلطان دونما استجابة(٢)، وهذا ما ذكره ابن القلانسي في تاريخه أنه: " تتابعت المكاتبات إلى السلطان- غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه(٣)، من ظهير الدين أتابك، وفخر الملك بن عمار حاكم طرابلس، بهول انتهاكات الإفرنج وإفسادهم في البلاد، وسيطرتهم على المعاقل والحصون في بلاد الشام، والفتك في المسلمين ومضايقة مدينة طرابلس، والاستغاثة إليه والاستصراخ وحض الناس على حشد المعونات، فاختار السلطان الأمير جاولي سقاوه، وأميراً من قادة جيشه، لترأس جيشاً كبيراً من المسلمين السلاجقة، وكتب إلى بغداد، وإلى الأمير سيف الدولة صدقة بن مزيد، وإلي جكرمش- حاكم الموصل- بدعمه بالمال والرجال وتقويته على الجهاد"(٤).

وردت مكاتبات فخر الملك بن عمار -صاحب طرابلس- يلتمس فيها المعونة على دفع الصليبيين عن طرابلس ويستصرخ بالجيش الدمشقي ويستغيث بهم، فأجيب إلى ما طلب، حيث توجهت الجيوش نحوه، وقد استدعى الأمير جناح الدولة- صاحب حمص- لمساندته، فوصل أيضاً في عسكره"(٥).

---

(١) العليمي، التاريخ المعتبر في أنباء من غبر(ج٢/٣٠).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٧٣).

(٣) غياث الدنيا والدين أبى شجاع، محمد بن ملك شاه، لما توفى أبوه في(٥١١هـ/١١١٧م) بأصفهان جلس على سرير الملك، واجتمع إليه جيش ضخم من العراق والجبال والشام. انظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء(ص٢١١).

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٥٠).

(٥) المصدر السابق(ج١/٢٢٨).

حاصر صنجيل مدينة طرابلس، وكانت المعونات تأتيها، وبها فخر الملك بن عمار، والذي كان يرسل أصحابه في المراكب ويغيرون على البلاد التي احتلها الفرنج، ويقتلون من وجدوا، حيث قصد بذلك تقليل المواد عند الفرنج ليرحلوا عنها"[١]، وقد نادى أهل طرابلس بشعار الدولة، عند خروج فخر الملك منها وقصده بغداد لطلب النجدة، لما اشتد حصار الفرنج لها، وارتفعت الأسعار بها، فلما سمع الأفضل أن أهل المدينة نادوا بشعاره، أرسل إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب وقائد الأسطول، وأمره بأخذ المراكب التي على دمياط وعسقلان وصور معه إلى طرابلس نصرة للمسلمين[٢].

ظهر الفتور في موقف الفاطميين في مصر من جرائم الفرنج، ربما لأنهم لم يدركوا خطورة هذا العدوان على المسلمين، أو أنهم انتظروا هزيمة الأتراك على يد الفرنج، حيث يورد في صدد هذا الموقف ابن الأثير في تاريخه:" إن أصحاب مصر من العلويين، لما رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول أقسيس إلى مصر وحصرها؛ خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين"[٣].

واتجهت ردود أفعال حكام المسلمين على تجهيز الحملات، ومنها محاولة الأفضل الانتقام من الصليبيين لأنهم احتلوا بيت المقدس، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، وحيفا، وطبرية، واللاذقية، وأنطاكية، والرها، وسروج، وأرسل جيشه وهُزم، ثم أرسل الأفضل بعده ابنه شرف المعالي في قيادة جيش كبير، فالتقوا هم والفرنج في يازور[٤] قرب الرملة، فانهزم الفرنج، وقتل الكثير من جنودهم، فلما رأى بلدوين شدة الأمر، وخاف من القتل والأسر، ألقى بنفسه في الحشيش واختفى فيه، ونزل شرف المعالي بن الأفضل على قصر بالرملة، وبه سبعمائة من

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٤/٣٩٠).

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٢)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة (ج٥/١٧٠).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤١٦).

(٤) بلدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين في الشام، ينسب إليها وزير المصريين الملقب بقاضي القضاة أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري، وأحمد بن محمد بن بكر الرملي أبو بكر القاضي اليازوري الفقيه. ياقوت، معجم البلدان(ج٥/٤٢٥).

نخبة الفرنج، ومنهم بلدوين، وقاتلهم خلال خمسة عشر يوماً، وغلب عليهم فقتل منهم أربعمائة شخص وأسر ثلاثمائة وقادهم إلى معتقلات مصر[١].

حشد خليفة مصر – الفاطمي– جيوشه من كل البلاد الخاضعة لسلطانه، وشكل منهم جيشاً كبيراً، ذلك لأنه غضب أشد الغضب أن يجيئ شعب الفرنج الهمجي من أقصى بقاع العالم ليغزو مملكته، ويستولى عنوة على إحدى الولايات الخاضعة له في فلسطين، فاستدعى إليه الأفضل أمير جيوشه[٢].

ووصل الأفضل إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج رسالة توبيخ على جرائمهم، وتتبعوا أثر الرسل فصدفوه على غرة وأوقعوا بجيشه قتلى كثيرين، وهرب منهم بقلة من أصحابه فتحصنوا بعسقلان، بين أشجار الجميز، فأضرم الفرنج فيها النار حتى احترقت بمن تعلق فيها، وقتلوا أشخاص كثيرين، ونهبوا من أموال المسلمين ما عظم قدره، ولا يمكن لكثرته أن يقدر بثمن[٣].

وخرج من مصر عسكر كثيف مع الأمير سعد الدولة المعروف بالقوامسي، ووصل إلى عسقلان لقتال الإفرنج، ورحل عن عسقلان ولقيه منهم ألف فارس، وعشرة آلاف راجل، والتحم الفريقان فكسرت ميمنة المسلمين وميسرتهم، وبقي سعد الدولة المقدم في نفر يسير من عسكره في القلب فهجم عليه الإفرنج، ونادى بالثبات فعاجله القضاء فقتلوه، وعاد المسلمون على الإفرنج في جولة جديدة، وبذلوا النفوس في هذه الكرة، ولاحقوا الغزاة إلى يافا وقتلوا منهم وأسروا وغنموا[٤].

وحدث خلاف في أوساط قيادة الجيش المصري القادم لتخليص فلسطين من الصليبيين، فقالت جماعة منهم:" نقصد بيت المقدس ونتملكه"، وقالت أخرى: "نقصد يافا ونملكها"، وأثناء ذلك وصل بلدوين بجيشه إلى عسقلان، فلم يكن يقوى بحربهم، فتراجعوا إلى يافا، ثم استلم قيادة القوات البرية للمسلمين رجلاً يقال له تاج العجم، وهو من أكبر مماليك الأفضل، وجهز معه

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٩)؛ ابن الأثير، الكامل(ج٨/٤٨٩).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١٦٠).

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٢٤).

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٢٧).

أربعة آلاف فارس، وولى قيادة الأسطول البحري رجلاً يقال له القاضي ابن قادوس، فنزل الأسطول على يافا، ووصل تاج العجم على عسقلان، فأرسل إليه ابن قادوس ليتفقا على حرب الصليبيين، ثم أرسل الأفضل قائداً بدلاً من تاج العجم، لقبه جمال الملك، فأسكنه عسقلان، وجعله على رأس العساكر الشامية، وفي هذه السنة كانت غالبية مدن الشام وفلسطين بيد الفرنج، ماعدا عسقلان[1].

وعندما وصل الأفضل– قائد جيوش مصر – أمام مدينة القدس عقب المذبحة الصليبية، يائساً حزيناً، وأخذ بالبكاء ويقول: " يا إلهى، إن العين لم تبصر مثل ما جرى، ولا سمعت الأذن بمثل ما حدث، يا الله، يا من لا تغلبك قوة، ولا يماثلك بأس، ولا يضاهيك جيش قط، يا من لا تهزم أبداً أمام أية أمة، ولكنك غلبت على أمرك، بغلبة الصليبيين علينا، ما أبلغ الحزن وما أشد الأسى!، ماذا أقول وماذا أعيد؟ [2]، ردد يقول:" من الذي سمع من قبل بمثل هذه الكارثة؟ ومثل هذه القوة والجلد، هذا الجيش الذي لم يقهر من قبل أمام أحد، يهزم الآن ويقهر على يد هذا الشعب التافه الذي يمكن سحقه بقبضة يد أي شخص، وحاسرتاه ، يا له من ألم وحزن، ماذا أستطيع أن أقول أيضاً، لماذا يهزمني شعب متسول، غير مسلح، شديد البؤس والفقر"[3].

وظل الأسطول المصري مرابطاً قبالة شواطئ صور، عندما وصل بعض ملوك الإفرنج في البحر ومعهم نيف وستون مركباً محملة بالرجال، لقصد الحج والغزو في الشام، فتوجه إليهم بلدوين واجتمع معهم في بيت المقدس، وقرروا على احتلال البلاد الإسلامية، ولما رجع نزل بلدوين على صيدا وحاصرها براً وبحراً، ولم يتمكن الأسطول المصري من إنجاد صيدا[4].

وفي أثناء حصار الصليبيين لبيروت، وصل الأسطول المصري عبر المتوسط بتسعة عشر مركباً حربياً، فسيطروا على مراكب الإفرنج وأخذوا بعضها، ودخلوا بالمساعدات إلى أهالي بيروت، وقويت معنويات الناس، وعندها استنجد بلدوين بالجنوبيين، فبعثوا له أربعون مركباً، مدججة بالأسلحة إلى سواحل بيروت، واشتبكوا في القتال مع الأسطول المصري، ولم ير الفرنج

---

(١) ابن الأثير، الكامل(ج٨/٤٩٠).

(٢) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس(ص١٢٤).

(٣) توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس(ص٣٤٠).

(٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص١٧١).

أشد من هذه الحرب من قبل، وانخذل الناس في البلد، وأيقنوا بالهلاك، فهجم الغزاة على البلد آخر النهار وارتكبوا المجازر، وقتلوا الوالي مع جماعة من أصحابه، ونهبوا ماله، وعقب ذلك وصول ثلاثمائة فارس من مصر، عن طريق البر نجدةً لبيروت، وعن طريق الأردن وخرجت عليهم فرقة من الصليبيين قليلة العدد فانهزموا منهم إلى الجبال وقتل منهم جماعة[١].

وأصر الأفضل على محاربة الفرنج، وجمع جموعاً كثيرة من العرب وأنفق عليهم أموال كثيرة، وشكل جيشاً كبيراً مع ابنه شرف المعالي، وأوعز لظهير الدين أتابك حاكم دمشق، ليعاونه ويعاضده في مجاهدة الفرنج، فاعتذر بما هو مشغول به من مضايقة بصرى، لأن أرتاش بن تاج الدولة حاكم بصرى[٢]، كاتب الفرنج وأغراهم بقتال المسلمين، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، وجهز عسكراً إلى شرف المعالي لتقويته له على الفرنج، وجاء بلدوين في ثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، فاجتمعت عساكر المسلمين في عسقلان، ودارت بينهم وبين الفرنج حروب بين عسقلان ويافا، فانهزم جيش المسلمين، واستشهد فوق الالف، وقتل من الفرنج ألف ومئتان، وأسر الصليبيون زهر الدولة بن الجيوشي[٣].

وعلى أثر الحصار والدمار تفاقمت معاناة أهل حلب، تتابعت المكاتبات من أهالي الشام إلى بغداد، واستغاثوا بالسلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه وطلبوا منه خلاصهم من الفرنج، وشرحوا له ما جري من جرائم الفرنج بحقهم في الشام، وكيف فتكوا بالمسلمين وحاصروا طرابلس، ليتدارك الناس بالمعونة، وحيث حضر رجل من وجهاء أهل حلب، وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان في بغداد يوم جمعة، فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق بالمسلمين من الفرنج، من قتل الرجال وسبي النساء والأطفال ومنعهم الصلاة، ولذا طلبوا إنفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الفرنج والكفار وعادوا في الجمعة الثانية إلى جامع الخليفة، وفعلوا نفس الشيء مع كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة[٤].

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص٢٦٨-٢٦٩).

(٢) بصرى: من مدن الشام تتبع لنفوذ دمشق. ياقوت، معجم البلدان(ج١/٤٤١).

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٣٥).

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٧٦)؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص١٥٦).

ويبدو أن اختيار المستغيثين ليوم الجمعة، للتوجه إلى الله عز وجل لرفع الكرب عنهم، قال عز وجل: **{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}**(١)، ومنع الخطبة في المساجد، وكسر المنابر لدليل على حدوث ثورة عارمة واستياء شعبي على نطاق واسع، لما حدث في الشام من جرائم الصليبيين.

واستجاب السلطان -غياث الدنيا والدين محمد شاه بن ملك شاه- في استنهاض العساكر عقيب تلك الاستغاثة في بغداد، وطلب من الأمراء بالاستعداد للتحرك إلى الجهاد فتأهبوا لذلك، وكان أول من جهز نفسه منهم إلى قتال الافرنج الأمير- شرف الدين مودود بن زيد بن صدقة - أمير الموصل(٢)، في عسكره فافتتح عدة حصون بالسيف والأمان(٣) وأمر السلطان-حاكم الموصل- بغزو الصليبيين وانتزاع البلاد منهم، وأمر أمراء المدن فساروا معه ودعموه بالقوات المقاتلة، وفتحوا عدة حصون، وحاصروا الرها، فامتنعت عليهم، ثم تل باشر(٤)، وسار شمس الملوك إسماعيل بن توري -حاكم دمشق- على غفلة من الفرنج إلى حصن بانياس، فملك مدينة بانياس بالسيف، وقتل وأسر من كان بها، وحاصر قلعة بانياس وتسلمها بالأمان(٥).

وتتابعت مراسلات ظهير الدين أتابك إلى الأمير شرف الدين مودود- حاكم الموصل- يشرح له هذه الأحوال، السيئة من استمرار غارات بلدوين في مناطق نفوذ دمشق، وقطعه للطرق، مما نتج عنه شح الأغذية بها، وارتفاع الأسعار، واستدعاه على الوصول إليه للمؤازرة في دعم الجهاد، على الرغم من الخلاف بينهما صارت يده ويد أتابك يداً واحدة وآراؤهما متوافقة وأهواؤهما متطابقة(٦)، وأفضت هذه المراسلات إلى توثيق عرى المودة بينهما واتفاق الكلمة،

---

(١) سورة النمل: [٦٢].

(٢) الموصل مدينة عراقية، سمّيت الموصل موصلا لأنها وصلت بين الجزيرة والشام، ويقال سمّيت الموصل لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، وبناها محمّد بن مروان. انظر: ابن الفقيه، البلدان(ص١٧٦).

(٣) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٧٨).

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(ج٥/٢٠٣)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة(ج٥/٢٠١).

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/ص٧).

(٦) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٢٩٣).

وتعميق أسباب الألفة، فطال مقام جيش المسلمين على الرها[١].

وعندما قرر الفرنج احتلال دمشق، اجتمع منهم خلق كثير، وسار إليهم حكام الرها وتل باشر، وأنطاكية، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها، وقصورها قبل أن يصلوا إليها، وما عندهم شك في فتحها وملكها، وعسكروا في كفر طاب، فسار المسلمون عليهم فالتقوا في قتال شديد، فنصر الله سبحانه الإسلام وقتلوا جميع المحتلين[٢].

ونازل الفرنج مدينة دمشق في عشرة آلاف فارس، وستين ألف راجل، فخرج المسلمون من دمشق لملاقاتهم، وكان عددهم مئة وثلاثين ألف راجل، واتحدوا مع جيش البلد، فقُتل من المسلمين نحو المائتين، ثم بروزا في اليوم الثاني فقُتل آخرون، وقُتل من الفرنج عدد كثير، واستغاث أهل دمشق، وتضرّعوا إلى الله، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجّ النساء والأطفال مكشوفي الرؤوس، وركب قسّيس من الفرنج وفي عنقه صليبٌ، وفي يده صليب وقال: "أنا قد وعدني المسيح أن آخذ دمشق"، فاجتمعوا حوله، وهجم على البلد، فانقض عليه المسلمون فقتلوه وقتلوا حماره، وأحرقوا الصلبان، ووصلت نجدة معين الدين، فانهزمت الفرنج وأصيب منهم خلق[٣].

ترأس ملك الألمان جيش الفرنج في الهجوم على دمشق، ولما علم معين الدين[٤] بذلك أرسل في الحال إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي- حاكم الموصل- يدعوه إلى نصرة المسلمين، فجمع جيشه وسار إلى الشام، واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب، فنزلوا بمدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: " قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح في بلادي، فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا به، وإن ظفرت فالبلد لكم لا أنازعكم فيه"، وبعث برسالة تهديد إلى الفرنج بأن يرحلوا عن البلد، فتراجع الفرنج عن القتال خوفاً منه[٥].

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ أبي يعلي(ص١٠٣).

(٢) ابن منقذ، الاعتبار(ص١١٥).

(٣) الذهبي، العبر في خبر من غبر(ج٢/٤٦٣).

(٤) وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاءً حسناً وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره. ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٤٦٤).

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/ص١٥٩).

كـان أتابـك زنكـي يسـتخدم ذكـاءه فـي الايقـاع بـين الصـليبيين المحتلـين والبيـزنطيين المواطنين في الشام، حيث أرسل إلى ملك الروم يوهمه بأن نصارى الشام خائفون منه، فلو تقدم لتخلوا عنه، ويرسل إلى نصارى أهل الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم: " إن مَلَكَ بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً"، فاستشعر كل الطرفين سوءاً فرحل ملك الروم، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار أتابك زنكي يستلم مواقع الجيش، فظفر بكثير ممن تخلف منهم، وأخذ جميع ما تركوه[١].

وكثـر فسـاد الفرنـج المقيمـين فـي عكـا، وصـور، والسـواحل، بعـد رحيلـهم عـن حصـار دمشق، وفسدت شروط الهدنة التي بين معين الدين أنر وبينهم، لذا تجرأ الفرنج في إعتداءاتهم علـى دمشـق، وتقدم جيش معين الدين، وهجم علـى أطـراف المدينـة، ونصـب معسكره بحـوران، وراسل العرب، وأطلق يد الأتراك في نهب مصـالحهم، حتى طلبوا تجديد الهدنـة والسلام، وثبتت الهدنة بينهم مدة سنتين، ثم بعث عماد الدين مجاهد الدين بزان بن مامين، في جيش نجدة لنور الدين على قتال حاكم أنطاكية، وكانت تلك المعركة المشهودة التي انتصر فيها نور الدين على الفرنج، وكانت جموعه نحو ستة آلاف فارس سوى الأتبـاع، والفرنج في أربعمائـة فارس، وألف راجل، فلم ينج منهم إلا اليسير، وقتل ملكهم البلنس، فحمل رأسه إلى نور الدين[٢].

وأخذ المسلمون في بلاد العرب ينشطون، ويضمون صفوفهم بتأثير نداءات أهل الشام، مـن جـرائم الفـرنج، وكـان المهـاجرون المسـلمون الفـارين مـن فلسـطين يقصـون علـيهم الحـوادث المفصلة المحزنـة، عن سقوط بيت المقدس ، وترددت هذه الجموع باستمرار علـى مسجد بغداد العظـيم، واستغاثت بـالجيوش الإسـلامية أن تحـرر بيـت المقدس مـن الصـليبيين، وكـان الخليفـة عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء، ولكن عماد الدين زنكي أمير الموصـل لبى الدعوة، وحرك جيشـه حتى وصل بلاد الشام عام(٥٣٨هـ/١١٤٤م)[٣].

ونزل عماد الدين زنكي حمص، وهي مع الفرنج، وحاصرها، وبها حاكمها معين الدين أنتز، فحشد الفرنج ملوكهم وجنودهم للقائه، وجرى بينهم قتال شديد، فانهزمت الفرنج، وهرب كثير

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٩١).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ص٤٧٣) ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(ج٣٧/١٥).

(٣) ديورَانت قصة الحضارة(ج١٥/٢٩).

من ملوكهم إلى حصن بعرين نواحي اللاذقية، وعاود زنكي حصار الحصن وضيق عليه، وطلب الفرنج الأمان، وشرط عليهم تسليم حصن بعرين وخمسين ألف دينار، فأجابوا إلى ذلك وتم التسليم وأثناء ذلك فتح زنكي المعرة وكفر طاب وأخذهما من الفرنج، وحضر أهل المعرة وطلبوا إرجاع أملاكهم التي سلبها منهم الفرنج، فطلب زنكي منهم تسجيل أملاكهم، فقالوا أنها عدمت، فكشف من ديوان حلب عن الخراج، وأفرج عن كل ملك لصاحبه، وانطلق إلى بقاع بعلبك، فسيطر على حصن المجدل، وكان لحاكم دمشق[١].

ولما كانت العديد من مدن الشام تحت سيطرة الفرنج، راسل الأهالي عماد بالطاعة واستنجدوه، ففعل وهادن الفرنج مدة يسيرة، مع العلم أنه لم يتوقف عن الاستيلاء على ما بقي له من بلاد الشام، وكان همه أن يعبر الفرات وملك مدينة حلب وتحرير بقية الشام، فاقتحم حصن الأثارب، وكان أضر المواقع أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً فهزمهم وقتلهم مقتله عظيمة وبقيت عظام قتلاهم بتلك الأرض مدة طويلة، ثم اقتحم حصن حارم فحصره، وصار الفرنج يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فوافق على ذلك لأن في جيشه الكثير من الجرحى والقتلى فأراد أن يستريحوا، فهادنهم وحقق انتصاره، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك، ثم استولى زنكي على مدينة حماة وما فيها[٢].

وقد اهتم قادة المسلمين بالقدس اهتماماً كبيراً، وتجلى ذلك في إعداد نور الدين محمود بن زنكي منبراً بحلب، وقد تعب عليه فترة، وقال: "هذا لأجل القدس"، وبعد موته، أرسل السلطان صلاح الدين وأحضر المنبر من حلب وجعله في الجامع الأقصى، وأقام السلطان بعد فتح بيت المقدس يرتب أمور البلد، وأمر بعمل المدارس، ثم رحل إلى عكا، وبعدها إلى صور وحاصرها بإحكام، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشرة شوان، ولكن الفرنج كمنوا لهم وأخذوا خمسة منها، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا[٣].

يلاحظ أنه كلما كان المسلمون يطلبون مهادنة الفرنج، قابلوهم بزيادة الطمع فيهم والإهانة لهم، حيث أنه لما أراد ابن عمار وهو أيضاً قاضي طرابلس مهادنتهم، على أن يتملك

---

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/١٢).

(٢) أبي شامة، الروضتين(ج١/١١٨-١١٩).

(٣) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/٧٣).

صنجيل ظاهر البلد، أي فرض سيطرته على معابر المدينة، وأن يسمح بدخول المعونات للأهالي، ويظل داخلها ابن عمار ليدير شؤونها، وأثناء تلك الأيام مات صنجيل، وانقطع أيضاً الدعم المصري، فعلمت الفرنج ضعف بمصر، وبعد ذلك احتلوا طرابلس وحكمها ريموند بن صنجيل، وطنكري حاكم أنطاكية، وبلدوين ملك القدس(١).

ولما دفعت أطماع أمير عزاز(٢) واسمه عمر على خيانة مسؤوله رضوان الحلبي، والذي كان في طريقه لمعاقبته بسبب تمرده، وكان أحد قادة عمر قد سبى سيده افرنجية وأحبها، وهي أرملة أحد فرسان الفرنج، واقترحت عليه أن يستنجد بجودفري الذي استجاب لمساعدته، والذي كان همه نزع مدينة أعزاز من رضوان، وقبل ريموند دعوة جودفري لمساعدة عمر، وأصر على تسلم ابن عمر كرهينة، كما أرسل بلدوين جنوداً من الرها، باقتراب الفرنج انسحب رضوان من اعزاز، وثبت جودفري عمراً على المدينة بعد تقديمه الولاء، وتمكن ريموند من جمع المؤن من الجوار ولكنه تلقى خسائر جسيمة من كمائن المسلمين(٣)، وتدل هذه الحادثة على قبول أمراء المسلمين للاستعانة بمساعدة الصليبيين في خلافاتهم بين بعضهم البعض، وأيضاً على أن استعداد الفرنج لقبول أمراء تابعين لهم من بين المسلمين(٤).

واصلت غارات كتائب جيش فرخشاه(٥)- نائب صلاح الدين- على أعمال الفرنج في الشام، ونهبوها وخربوها، وسبب ذلك أن البرنس أرناط، حاكم الكرك، كان من أشد الفرنج عداوة للمسلمين، حيث أنه جهز جيشه وأعد خطة الهجوم على مدينة النبي- صلى الله عليه وسلم- ليستولي على تلك النواحي الشريفة، وبذلك عاد أرناط عن مقصده وامتنع بسبب تلك الغارات عليهم(٦).

---

(١) ابن تغري، النجوم الزاهرة (ج٥/١٧٩-١٨١).

(٢) ملكها الفرنج الصليبيون واستردها منهم نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٤٦). الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب(ج١/٢٩٠)؛

(٣) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٣٩٣).

(٤) المصدر السابق(ج١/ص٣٩٤).

(٥) عز الدين فرخشاه بن شاهناه بن أيوب ابن أخي السلطان صلاح الدين، وكان قائداً للجيش. العماد الأصفهاني، البرق الشامي(ج٣/١٦١)؛ أبو المعالي، مضمار الحقائق وسر الخلائق(ص١٥).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٤٥٢).

وفي سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م)، فتح السلطان صلاح الدين بيت الأحزان بعد قتال وحصار، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة، وشيئاً كثيراً من الأقوات، وأسر عدة نحو السبعمائة ، وفدى ابن بارزان بعد سنة بمائة وخمسين ألف دينار، وألف أسير من المسلمين[١]، وعندما وصل السلطان بانياس في جنوب لبنان، علم بقرب عشرة آلاف مقاتل من الفرنج منه، هجم عليهم وحدثت معركة مرج العيون[٢]، وقتل أكثرهم وأسر مائتان وسبعون نصرانياً، ومنهم قادة فرسانهم، وأخو حاكم جبيل، وحاكم طبريا[٣].

نكث أرناط الفرنجي الهدنة التي عقدها مع صلاح الدين، والتي تضمنت أن يسلم حصن الشقيف مقابل الحفاظ على حياته وحياة أولاده وأن يرضى بما يقطعه السلطان عليه، وكان أرناط في مدة الهدنة يشتري التموين من سوق العساكر، ويتزود بالسلاح وغير ذلك مما يقوي به حصنه، وكان صلاح الدين يحسن الظن به، وعندما علم بمكره وخدعته اعتقله، ونقله إلى دمشق وسجنه، وجعل عليه من يحرسه[٤].

ووصف ابن شداد، أرناط بأنه كان كافراً عظيماً جباراً شديداً، حيث مرت عنه قافلة للمسلمين قادمة من مصر، فأمر جيشه باعتراضها ونهب كثيراً من متاعها وأسر عدداً من أفرادها، ومنهم أخت صلاح الدين، على الرغم أنه كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فنكثها وغدر وأخذ القافلة ونكل برجالها، وعذبهم وقيدهم وأسرهم، وذكروه بالهدنة فقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، فلما بلغ ذلك لصلاح الدين، فقد أقسم أنه متى أظفره الله به، قتله ليقتلن أرناط بيده[٥].

ومع بداية سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، كتب فيها صلاح الدين، بينما هو في دمشق، إلى جميع أمراء المسلمين يحثهم على قتال الفرنج، ووصلت رسائله إلى مدن العراق مصر، وسائر بلاد الشام، واستعجلهم في إعداد العدة والجهاد، وتجهيز أنفسهم وضرورة الاستعداد[٦].

---

(١) المقريزي، السلوك(ج١/١٧٩).

(٢) مرج العيون: مرج العيون، أو مرجعيون: إقليم ومدينة في جنوب لبنان، وشرقي مدينة صور. انظر: الذهبي، تاريخ الاسلام(ج٤٠/٣١)هامش(٢)، حيث لم يرد تعريف لها في المصادر الجغرافية.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام(ج٤٠/٣١).

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج١٠/٦٥-٦٦).

(٥) النوادر السلطانية(ج١/٦٩).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج١٠/٢٠).

ونشبت الحرب الفاصلة في تاريخ المعارك الصليبية كلها مع أهل الشام عند تل حطين[1]، سنه (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، ويجدر بالذكر أن صلاح الدين ملماً بمعالم المنطقة، فاختار لجيوشه الأماكن المشرفة على آبار الماء، ودخل الفرنج في ساحة المعركة وقد أرهقهم العطش وخصوصاً أن الأجواء كانت حارة جداً، وانتهز المسلمون فرصة هبوب الريح نحو معسكر الصليبيين، فأشعلوا النار في الأعشاب البرية، مما حمل الدخان فزاد فرسانهم، وقتلوا عن آخرهم، وأمر صلاح الدين أن يؤتى له بالملك جفري والدوق ريجنلد (أرناط)، فلما أقبلا عليه قدم الشراب إلى الملك دليلاً على أنه قد عفا عنه، أما ريجنلد فقد خيره بين الموت والإيمان برسالة الإسلام، فلما رفض قتله[2].

وخلال معركة حطين أسر المسلمون مقدموهم وقتل الباقون وأسروا، وكان ضمن المأسورين قياداتهم العسكرية غير الملك جفري، والبرنس أرناط، تم أسر أخو الملك، وابن حاكم طبرية، ومقدم الداوية، وحاكم جبيل، وقيادة فرسانهم وأما الباقون من القادة فإنهم صنفوا ما بين قتيل وأسير[3].

---

(١) حطين: موضع في فلسطين بين طبرية وعكا، وبالقرب منها قرية يقال لها خيارة، بها قبر شعيب-عليه السلام. انظر: ياقوت، معجم البلدان(ج٢/٢٧٤).

(٢) ديورَانت ، قصة الحضارة(ج١٥/٣٦).

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية(ج١/١٢٩).

المبحث الثاني: أثر الانتهاكات الصليبية على المقاومة الشعبية

شرع المولى عز وجل للمسلمين حق الدفاع عن أنفسهم، إذا ما وقع عليهم خطر يستهدف حياتهم، وبيوتهم، ويكون ذلك بقتال المعتدين لردهم وكف أذاهم عن ديار المسلمين، قال تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}(١).

وكما أثرت النداءات الثورية لخطباء المساجد من على المنابر في الناس، ولقد أخذ العلماء دورهم الريادي في توجيه الشباب بكل قوة نحو الدفاع عن مدنهم في الشام، وليثبتوا أمام هجمات الافرنج، ويحرصوا على أن تظل راية الاسلام مرفوعة فوق ربوع بلادهم(٢).

واجه الصليبيون مقاومة عنيفة في معرة النعمان، وخصوصاً عندما بدأت قذائف المجانيق تقصف الأهالي بشكل عشوائي من خلف الأسوار، بذل المدافعون كل جهدهم في صد الغزاة، وراحوا يرمون الأعداء بكل أصناف القذائف، حتى أنهم أخذوا يقذفون الحجارة وخلايا النحل، بالنيران والكلس(٣).

ولما عرف المسلمون في الشام اقتراب الافرنج منهم، اتفقت آرائهم على الالتقاء بهم عند شرقي الفرات، وفطن الفرنج لهذا التدبير، وخافوا واستشعروا بالهلاك فرحلوا إلى شاطئ النهر، ولكن المسلمين هجموا عليهم وامتلأت أيديهم من الغنائم(٤).

ولما تناقلت الأنباء التي جاءت تحذر سكان بيت المقدس بقدوم الصليبيين على مدينتهم، لم تتراخى عزائمهم في تحصينها، ونافس بعضهم بعضاً في إحضار وجمع كل ما استطاعوا مما يلزم من الطعام، ومن شتى أصناف السلاح والخشب والحديد الصلب، واجتمع الجميع في ساحة الأقصى، ليناقشوا ما يفعلون ازاء ما يتوقعون حدوثه حتى يمنعوا تقدم الصليبيين(٥).

---

(١) [سورة البقرة: ١٩٠-١٩١].

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى(ج٦/٥١٨).

(٣) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٣٥).

(٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص١٦٩-١٧٠).

(٥) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٣).

ومن أشكال تحضير أهالي القدس أنهم حفروا خندق واسع عميق حول المدينة، وصارت أداة عطلت تقدم آلات المجانيق، ودلوا أكياس مملوءة بالقش، وعلقوا كتل الخشب الضخمة والوسائد المحشوة بالحرير، فأفسدت هذه الأشياء اللينة مفعول ضربات القذائف، وقضت على جميع محاولات هجوم الفرنج[١].

وبالإضافة إلى ما نصبه المسلمون داخل بيت المقدس من الآلات كان أكثر عدداً من الفرنج، وكانت السهام والأحجار التي لا تكف آلاتهم عن رميها تفوق عمل الصليبيين، وكان كل من الجانبين يبذل أقصى جهده، كما تدفعه كراهية حادة نحو الأخر لقتاله، لذلك استمرت المعركة من الصباح حتى المساء، وكانت معركة حامية الوطيس بصورة تجاوز كل ظن، فكانت الرماح والقسي تنهال كصيب من السماء على كلا الجانبين، وصارت قذائف الأحجار التي رمي بها كل خصم خصمه يصطدم بعضها ببعض في الجو، ثم تسقط فتهلك المقاتلين، وشرع المسلمون يقذفون بالجمر المتقد، ويرمونها بالسهام المحملة بالكبريت المشتعل والقار والزيت، وكل ما يؤجج النيران[٢].

بادر رجال عسقلان إلى اجتياز السهل الفاصل، واقتحموا معاقل الفرنج بكل قواتهم، وأسرعوا نحو بيت المقدس، وكانوا يهدفون إلى أسر جنود الصليبيين، ولم يكن أحد يتوقع قدومهم، حيث تمكنوا من قتل ثمانية من الفرنج في البساتين والحقول داخل القدس[٣]، وكان رجال عسقلان كالفراشة التي لا يقر لها قرار، إذ كانوا يتربصون بالصليبيين الدوائر، ويصيبونهم فيها بالضرر[٤].

وعندما حاصر الإيطاليين والجنوية مدينة أرسوف براً وبحراً، إذ كانوا في تلك الأثناء يريدوا الدخول على المدينة من شرفات قلعتها، فاشتبكوا في صراع بالأيدي مع المدافعين عنها،

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١١٤).

(٢) المصدر السابق(ج٢/١١٥).

(٣) المصدر نفسه(ج٣/ص٣١).

(٤) المصدر نفسه(ج٣/٣٨).

وانهار البرج وتحطم بسبب العدد الهائل من الجنود من كلا الطرفين، وقد أصيب مائة من الفرنج بجروح بالغة(١).

وعندما زحف الفرنج إلى قيسارية في فلسطين؛ صنع النجارون برج شاهق العلو من صواري ومجاديف السفن، بحيث إنه ارتفع أكثر من عشرين ذراعاً فوق سور البلد، وحاولوا إبعاد المدافعين من المسلمين من تلك الناحية؛ ليسهل عليهم اقتحام المدينة؛ وشددوا الحصار مدة خمسة عشر يوماً؛ وبعدها هجموا بدروعهم وأسلحتهم على الأهالي، الذين قاوموهم بكل بسالة، وحثوا بعضهم بعضاً على القتال؛ وأمعن الفرنج سيوفهم في كل من وجدوه من المسلمين في طريقهم، ونفذوا المجازر الجماعية بحق المواطنين(٢).

وتواصل القتال في قيسارية لمدة قاربت خمسة عشر يوماً بين الأهالي المدافعين، وبين جيش الفرنج الذي هاجموا البلد بكل قوة، وواجهوا مقاومة عنيفة، واستحر القتل في الجانبين دون انقطاع، فأدرك الصليبيون بعدها أن أهل البلد ليسوا أهلاً لهذه الجهود الشاقة لاعتيادهم الفراغ واستمالتهم إلى الاسترخاء أزمنة طويلة، وتراخت معها عزائمهم، كما أنه لم يكن لهم تمرس بفنون الحرب، ولوحظ عليهم يوماً بعد يوم ضعف بأسهم عن الصمود في القتال، فشن الفرنج هجمة قوية، وتسلقوا الأسوار، واعتلوا الحصون، وتمكنوا من القلاع، ورفع آخرين المزاليج عن الأبواب وفتحوها، وسقطت المدينة في قبضتهم(٣).

عندما التقي الجانبان المسلمين الفرنج في منطقة حران؛ واصطدم الواحد منهما بالآخر حتى صارت اليد العليا للمسلمين؛ فقد نحى المسلمون عنهم أقواسهم التي اعتادوا القتال بها، وحاربوا بسيوفهم، واشتبكوا بالأيدي؛ ودارت الدائرة على الفرنج حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم، ووقع في الأسر كونت الرها، وقريبة جوسلين، وفر البطركان تنكريد وبوهيمند من المعركة(٤).

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة(ص١١٤).

(٢) المصدر السابق(ص١١٤-١١٥).

(٣) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٢٠).

(٤) المصدر السابق(ج٢/٢٥١).

أثبت أهل صور أنهم رجال بارعون وأذكياء، وأبطال مغاوير، لأنهم دبروا كل أنواع المكائد، فكانوا يقابلون كل خطة بخطة مثلها، ويعملون على دفع كل ضرر ينزل بهم، بردة فعل مثله يلحقونه بالصليبيين، ومن ذلك أنهم أحضروا كميات كبيرة من الأحجار والإسمنت، واعتلوا برجين يواجهان آلات الصليبيين الحربية تمام المواجهة، ثم راحوا يزيدون في ارتفاعهما زيادة عن أبراجهم[١]، وكان المواطنون هم الذين أخذوا مرة أخرى بزمام المبادرة في مهاجمة محاصريهم[٢].

ثم إن أهل صور حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا زحفوا إليهم، وليحدث خسفة في برجهم إن عملوه وسيروه قرب المدينة، فذهب نفر ضعاف النفوس من المسلمين إلى الفرنج، وأعلموهم بما أعدوه من خطة، فحذروا منها[٣].

وخلال حصار مدينة صور، كان المواطنون يحاولون في الوقت ذاته صد هجمات أعدائهم الفرنج، ويكبدونهم الخسائر، فأدخلوا في المدينة آلات تقذف صخوراً ضخمة راحت تتساقط بلا انقطاع على الأبراج الحربية للفرنج، وكان لهذا الخوف الذي أوقعه الأحجار المتساقطة أثره في رجحان كفة المسلمين[٤].

صنع الفرنج في صور ثلاثة أبراج خشب، علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحدها إلى سور البلد، وأخلوه من الرجال[٥].

ويشير الصوري إلى مدى عزيمة أهالي صور في مقاومة الفرنج؛ بقوله:" وكان المواطنون هم الذين أخذوا مرة أخرى بزمام المبادرة في مهاجمة محاصريهم، وحاول كل من الصليبيين، وأهل البلد اختبار صمود الجانب الآخر، ويفعلون ذلك بالهجوم تارة بالآلات الحربية وتارة بالقتال من وراء الأبواب، وذلك لأنه كان كل فريق يبذل غاية جهده للتضييق على الآخر "[٦].

---

(١) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/٢٩٨).
(٢) المصدر السابق(ج٣/ص٣٠).
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٩٠).
(٤) الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/ص٢٨).
(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٥٨٩).
(٦) الصوري، الحروب الصليبية (ج٣/٣٠).

وتصدى أهالي صور لاعتداءات الصليبيين، من خلال الكباش الكبيرة التي صنعوها وقربوها على السور؛ ولكن المسلمين قذفوها بالنفط والزيت مرات؛ وظل الصليبيون محاصرين المدينة أربعة أشهر ونصف[١]، وتتالت غاراتهم، وهجماتهم على أهالي المدينة دون انقطاع، لم يتح للمدافعين الذين كانوا يبذلون غاية جهدهم لحماية أنفسهم فرصة، يلتقطون فيها أنفاسهم، ويحاولون في الوقت ذاته صد هجمات أعدائهم الصليبيين وتحميلهم المضرة، واستخدموا أيضاً داخل المدينة آلات تقذف صخوراً كبيرة، وراحت تتساقط بلا انقطاع على أبراج المعتدين[٢].

واجتمع نفر من شباب صور، وتعاهدوا عهداً وثيقاً أن يتسللوا خلسة إلى معسكر الصليبيين، ليحرقوا آلاتهم وأبراجهم المتحركة، فغادروا المدينة سراً، ومن أجل تنفيذ هذه الخطة تمكنوا من إضرام النار في آلة كانت شديدة النفع للجيش الصليبي[٣]، وأثناء حصار الجيش الصليبي لصور، كان رجال عسقلان كالفراشة التي لا يقر لها قرار، حيث تربصوا بالصليبيين الدوائر وأصابوهم فيها بالضرر[٤].

وكان أهل صور في تلك الأثناء يلاقون الأمرين من وطأة المجاعة الفظيعة، ويكابدون مالا طاقة لأحد به، الأمر الذي دفعهم للتفكير بشكل تشاوري في كيفية وضع نهاية لهذه المصائب المحدقة بهم، وتوصلوا إلى أن يسلموا المدينة للعدو، وبذلك يحافظون على حياتهم، ويذهبون إلى مدن إسلامية مجاورة، لأنهم أدركوا أن هذا أجدى عليهم من الموت جوعاً، وأنظارهم شاخصة إلى نسائهم، وأطفالهم، وهم يتساقطون صرعى أمام أعينهم، وهم لا يملكون لهم نفعاً ولا يستطيعون مساعدتهم، وأفتاهم شيوخهم أن يجنحوا للسلم مهما كبدهم من خسائر[٥].

وكسر أهل بيروت برج الخشب الضخم الذي عمله الفرنج؛ ووضعوه قرب أسوار البلد؛ ووصل ذلك الخبر على الأفضل؛ فجهز تسعة عشر مركباً حربية؛ وصلت سالمةً إلى بيروت، وسيطرت على مراكب الفرنج؛ وغنمها، ودخلت قواته إلى بيروت بالمعونات والنجدة؛ وقوي أهلها بذلك؛ ولما علم بلدوين بهذا؛ استنجد بأهل جنوة؛ فأتاهم منهم أربعون مركباً محملة بالمقاتلين،

---

(١) كرد، خطط الشام(ج١/٢٦٩).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/٢٨).

(٣) المصدر السابق(ج٣/٣٥).

(٤) المصدر نفسه(ج٣/ص٣٨).

(٥) الصوري، الحروب الصليبية(ج٣/٣٩-٤٠).

وزحفوا على بيروت في البر والبحر، ونصبوا عليها برجين، وقاتلوا أهلها، وعظمت الحرب، وقتل مقدم الأسطول، وكثير من المسلمين، ولم ير الفرنج من قبل أشد من هذه الحرب، وكذلك أحبط المسلمون في البلد، وهاجمهم الفرنج في آخر النهار وملكوا البلد بالسيف والقهر، وغنموا ما مع الأهالي من المال، ونهبوا وذخائر البلد، وسبوا من فيه وأسروا[١].

ولما نزل الفرنج على عكا، ضيقوا عليها، وكادوا يأخذوها، ونصبوا عليها المجانيق والأبراج، وكان لهم في البحر ستة عشرة قطعة بحرية، فاجتمع المسلمون من سائر السواحل، وأتوا إلى المجانيق والأبراج، فأحرقوها، وأحرقوا سفنهم أيضاً، وكان ذلك نصراً عجيباً، أذل الله به الكفار[٢]، ويروي الصوري عن تلك الحادثة، حيث يقول: " تقدم الملك الصليبي بجيشه وحاصر عكا، وبسبب دفاع أهلها بشجاعة، لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليها، ولكن الملك الصليبي دمر محصولاتهم وكرومهم وبساتينهم"[٣].

ظهرت إبداعات وابتكارات أهالي الشام في أشكال مقاومة الفرنج، حيث باعد الفرنج أبراجهم عن بعضها، وجعلوا مسافات بحيث وضعوا كل منها على جانب من عكا، فاحترقت في آن واحد، وكان سبب حرقها أن رجلاً يعرف بعلي بن عريف الحسين، أصله من دمشق، قد استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد، وأقام بها، وشرع يعمل النفط، ويركب عقاقيره والناس يسخرون منه، فلما قدمت أبراج الفرنج إلى البلد رمي عليها بالنفط، فلم ينفع ذلك، ثم حضر ابن العريف إلى بهاء الدين قراقوش، واستأذنه في الرمي، فأذن له على كره، فإن الصناع قد أيسوا، ولما إذن له بهاء الدين قراقوش رمى أحد الأبراج فأحرقه، وانتقل إلى الثالث فأحرقه، ولم يكن ذلك بصنعه بل وفقه الله تعالى[٤].

وكان الفرنج قد عملوا قرب أسوار عكا ثلاثة أبراج، طول البرج ستون ذراعاً، وعملوها طبقات، وشحنوها بالسلاح والمقاتلة، ولبسوها جلود البقر، والطين بالخل، لئلا يعمل فيها النار،

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا(ج٣/٤٥).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٧٥).

(٣) الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين(ص١٩١).

(٤) العليمي، الأنس الجليل(ج١/٣٦٤).

فتحايل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث [١].

واستأنف الإفرنج في عمل ذبابة لرأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، وألبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، خشية عليها من النار وسحبوها، وأنزعج المسلمون لذلك، وقالوا: ليس في هذه حيلة، ثم نصب أهل عكا مجانيق ورموا بالحجارة، وابتعد من حولها من الفرنج، ثم قذفوها بالنيران، ودخلت من باب الذبابة نار فاشتعلت فيها، وخرج منها الإفرنج واحترقت تلك الذبابة ورموها بالمجانيق حتى انهدمت، وقطع المسلمون رأس الكبش، واستخرجوا ما تحت الرماد من الحديد، وحملوا منه ما استطاعوا، وانتهى بذلك النصرة للمسلمين[٢].

وواصل الفرنج سيرهم إلى يافا بقيادة بلدوين، ولكن مواطنيها طردوه وسط حماس سكانها، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً، ثم سار إلى بيت المقدس[٣]، وعزم شباب عكا على أن يجمعوا أهاليهم، وأبناءهم، في المسجد الجامع، ويحملوا السيف عليهم، غيرة من تملك النصارى لهم، ثم يخرجوا إلى عدوهم بهجمة نافذة، ويصدموهم صدمة صادقة، حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه، ولكن منعهم من ذلك علمائهم ووجهاء البلد، وأجمعوا على دفع الناس والخروج بسلام من مساكنهم، وصار ذلك، وتفرقوا في بلاد المسلمين، ومنهم من استهواه حب الوطن، فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوه[٤].

ومن رسالة أهالي عكا في استدعاء مظفر الدين[٥] والتي اشتملت على اعتداءات الفرنج عليهم، ووصفوا ما جرى أنه: " ولا شك فقد عرف ما تم منهم على عكا، وبعد ذبنا عنها في هاتين السنتين.. وأنهم كلما دبروا أمراً دمرناه، وكلما حققوا كيداً أبطلناه، وكلما قدموا مجانيقاً

---

(١) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٣/٧٨).

(٢) العليمي، الأنس الجليل(ج١/٣٦٨).

(٣) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٤٨٤).

(٤) ابن جبير، الرحلة(ص٢٧٩).

(٥) مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعه إياها عز الدين أتابك. ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٩/٤٦٢).

أخرناه وعطلناه، وكلما ركبوا برجاً أحرقناه، وكلما كثفوا حجاباً خرقناه، و(كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله)، حتى لم يبق لمكرهم مكر، ولا لكيدهم مجال، ولم يتسق في هذه المدة لهم حال"[1].

ولشدة مقاومة أهالي الشام يقول الصوري: " وجودنا وسط محيط العدو(المسلمين) بصورة لم يكن الصليبيون بقادرين معها الذهاب من مدينة لأخرى، اذ اقتضت الضرورة ذلك، وإلا كانوا عرضة لخطر جسيم، كما أن معظم الإقليم المحيط بأملاكهم كان يسكنه المسلمون الذين كانوا أشد الناس وحشية في عدائهم لقومنا، وكانوا أخطر من الجميع علينا لقربهم الكبير منا، إذ ليس هناك بلاء أشد بلاء بالمرء أو أفعل في خطبه من عدو يكون له بالمرصاد على الأبواب، ولم يكن ثم نصراني يسير في الطريق العام دون أن يأخذ حذره الشديد وإلا لقى الهلاك على أيدي الشرقيين، أو وقع في أيدي تسلمه للأعداء فيسترقونه، ويضاف إلى ذلك أن المسلمين كانوا يرفضون زرع الحقول عسى أن تفتك المجاعة بقومنا، بل كانوا يؤثرون أن يكابدوا هم أنفسهم الجوع حتى لا يصل القوت إلى الفرنج"[2].

وكان الدمشقيون ينتظرون مجيئ بالدوين، الذي كان يتقدم بحذر شديد، ليجد نفسه في مواجهة جيش الدقاق كله ومعه جيش أمير حمص، بينما كان يقف أسطول عربي قادم من بيروت على استعداد لقطع طريق الانسحاب الصليبي، وفشل بلدوين في عبور النهر في مواجهة تلك القوات المتفوقة فتمكن من الانسحاب تحت جنح الظلام[3].

ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتمكن المجاهدين في فلسطين من السيطرة، أرسلوا الى صلاح الدين يطلبون الأمان، فأبى السلطان وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين حينما استوليتم على بيت المقدس من القتل والسبي، فقال له باليان: أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فو الله لنقتلنّ أولادنا، ونساءنا، ونحرق أموالنا، ولا نترككم تغنمون منّا ديناراً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً أو امرأة، فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة، والمسجد الأقصى، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابّة ولا

---

(١) الأصفهاني، الفتح القسي(ج١/٢٧٤).

(٢) الصوري، الحروب الصليبية(ج٢/١٨٠).

(٣) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية(ج١/٤٨٣).

حيواناً الّا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلّنا وحينئذ لا يقتل الرجل منّا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزّاء أو نظفر كرماء، فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم الى الأمان(١).

وحشد الصليبيون جيوشهم نحو فلسطين، ولما علم صلاح الدين بذلك، سير فرق الجيش الاسلامي ليسابقوهم إلى الحضور، وأول من قدم جيش تركماني بقيادة بدر الدين دلدرم، فلقيه السلطان واحترمه، ووصل بعده عز الدين بن المقدم بجيش قوي، وعتاد حرب ففرح بهم السلطان، وأما الفرنج فإنهم وصلوا على مفرق طرق بين طريق عسقلان إلى بيت جبرين(٢) وإلى غير ذلك من الحصون الإسلامية، ولما بلغ السلطان ذلك أمر الجيوش التي جاءت نحوه، فخرج أبو الهيجاء السمين، وبدر الدين دلدرم وابن المقدم، وتتابعت الوحدات المقاتلة، وظل هو في القدس، فلما علم الفرنج بقدوم الجيوش الإسلامية عاد خائباً خاسراً ناكصاً على عقبيه، ووصلت المراسلات من الأمراء مخبرين برحيل الفرنج إلى عسقلان(٣).

قال القاضي– محيى الدين بن زكى الدين– في مطلع لأول خطبة خطب بها في بيت المقدس بعد الفتح مباشرة، {**فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**}(٤) .. وأحمده تعالى على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده.. أيها الناس: أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى،.. من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدى المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه، بعد أن امتد عليها رواقه.. فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية(٥).

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول(ج١/٢٢١).

(٢) بيت جبرين: بلدة بين بيت المقدس وغزة، وبينه وبين القدس مرحلتان، وبين غزة أقل من ذلك، وكانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الإفرنج. ياقوت، معجم البلدان(ج١/٥١٩).

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية(ج١/٣١٥).

(٤) [سورة الأنعام: ٤٥].

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب(ج٢/٢١٨–٢٢٢)؛ أبي شامة، الروضتين(ج٣/٣٨٤).

المبحث الثالث: أثر الانتهاكات الصليبية على الشعراء

سببت الإنتهاكات الصليبية لبلاد الشام والمنطقة العربية بوجه عام، تدمير مقومات الحضارة العربية الإسلامية، وتعطيل قوي الإبداع، وذلك نتيجة إنشاء المستوطنات الصليبية على أرض فلسطين والشام، وكان هذا على حساب الأهالي الذين هجروا من بيوتهم بالتهديد وسفك دمائهم[١].

ولقد وضعت خلال الحروب الصليبية المؤلفات العديدة في فضائل الشام وبيت المقدس وفي أدب الجهاد والحث على قتال أعداء الله[٢]، وكان العلماء وخطباء المساجد من على المنابر يدعون الناس ويحرضونهم على الجهاد، ويوضحون للناس أن الخلاص الوحيد من الاحتلال الصليبي هو قتالهم بالسيف[٣].

ويبدو أنه ما وصل إلينا من الشعر العربي، لم يكن كافياً لينقل لنا مجمل صور المعاناة التي عاشها أهالي بلاد الشام، فمنذ أن قرع جيش الفرنج طبول الحرب على مسمع الأطفال والرجال والنساء الأبرياء والعزل، والذين تفاجأوا بهذه الجحافل البشرية الهائلة من الصليبيين، والذين زحفوا لهذه البلاد، ليحاصروا المدن ويدمروها، ويمنعوا المعونات ويسلبوها، ويقتحموا البيوت، ويقتلوا سكانها، ويهجروا أهلها[٤]، فظهرت اتجاهات الشعر عن تلك الحقبة المعنية في هذه الدراسة، من استغاثة الأهالي، وطلب العون من إخوانهم المسلمين، وحثهم على الجهاد وقتال الأعداء، بالإضافة إلى مدح القيادات الإسلامية الذين جاهدوا الفرنج، وأيضاً وصف الشعراء الدمار الذي أحدثه الفرنج في ديار الإسلام.

أولاً: استغاثة أهالي الشام وطلب العون من إخوانهم المسلمين

على أثر إحتلال الفرنج لبيت المقدس، وتنفيذ مجزرتهم البشعة بحق أهلها، قال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي شعراً:

---

(١) قاسم، ماهية الحروب الصليبية(ص٩).

(٢) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم اللاتين في الحرب الصليبية الأولى(ص٩٥).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/١٥٦).

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٧٣).

"مزجنا دمانا بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراجم[١]
وشر سلاح المرء دمع يريقه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم[٢]
فأيها بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم[٣]
وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم[٤] ظهور المذاكي[٥] أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم"[٦].

واستغاث الشاعر عرقلة حسان، المسلمين في طلب النجدة من جرائم الفرنج، ويقول:
"من قاتل الإفرنج ديناً غيره والخيل مثل السيل عند المشهد
رد الأمان بكل ندب باسل ومن الجياد بكل نهد[٧] أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض ومن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الإسلام تحت لوائه وغدا بحمد من شريعة أحمد"[٨].

حث أبو المظفر الأبيوردي في شعرهً رجال المسلمين على نجدة إخوانهم في الشام من هجمات الإفرنج، بقوله:
" وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المشركين قواضباً ستغمد منهم في الكلى والجماجم

(١) المراجم: القبيح من الكلام. انظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط(ج١/٣٣٣).
(٢) والصارم: السيف القاطع ، والجمع: الصوارم، كالصروم، بين الصرامة والصرومة، وهو الذي لا ينثني في قطعه. الزبيدي، تاج العروس(ج٣٢/٤٩٩).
(٣) المناسم، جمع منسم وهي طرف خف البعير. الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية(ص٩٢).
(٤) المقيل من القيلولة. نومة نصف النهار. رينهارت، تكملة المعاجم العربية(ج٨/٤٣٩).
(٥) المذاكي: وقيل: المذكي من الخيل الذي يذهب حضره وينقطع، وأصل الذكاء في الريح شدتها من طيب أو نتن. الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس(ج٣٨/٩٦).
(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٤٢٦)؛ أبو الفداء، المختصر(ج٢/٢١١)؛ أو المحاسن، النجوم الزاهرة(ج٥/١٥١)؛ ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/١٥٦).
(٧) النهد في نعت الخيل: الجسيم المشرف. الهروي، تهذيب اللغة(ج٦/١١٧).
(٨) أبي شامة، الروضتين(ج١/١٩٣).

يكاد لهن المستجير بطيبة	ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا	رماحهم والدين واهي الدعائم
أيرضى صناديد الأعاريب بالأذى	ويغضى على ذل كماة الأعاجم
فليتهموا[1] إذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم"[2].

وكتب أخو نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد، بها إلى ابن عمه الأمير ناصر الدين تاج الدولة أبي عبد الله محمد بن سلطان بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ، يستعينه على فكاك أخيه من أسر الفرنج:

" يا ناصر الدين، يا بن الأكرمين، ومن	يغني ندى كفه وابل الديم[3]
هذا ابن عمك في أسر الفرنج، له	حول تجرم، في الاغلال والظلم
يدعوك، لا بل أنا الداعي نداك له	يا خير من علقته كف معتصم
وأنت أكرم من تثنيه عاطفة القربى	ويرجوه للجُلَّى ذوو الرحم
ومن لم تكن أنت مولاه وناصره	فكيف تسطو عليه كف مهتضم" [4].

ويكشف أبو المجد الحموي في شعره عن أهداف الصليبيين الاستيطانية في الشام، وذلك بعد أكثر من ربع قرن ويوضح نواياهم في هضم حق أهل الشام واقتلاعهم من مدنهم:

" وما جاء كلب الروم إلا ليحتوي	حماة وما يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة	وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب
وما ذم فيها العيش حتى صدمته	فمال جناح الجيش وانكسر القلب" [5].

ثانياً: شعر الجهاد وحث المجاهدين على قتال الفرنج في الشام

وكان في بيت المقدس شاب مأسور لدى الفرنج من أهل دمشق كتب هذه الأبيات وأرسل بها إلى الملك صلاح الدين، وكانت أبياته دافعة لصلاح الدين في فتح بيت المقدس:

" يا أيها الملك الذي	لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة	تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت	وأنا على شرفي منجس" [1].

(١) تهم اللحم إذا تغير، والتهم: النائم. الفراهيدي ، كتاب العين(ج٤/٣٦).

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان(ج١٩/٤٩٩)؛ ابن كثير، البداية والنهاية(ج١٢/١٥٦).

(٣) وكاف الديم، يكفه كفوفاً: إذا كف جوانبه.

(٤) ابن منقذ، ديوان ابن منقذ(ص١٩٩).

(٥) أبي شامة، الروضتين(ج١/ص١٢٥).

وجاء في كتاب النجوم الزاهرة شعراً يحث شباب المسلمين على قتال الفرنج في الشام:

" أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً   يطول عليه للدين النّحيب[٢]

فحقّ ضائع وحمّى مباح   وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسلم أمسى سليباً   ومسلمة لها حرم سليب

وكم من مسجد جعلوه ديراً   على محرابه نصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوق   وتحريق المصاحف فيه طيب

أمور لو تأملهنّ طفل   لطفّل في عوارضه المشيب

أتسبى المسلمات بكلّ ثغر   وعيش المسلمين إذا يطيب

أمّا لله والإسلام حقّ   يدافع عنه شبّان وشيب" [٣].

ولما خرب الصليبيون بيت المقدس، أنشد فيه جمال الدين بن مطروح، وكان فاضلاً:

المسجد الأقصى له آية   سارت فصارت مثلا سائراً

إذا غدا للكفر مستوطناً   أن يبعث الله له ناصراً[٤].

ثالثاً: اعتزاز الشعراء بالانتصارات ومدحهم لقادة المسلمين

للحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال، وله قصيدة، منها مدح فيها صلاح الدين لما فتح بيت المقدس:

" الله أكبر أرض القدس قد صفرت   من آل الأصفر إذ حين به حانوا

أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم   من غير تيه بها سلوى وأمنان

لهم فلسطين إن يخرج عداتهم   عنها وإلا عدت بيض وخرصان[٥]

حتى بنيت رتاج القدس منفرجاً   ويصعد الصخرة الغراء عثمان

واستقبل الناصر المحراب يعبد من   قد تم من وعده فتح وإمكان

---

(١) العليمي، الأنس الجليل(ج١/ص٣١٨-٣١٩).

(٢) بكاء شديد أو تنفس سريع عنيف متقطع مصحوب بالبكاء ناتج عن انفعال وتقبض تشنجي واختلاجات متتابعة في عضلات الصدر. مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة(ج٣/٢١٧٥).

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة(ج٥/١٥١-١٥٢).

(٤) العليمي، التاريخ المعتبر(ج٢/ص١٣٨).

(٥) والخرص: السنان، وجمعه: خرصان. الهروي، السلاح(ص٢١).

وجاز بعض بنيه البحر تجفل من غاراته الروم والصقلاب[1] واللان[2]

حتى يوحد أهل الشرك قاطبة ويرهب القول بالثالوث رهبان" [3].

ونظم شعراء كثيرون في فتح السلطان صلاح الدين القلاع، فمن ذلك ما نظمه شهاب الدين محمود:

" الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالقول دين المصطفى العربي

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت رؤياه في اليوم لاستحيت من الطلب

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها في البحر للشرك عند الدين من أرب

كم رامها ورماها قبله ملكٌ جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب

لم ترض همته إلا الذي قصدت هجر عنها ملوك العجم والعرب" [4].

ومما مدح به السلطان في هذا الفتح مدحه سيرها من مصر إليه فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجوني العراقي:

" فله الحمد أي نصر عزيز قد حبانا به وفتح مبيناً

درك الثأر حين ثار له المغوار حتف الكفار ليث العرين

الهمام الغضنفر الملك النا صر مولى الورى صلاح الدين

يا مليكا أضحى الزمان يناجيه لفظ المذلل المستكين

قذفت أهلها الحصون إلى بأسك حتى عوضتهم بالسجون

وأراهم رب السماء بأسيافك ما لم تجل لهم في ظنون" [5].

مدح الحسين بن عبد الله بن رواحة– ابن إبراهيم بن عبد الله بن رواحة أبو عليٍ الأنصاري الحموي– صلاح الدين بن أيوب، لما عاد إلى دمشق، نظم قصيدةٍ مهنئاً بها الملك الناصر بعيد الأضحى، يقول فيها:

" لقد خبر التجارب منه حزم وقلب دهره ظهراً لبطن

فساق إلى الفرنج الخيل براً وأدركهم على بحرٍ بسفن

وقد جلب الجواري بالجواري يمدن بكل قدٍ مرجحن" [6].

---

(١) الصقلاب الرجل الأبيض. وقال أبو عمرو: هو الأحمر. ابن منظور، لسان العرب(ج١/٥٢٦).

(٢) اللان: مدينة سلوق تنسب إليها الكلاب السلوقية. الرازي، مختار الصحاح(ص١٥٢); ابن منظور، لسان العرب(ج١٠/١٦٣).

(٣) أبي شامة، الروضتين(ج٣/٤٠٥).

(٤) الغيتابي، عقد الجمان(ص٢٢٤).

(٥) العماد الأصفهاني، البرق الشامي(ج٣/١٧٢).

(٦) ياقوت، معجم الأدباء(ج١٠/ص٤١٠).

سار صنجيل إلى أنطرطوس[١]، فاقتحمها وقتل من بها من المسلمين[٢]، ولما حررها نور الدين من الفرنج، أخذ ابن منير يمدحه ويهنئه بفتحها، وأعماله ضد الفرنج في مدن أخرى، في قصيدة منها:

" أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكاً ... وتؤوب[٣] منه مؤيداً منصورا

أخلى ديار الشرك من أوثانها ... حتى غدا ثالوثهن نكيرا

رفع القصور على نضائد هامهم ... من بعد ما جعل القصور قبورا

بشواحب الألياط تقطو في الظلام ... قطا وتهوي في الصباح نسورا

غادرت أنطرسوس كالطرس أمحى ... رسماً وحمر درعها يحمورا " [٤].

انتصر المسلون بقيادة نور الدين على الفرنج خلال معركة وقعت بين طبرية وبانياس سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م)، وواصلوا الدعاء الخالص للملك العادل نور الدين المحامي عنهم والمرامي دونهم والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى وهي:

" مثل يوم الفرنج حين عليتهم ... ذلّة الأسر والبلاء والشقاء

وبراياتهم على العيس زفوا ... بين ذلٍّ وحسرةٍ وعناء

بعد عزٍّ لهم وهيبة ذكرٍ ... في مصافّ الحروب والهيجاء

هكذا هكذا هلاك الأعادي ... عند شن الإغارة الشعواء

شؤم أخذ الجشار وكان وبالاً ... عمّهم في صباحهم والمساء

نقضوا هدنة الصلاح بجهلٍ ... بعد تأكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بغيهم بما كان فيه ... من فساد يجلّهم واعتداء

لا حمى الله شملهم من شتاتٍ ... بمواضٍ تفوق حدّ المضاء" [٥]

وجاء في أبيات محمد بن نصر القيسراني، تمدح تاج الملوك بورى جد مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج:

---

[١] انطرسوس من مدن سوريا، وهي تقع على ضفة البحر، صغيرة القدر، وبها أسواق عامرة، وتجارات دائرة ومنها إلى حصن المرقب، وهو على جبل منحاز من كل ناحية، وبين حصن المرقب وانطرسوس ثمانية أميال، ومن حصن المرقب إلى مدينة بلنياس ثمانية أميال. الإدريسي، نزهة المشتاق(ج٢/٦٤٤).

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ج٢/٢١٦).

[٣] تؤوب بمعنى ترجع، ويقال آبت الشمس، تؤوب إيابا، أي غابت في مآبها أي في المغيب، كأنها رجعت إلى مبدئها. انظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس(ج٢/٣٦).

(٤) أبي شامة، الروضتين(ج١/٢٨٠-٢٨١).

(٥) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/٥٢٤).

" سروا لينتهبوا الأعمار فانتهبوا قتلاً ويغتنموا الأموال فاغتنموا

وأقبلت خيلنا تردي بخيلهم مجنونة وعلى أرماحنا القمم

وأدبر الملك الطاغي يزعزعه حر الأسنة وهو البادر الشبم

وافوا دمشق وظنوا أنها جدة ففارقوها وفي أيديهم العدم

وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم إن لم يزولوا سراعا زالت الخيم

فغادروا أكثر القربان وانجفلوا وخلفوا أكبر الصلبان وانهزموا

وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت عن مسجد القدم الأقصى لها قدم" [١].

مدح الشاعر عماد الدين في مناسبة فتح بارين، وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين[٢]، فأزاله الله على يد المسلمين المجاهدين واستولوا عليه وملكوه، بقيادة عماد الدين زنكي، وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زنكي قصيدة أولها:

" حتى إذا ما عمادُ الدين أرهقهم في مأزق من سناه يبرق البصر

وَلَّوْا نضيق بهم ذرعاً مسالكُهم والموت لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ

وفي المسافة من دون النجاة لهم طول وإن كان في أقطارها قصر

وأصبح الدين لا عيناً ولا أثراً يخاف والكفر لا عين ولا أثر

فلا تخفف بعدها الإفرنج قاطبة فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

إن قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبوا أو طاردوا طُرِدوا أو حاصروا حصروا " [٣].

ولما يسر الله تعالى هذا نصر المسلمين على الفرنج، مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، ومنهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم التنوخي الحموي له قصيدة :

" بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنه الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه فكان لخطبه الخطب الجسيم

أيلتمس الفرنج لديك عفواً وأنت بقطع دابرها زعيم

وكم جرعتها غصص المنايا بيوم فيه يكتهل العظيم

فسيفك في مفارقهم خضيب وذكرك في مواطنهم عظيم" [١].

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/١٩٥)

(٢) ابن الوردي، تاريخ(ج٢/٤٠).

(٣) أبي شامة، الروضتين(ج١/١٣١).

ولما حقق المسلمون انتصاراً ساحقاً على أسطول الافرنج المعتدي، جاء في ديوان ابن منقذ واصفاً تلك المعركة:

" أن بعض الأسطول نال من الإفرنج مالا يناله التأميل

سار في قلة ومازال بالله، وصدق النيات ينمي القليل

وبقايا الأسطول ليس له يعد إلى ساحل الشام وصول

فحوى من عكا وطرسوس عدة لم يحط بها التحصيل

جمع ديوية بهم كانت الإفرنج تسطو على الورى وتصول

قيد في وسطهم مقدمهم، يهدي إلينا، وجيده مغلول

بعد مثوى جماعة هلكت بالسيف منها الغريق والمقتول" [٢].

وجاء أيضاً في ديوان ابن منقذ أبيات تبين اعتزاز المسلمين بقواتهم البحرية التي قاومت الفرنج:

" غزوتهم في البحر، حتى كأنما الأساطيل فيه موجة التلاطم

بفرسان بحر، فوق دهم كأنها على الماء طير، مالهن قوادم

يصرفها فرسانها بأعنة جرت، حيث لم توصل بهن الشكائم

إذا دفعوها قلت: فرسان غارة ساروا بجياد، مالهن قوائم

يسوق أساطيل الفرنج إليهم حمام، وطير للفرنج أشائم

دماؤهم في البحر حمر سوائح وهامهم في البر سحم جوائم

فلم يخف في فج الأرض هارب ولم ينج في لج من الماء عائم" [٣].

وواصلوا الدعاء الخالص لنور الدين، المحامي عنهم من بطش الفرنج، ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى وهي:

" مثل يوم الفرنج حين عليتهم ذلّة الأسر والبلا والشقاء

وبراياتهم على العيس زفوا بين ذلٍّ وحسرةٍ وعناء

بعد عزٍّ لهم وهيبة ذكرٍ في مصافّ الحروب والهيج" [٤].

---

(١) أبي شامة، الروضتين(ج١/١٢٤)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٥/١٣).

(٢) ابن منقذ، ديوان ابن منقذ(ص٢٦٨).

(٣) المصدر السابق(ص٢٧٦).

(٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق(ج١/٥٢٤).

عبر ابن منقذ في شعره عن إنتصار المسلمين في النزال مع الفرنج وأسر قائدهم:

" في سجننا ابن الفنش خير ملوكهم ... وإن لم يكن خير لديهم ولا بر
أسرناه في حصن العريمة راغماً ... وقد قتلت فرسانه جزرا
وكان يظن الغر أنا نبيعه ... بمال، وكم ظن به يهلك الغر
فلما استبحنا ملكه وبلاده ... ولم يبق مال يستباح ولا ثغر " [1].

وقال أيضاً:

" وما نَنثني عنه أعنة خيلنا ولو ... طار في أفق السماء النسر
إلى أن يزور الجوسلين مساهماً له ... في دياج، ما في لليلتها فجر
ونرجع القدس المطهر منهم الذكر ... ويتلى بإذن الله في الصخرة الذكر " [2]

وخلال معارك أهل الشام مع الفرنج، غنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة، فإنهم قتلوا حاكم أنطاكية الفرنجي وحمل رأسه، ومما مدح به إيلغازي في هذه الوقعة قول العظيمي:

" واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيل " [3].

رابعاً: وصف الشعراء للدمار الذي أحدثه الفرنج في بلاد الشام وحنينهم للديار

نظم أبو سلامة محمود بن علوي شعراً، وذكر أنه كان تاجراً بحلب، ومن شعره في المعرة:

" أنا من بلدةٍ قضى اللهُ يا صا ... ح عليها كما ترى بالخرابِ
قتلوا أهلها وبادوا جميعاً ... من شيوخ وصبية وشباب " [4].

ووصف أبى الحكم الأندلسي، في شعره يشرح فيها عن قصة إجرام الفرنج بالشام:

" وأقوام رأوا سفك الدم ... ما في جلق دينا
أتانا مئتا ألف ... عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس ... وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصرت ... أقواماً مجانينا

---

(١) ابن منقذ، ديوان ابن منقذ(ص٢٥٢).
(٢) المصدر السابق(ص٢٥٤).
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(ج٨/٦٤٣).
(٤) الأصفهاني، خريدة القصر (ج١/ص٤٧٣).

ولكن حرقوا في عاجل الحال البساتينا
وجازوا المرج والتعديل أيضاً والميادينا
تخالهم وقد ركبوا فطائرها حراذينا
وبين خيامهم ضموا الخنازر والقرابينا
ورايات وصلباناً على مسجد خاتونا" [1].

وجاءت أبيات الشاعر تصور أنه لو قدر للنبي عيسى-عليه السلام- أن يشاهد أفعال الصليبيين وجرائمهم بحق المسلمين ومقدسات الإسلام لما رضى لهم بذلك:

" إن هذا لأن غدت ساحة القدس وما للإسلام فيها نصيب
منزل الوحي قبل بعث رسول الله فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر وبارى الناقوس فيه الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلاً ذكروا أنه له منسوب
أبعد الناس عن عبادة رب الناس قوم إلههم مصلوب"[2].

ورتب وجيه بن عبد الله بن نصرٍ أبو المقدام التنوخي، شعراً فصيحاً، يوصف ما فعله الفرنج في معرة النعمان، ودخل بلده عندما عاد إليها، وهو يبكي ويقول:

" هذه بَلدةٌ قضى الله يا صاح عليها كما ترى بالخرابِ
فقِف العِيسَ وقفَةً وابكِ من كان بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلتَ يوماً إليها فَهيَ كانت منازلَ الأحباب" [3].

جاءت أبيات أسامة ابن منقذ في ديوانه، لتنقل لنا حجم الخسائر التي تحملها المسلمون من جراء إحتلال الفرنج لبلاد للشام:

"وكم مثل هذا من قلاع ومن قرى ومزدرعات[4] لا يحيط بها الحصر
فلما استعدناها من الكفر عنوة ولم يبق في أقطارها لهم أثر
رددنا على أهل الشم رباعهم وأملاكهم، فانزاح عنهم بها الفقر
وجاءتهم من بعد يأس وفاقة وقد مسهم من فقدها البؤس والضر

(١) أبي شامة، الروضتين(ج١/١٩٢-١٩٣).
(٢) المصدر السابق(ج١/٣٣٨).
(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان(ج٢٠/٤١).
(٤) مزدرع والزرع، بمعنى طرح البذر. والزرع أيضا الإنبات. الرازي، مختار الصحاح(ص١٣٥).

ومر عليها الدهر، والكفر حاكم	عليها، وعمر مر من بعده عمر" [١].

ومن آثار تشريدهم وفرارهم بأرواحهم، من بيوتهم أثناء الهجوم الصليبي وخوفهم على أبنائهم هو ما أنشده القاضي أبو اليسر شاكر عن جده القاضي أبو المجد محمد بن عبد الله لما عاد الى معرة النعمان بعد الهجرة، قائلاً:

" وقفت بالدار وقد غيرت	معالم منها وآثار

فقلت والقلب به لوعة	بحرقة والدمع مدرار

أنى زمان فيك قضيته	وأين سكانك يا دار" [٢] .

وفي موقف أخر فقد أنشد قائلاً:

" الدار على غيها	إن سكوني عنك أخيار

أحننت على من كان بي نازلاً	صروف أيام وأقدار

وارتجع العيش ولذاته	بعبرة والدهر دوار

فها أنا اليوم كما قد ترى	مقفرة ما بي ديار" [٣]

وأنشدنا أبو اليسر أيضا ما قاله أبو السهل من حماة وأنا بالمعرة زمن عودته من دمشق الى حماة، قائلاً:

" لابد أن أشكو الذي	لاقيت من ألم الفراق

وأبث وجدي ما استطعت	وطول وهمي واشتياقي" [٤].

وقف العميد أبو بشر بن الحوّاريّ على داره بالمعرّة بعد هجوم الفرنج، وقال:

" أهذه بين إنكاري وعِرفاني	مساربُ الوحش أم داري وأوطاني

جهِلْتُها ولقد أبدَتْ ملاعبُها	عهد الصِّبا بين إخواني وخِلاّني

فعُجْتُ أَسألُها والدَّمع مُنسكبٌ	والقلب في لوعةٍ من وَجده عان

يا دارُ ما لي أرى الأيامَ قد حكمت	فينا وفيك بحكم الجائر الجاني

فلو أجابت لقالت هكذا فعلت	قِدماً بجيرة نُعمان ونُعمان" [١]

---

(١) ابن منقذ، ديوان ابن منقذ(ص٢٥٥).

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق(ج٣٥/٣٩٤).

(٣) المصدر السابق(ج٣٥/٣٩٤).

(٤) المصدر نفسه(ج٣٥/٣٩٤).

أنشد الخطيب أبو زكريا يحيى بن سلامة الحصكفي لبعض أهل المعرة، وقد اجتاز بقرية من أعمال المعرة يقال لها: "سياث" وفيها علوج[2] من الإفرنج يهدمون من جدرانها الحجارة، ويكسرونها بالمعاول؛ ليخف عليهم حملها، فوقف كالمتأسف، وقال:

"مررت بربع من سياث[3]فهاجني بها زجل الأحجار تحت المعاول

تصدى لها عبل الذراع[4]، كأنما جنى الدهر فيما بينهم حرب وائل

فقلت له: شلت يمينك خلها لمستخبر أو واقف أو مسائل

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أجلى من حديث المنازل" [5].

---

(١) الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (ج٢/٣٨٢).

(٢) ورجل علج بكسر اللام، أي شديد. الفارابي، تاج الصحاح(ج١/٣٣٠).

(٣) سياث: بكسر أوله، كانت بليدة بظاهر معرة النعمان وهي القديمة، والمعرة اليوم محدثة. الحموي، معجم البلدان(ج٣/٢٩٢).

(٤) ورجل عبل الذراع ضخم الذراع وامرأة عبلة تامة الخلق. ينظر: الحموي، المصباح المنير (ج٢/٣٩٠).

(٥) ابن منقذ، المنازل والديار (ص٣-٤).

الخاتمة

تناولت الدراسة انتهاكات الصليبيين لحقوق الإنسان في بلاد الشام، وقد خلص الباحث إلى عدد من النتائج والتوصيات، يمكن إجمالها على النحو التالي:

أولاً: النتائج:

توصلت الدراسة للعديد من النتائج، منها:

- لقد انتهك الصليبيون حقوق المدنيين، في الأمن على أنفسهم، وأمنهم في التنقل الحر الآمن، واعتمدوا في خطتهم الهجومية على بلاد الشام أسلوب إضعاف المواطنين، من خلال فرض الحصار الشامل لشتى مناحي الحياة، سواء في البر أو البحر، ومنعوا حتى المساعدات الإنسانية التي تساهم في فك الحصار، وشددوا قبضتهم على الطرق والموانئ البحرية لبسط سيطرتهم، وذلك بمعاونة حلفائهم من أهل جنوة وبيزا القاطنين في الجزر الإيطالية.
- ارتكب الصليبيون المجازر البشعة أثناء توغلهم في بلاد الشام، من أقصى الشمال وحتى جنوب البلاد، وكان هدفهم في البداية هو وصولهم إلى بيت المقدس، بحجة تحرير الضريح المقدس، وذلك حسب دعوات قساوستهم، ولكنهم كلما صادفوا أي مدينة في طريقهم، سارعوا في حصارها، وأبادوا أهلها، واستولوا على ممتلكاتها وأموالها، فعلوه هذا في أنطاكية ومعرة النعمان، وطرابلس، و وطرسوس، وبيروت، وعكا، وعسقلان والقدس.
- تبين أن هدف الصليبيين هو قتل المسلمين، ونهب أموالهم والاستيلاء على منازلهم، حيث اتفقت جموع الفرنج الذين وصلوا إلى بلاد الشام، والذين تجمعوا من أصول أوروبية مختلفة، ولهم لغات متعددة، لما قدموا إلى منطقة عربية لها لغة جديدة عليهم، فقد اتفقوا وتوحدوا على تحقيق أطماعهم ورغباتهم الشخصية.
- لم يظهر من تصرفات الفرنج أي رحمة لأهل الشام، ولم يبدوا من أفعالهم أنهم أصحاب حضارة، أو رسالة سماوية جعلتهم ينفذوا الجرائم المتتالية بحق الإنسانية، ولكن الذي ظهر منهم هو شدة أطماعهم، وحبهم للأموال والسيطرة على ممتلكات المسلمين، وظهر ذلك عندما احتلوا منازل المواطنين وسكنوا فيها.
- انتهك الصليبيون حقوق طوائف النصارى الساكنين في مدن الشام، رغم إنهم دعموا مع هذا الجيش مادياً وعسكرياً، وتطوعوا كأدلاء للصليبيين في اختيار أسلم الطرق، وعلى الرغم من هذا لم يقدر هؤلاء الغزاة لهم ذلك، بل عاملوهم بإهانة واحتقار.

- انتهك الصليبيون الحقوق الدينية لسكان الشام، فلم يحترموا أي ديانة، سواء إسلامية أو يهودية أو نصرانية، بل عرف عنهم أنهم كارهين للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وحاقدين على دعوته، ولذا هدموا المساجد، وأتلفوا المصاحف، واستهزأوا بالإسلام والمسلمين، وانتهكوا حرمة شهر رمضان وأعياد المسلمين في كل عام، ومنعوا الآذان، وقتلوا العلماء والدعاة، وكما أنهم أبادوا اليهود في مجزرة بيت المقدس، وعزلوا قساوسة الكنيسة الشرقية، وأحلوا مكانهم قساوسة غربيين ممن جاء معهم من أوروبا ليديروا شأن الكنيسة.
- كان لإنتشار وباء الطاعون، والأمراض المعدية في صفوف جيش الفرنج أثر واضح في إرباك تحركهم، كما أن نقص المياه والطعام كان عائقاً مهماً في صمودهم أثناء حصار المدن، وكانت وسائل نقل عتادهم وبضاعتهم ضعيفة، لدرجة إنهم استخدموا الماعز في حمل تلك الأثقال بين المدن المختلفة في الشام.
- ظهر عند قادة الفرنج إصرار على مواصلة التوسع في كل بلاد الشام، رغم الصعاب والخلافات الشخصية بين قاداتهم، بالإضافة إلى مقاومة الأهالي لهم، ولكنهم لم ينجحوا في بسط نفوذهم في الشام بأمان واستقرار طيلة فترة مكوثهم في هذه البلاد.
- انتهك الصليبيون حقوق المزارعين في بلاد الشام، حيث إنهم استولوا على الأراضي، وقطعوا الأشجار، وأقاموا عليها المستوطنات الصليبية، وسلبوا المواشي والثمار، وفرضوا الجزية على الفلاحين، واستولوا على منابع المياه، وعرف الصليبيون السُّكَّر لأول مرة عندما اقتحموا مزارع القصب في سوريا ولبنان.
- كان موقف حكام المسلمين متردداً اتجاه الصليبيين لفلسطين والشام، فمنهم من استسلم خوفاً منهم وفتح لهم الأبواب وحينها لم يرحم الصليبيون الأهالي، ومنهم من قاومهم في معارك التصدي بكل ما يستطيع حتى انتصر.
- ظهر إهمال كبير في كتابات المؤرخين الغربيين بحق علماء المسلمين فترة احتلال الفرنج لبلاد الشام، فلم تذكر مؤلفاتهم أي من العلماء، وكما لم تتطرق لأي دور لهم، ويعزو ذلك لأن الفرنج تعاملوا مع جميع الناس بأنهم أعداء.
- لم يبدع الصليبيون في إختراع أي من وسائل العلم النافعة في بلاد الشام، وظهر منهم ضعف في كفاءاتهم العلمية والطبية والصناعية، وأما الذي أتقنوه هو صناعة الأسلحة الفتاكة وأدوات إقتحام الأسوار والقلاع.

- ظهر غياب العدل الاجتماعي في ظل حكم الصليبيين في بلاد الشام، وذلك لأن إعتداءاتهم أسست الكراهية بين هؤلاء الغزاة أنفسهم من ناحية، وبينهم وبين أصحاب البلاد الأصليين من ناحية أخرى، فلم يكن في طموحهم من الأساس بناء دولة العدل.
- تبين أن لمصر دور مهم وواضح في مساندة أهالي الشام من خلال الدعم البحري والبري المستمر، على كافة المستويات الإغاثية و الإمدادات العسكرية والقتالية، واستمر هذا طيلة فترة احتلال الفرنج لبلاد الشام.

ثانياً: التوصيات:

يوصي الباحث بما يلي:

- ضرورة إعداد دراسات تاريخية كاملة عن فترة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، للوقوف على جرائم الفرنج، وتفنيد أكاذيب قساوستهم الدينية، وإبراز همجية هؤلاء الغزاة وأفعالهم الإجرامية بحق المدنيين الأبرياء في بلاد الشام.
- الاهتمام بدراسة حقوق الإنسان في المجالات المختلفة، لإنتهاكات الفرنج لحقوق المواطنين في الشام، ورصد الأحداث التي فيها تناقض مع الأعراف الدينية والبشرية في مناطق مختلفة غير بلاد الشام، مثل انتهاكاتهم في دول شرق أوروبا ومصر.
- إنشاء مركز تاريخي يهتم بتوثيق أفعال الفرنج في فلسطين، والشام من خلال زيارة المواقع الأثرية وتصويرها، واستنباط الحقائق لدراسة الحملات الصليبية المختلفة.
- تصميم مواقع الكترونية، تختص بجمع وتوثيق جرائم ومجازر الفرنج في بلاد الشام، ولتوضيح الحقائق أمام العالم عن أفعال الصليبيين الإجرامية، ولكي يتعرف الغرب ومؤسسات حقوق الإنسان، على هذه الأحداث المأساوية، ويعرف كيف صعدت حضارتهم على جماجم ودمائهم المسلمين.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

أولاً: المراجع العربية:

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (د. ت)، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت.

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. (٥٥٥-٦٣٠هـ). التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، ت: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتاب الحديثة، القاهرة.

أجيل، ريموند. (١٤١٠هـ/١٩٩٠م). تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، ترجمه للإنجليزية مع مقدمة وهوامش: جون هيوم هيل، ولوريتال هيل، نقله للعربية: حسين محمد عطية، ط١، كلية الآداب، جامعة طنطا، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

أحمد، عبد الله أحمد. (١٤٣٧هـ/٢٠١٦م). الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام في القرن ٦-٧هـ/١٢-١٣م، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة.

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي. (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب، بيروت.

الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). جمهرة اللغة، حقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين – بيروت.

الإصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المعروف بالكرخي (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م). المسالك والممالك، (د. ط)، دار صادر، بيروت.

الأصفهاني، الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، أبو إبراهيم (د. ت). سنا البرق الشامي.

الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م). حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس " وهو الكتاب المسمى: " الفتح القسي في الفتح القدسي"، ط١، دار المنار.

الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني. (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م). ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي.

إمام، هنادي، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول (٤٩٤-٥١٢هـ/١١٠٠-١١١٨م)، ط١، دار العالم العربي، القاهرة.

امطير، محمد سامي أحمد. (١٤٣١هـ/٢٠١٠م). الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية (٤٩٢-٥٨٩هـ/١٠٩٩-١١٨٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.

أمين معلوف. (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). الحروب الصليبية كما رآها العرب، ترجمة: عفيف دمشقية، ط٢، دار الفارابي، بيروت، لبنان.

أنَّا، كومنينا، المؤرخة اليونانية الأميرة. (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م). ألكسياد، إشراف: جابر عصفور، ترجمة حسن حبشي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

الإنجيل المقدس

البدر، عبد المحسن. (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). الانتصار لأهل السنة والحديث في رد أباطيل حسن المالكي، ط١، دار الفضيلة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

براور، يوشع. (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). عالم الصليبيين، ط١، ترجمة: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، مصر.

براور، يوشع. (١٤٢١هـ/٢٠٠١م). الاستيطان الصليبي في فلسطين "مملكة بت المقدس"، ترجمة: عبد الحافظ البنا، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر.

برجاوي، سعيد أحمد. (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). الحروب الصليبية في المشرق، ط١، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

ابن بطوطة، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم. (١٣٤٦هـ/١٩٢٨م)، رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفه النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، ط١، المطبعة الازهرية، القاهرة.

بواعنة، لؤي. (١٤٣٢هـ/٢٠١١م). رؤية المؤرخين الفرنج لواقع المسلمين إبان الحروب الصليبية (٤٩٠-٥٢١هـ/١٠٩٦-١١٢٧م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مجلد(٥)، ع(٣)، الأردن.

بورشارد. (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، وصف الأراضي المقدسة، ترجمة وتعليق: سعيد عبد الله البيشاوي، مراجعة وتدقيق: مصطفى الحياري، ط١، دار الشروق، عمان.

بوس، أدريان. (١٤٣١هـ/٢٠١٠م). مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، اشراف: جابر عصفور، ترجمة: علي السيد علي، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

بونداريفسكي. (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). الغرب ضد العالم الإسلامي من الحملات الصليبية حتى أيامنا، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو.

بوول، ستانلي لين بوول. (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ترجمه: فاروق سعد أبو جابر، ط١، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة.

البيشاوي، سعيد. (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م). الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩–١٢٩١م)، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

بيشوب، موريس. (١٤١٧هـ/١٩٩٦م). تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيد علي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

ابن تغري، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين. (١٤١١هـ/١٩٩١م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (د. ط)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. (١٣٩٤هـ/١٩٧٥م)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ط٢، مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

التطيلي، الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري الإسباني اليهودي. (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). رحلة بنيامين التطيلي، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

توديبود، بطرس. (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، تحقيق: جوزيف نسيم يوسف، ط١، نقلة إلى الإنجليزية: جون هيوج هيل، وترجمه إلى العربية: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، مصر.

تيمور، أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور.(١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق: حسين نصّار، ط٢، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة – مصر.

الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، إحياء التراث العربي.

ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (د. ت)، رحلة ابن جبير، (د. ط)، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

جوناثان ريلي- سميث. (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

حبشي، حسن (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). ذيل وليم الصوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

حسين، حسن عبد الوهاب، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، (د. ط) دار المعرفة الجامعية، مصر.

الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي (د. ت). التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العبد دودو، (د. ط)، مطبعة الحجاز، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

الحموي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (د. ت). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (د. ط) المكتبة العلمية، بيروت.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي. (١٤١٣هـ/١٩٩٣م). معجم الأدباء-إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الحموي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس. (د.ت.). (د.ت)، (د. ط)، المكتبة العلمية – بيروت.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي. (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت.

الحموي، محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين. (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ت: جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

الحميري، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (١٣٤٧هـ/١٩٢٨م). التيجَان في مُلوك حِمْيَر، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ط١، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية.

الحميري، محمد بن عبد المنعم. (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٣، بيروت.

ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم. (١٣٥٦هـ/١٩٣٨م)، صورة الأرض، (د. ط)، دار صادر، أفست ليدن، بيروت.

الخالدي، محمود. (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). نقض النظام الديمقراطي، ط١، دار الجيل، بيروت، ومكتبة المحتسب، عمان.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة. (١٣٠٦هـ/١٨٨٩م). المسالك والممالك، (د. ط)، دار صادر أفست ليدن، بيروت.

خسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي. (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). سفر نامه، تحقيق: يحيى الخشاب، ط٣، دار الكتاب الجديد، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي. (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م)، تاريخ بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت.

الدالي، أحمد عبد الكريم. (١٣٣٥هـ/١٩١٧م). الزراعة في الأراضي المقدسة (فلسطين) من خلال كتب الرحالة الروس والألمان، مجلة جامعة البعث، مجلد(٣٩)، العدد(٧٥).

دانيال، الراهب. (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م). وصف الأراضي المقدسة، ترجمه: سعيد البيشاوي، وداود اسماعيل أبو هدبة، (د. ط)، الشروق.

الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، كنز الدرر وجامع الغرر، ت: صلاح الدين المنجد، محمد السعيد جمال الدين ، بيرند راتكه، إدوارد بدين، جونهيلد جراف، دوروتيا كرافولسكي، الناشر: عيسى البابي الحلبي.

دُوزِي، رينهارت بيتر آن (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م). تكملة المعاجم العربية، ط١، نقله إلى العربية: محمد سليم النعيمي، جمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.

ديورانت، ويليام جيمس ديورَانت، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) قصة الحضارة، ط١، إعداد وترتيب: محمد عبد الرحيم، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. (١٤١٣هـ/١٩٩٣م). العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان .(١٤٠٧هـ/١٩٨٧). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي لبنان.

الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). مختار *الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط٥، : المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا.*

رضا، أحمد. (١٩٥٨-١٩٦٠م). معجم متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، عدد الأجزاء: ٥، دار مكتبة الحياة، بيروت.

رينهارت، آن دوزي، (١٩٧٩/٢٠٠٠م). تكملة المعاجم العربية، ترجمه: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.

زابوروف، ميخائيل. (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م). الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو.

الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، (د. ت). تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي. (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م). الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، بيروت.

زكار، سهيل، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م). الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق.

زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (د. ت). ذيل طبقات الحنابلة، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض.

الساحلي، نعيمة. (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م). الاستيطان الافرنجي وتأثيره على البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للكيانات الصليبية في فلسطين والساحل الشامي، تقديم: أحمد إيبش، ط١، قتيبة للطباعة والنشر، دمشق.

السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي عبد الكافي. (١٣٨٥هـ/١٩٦٦م). طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، القاهرة.

ستيفن، رانسيمان. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). الحملات الصليبية (١١٠٠-١١٨٧م)، ترجمة: نور الدين خليل، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

السراج، محمد. (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م). اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، ط١، جزء١، مراجعة: خير الدين شمسي باشا، دار الفكر، دمشق.

أبو سعد السمعاني (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م). الأنساب، ط١، موقع يعسوب، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان.

ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق. (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، إصلاح المنطق، تحقيق: محمد مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م). *تاريخ الخلفاء*، ط١، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز.

ابن شاكر، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (١٩٧٣-١٩٧٤). فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، ط١، عدد الأجزاء: ٤، دار صادر، بيروت.

أبي شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة. (١٤١٨هـ/١٩٩٧م). الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

شاهين، رياض. (١٤٢١هـ/٢٠٠١م). هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، مجلة الجامعة الاسلامية ، مج٩، ع١، الجامعة الإسلامية، غزة.

ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد (١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، ت: جمال الدين الشيال، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. (١٤٢١هـ-٢٠٠١م). مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط١، (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

شراب، محمد بن محمد حسن. (١٤١١هـ/١٩٩٠م). المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، ط١، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت.

ابن شمائل، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين. (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، دار الجيل، بيروت.

الصالحي، محمد بن طولون الصالحي. (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). *القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية*، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ط١، دمشق.

الصاوي، صلاح، (د. ت). نظرية السيادة وأثرها على شرعية الأنظمة الوضعية، مصر.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، *الوافي بالوفيات*، تحقيق تركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت.

صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ترجمه: فاروق سعد أبو جابر، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

الصوري، وليم. (١٤١٢هـ/١٩٩٢م). الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م). " شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ، تحقيق: محمود الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله. (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العموري، دمشق، تاريخ الفكر للطباعة والنشر.

ابن عساكر، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي. (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، عدد الأجزاء ٢٩، ط١، الناشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق.

عباس بن محمد بن أحمد بن السيد رضوان المدني الشافعي. (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م). مختصر فتح رب الأرباب بما أهمل في لب اللباب من واجب الأنساب، مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية، مصر.

عبد الكافي، اسماعيل (د. ت). الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، كتاب الكتروني، (د. ط).

عبد الكري، فتحي. (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، ط٢، دار التوفيق النموذجية، مصر.

عزيز سوريال. (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م). تاريخ المسيحية الشرقية "A history of Eastern Christianity"، ترجمه إسحق عبيد، ط١، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

العليمــي، مجيــر الــدين الحنبلــي، عبــد الــرحمن بــن محمــد بــن عبــد الــرحمن العليمــي (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان نباتة، مكتبة دنديس، عمان.

العليمي، مجير الدين العليمي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي. (١٤٣٢هـ/٢٠١١م). التاريخ المعتبر في أنباء من غبر، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين، إشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن أله، أبو عبد الله. (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). البرق الشامي، تحقيق: فالح حسين، ط١، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن.

عمر، أحمد مختار عبد الحميد عمر. (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، القاهرة.

العمراني، محمد بن علي بن محمد المعروف بابن العمراني. (١٤٢١هـ/٢٠٠١م). الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة.

العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي. (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

عنان، محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). دولة الإسلام في الأندلس، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة.

عودة، عبد القادر (د. ت). التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، (د.ط)، دار الكاتب العربي، بيروت.

العيسى، طلال. (١٤٣١هـ/٢٠١٠م). السيادة بين مفهومها التقليدي والمعاصر، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مج٢٦، ع١، دمشق.

العيسي، طلال ياسين العيسي.(١٤٣١هـ/٢٠١٠م). السيادة بين مفهومها التقليدي والمعاصر، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلد(٢٦)، ع(١)، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق د. محمود رزق محمود، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

الغرب ضد العالم الإسلامي من الحملات الصليبية حتى أيامنا، ترجمة : إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

الغرناطي. (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م). رحلة الغرناطي، ط٢، رواية : ربيع جابر، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الغزي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي، الشهير بالغزي (١٤١٩هـ/١١٩٨م). نهر الذهب في تاريخ حلب، ط٢، دار القلم، حلب.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات. (١٣٥٤هـ/١٩٣٦م)، تاريخ ابن الفرات، تحرير ونشر: قسطنطين زريق، الجامعة الامريكانية، منشورات كلية العلوم والآداب، المطبعة الأميركانية، بيروت.

ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه. (١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، ط١. عالم الكتب، بيروت.

ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى شهاب الدين. (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (د. ت). المختصر في أخبار البشر، ط١، المطبعة الحسينية المصرية، مصر.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (د. ت). *اليواقيت والضرب في تاريخ حلب*، (د. ط).

أبو الفضل، محمد بن الشحنة، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ، دار الكتاب العربي، سوريا.

الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (د. ت). *منتخب من صحاح الجوهري، هذه مواد منتخبة من الصحاح للجوهري*، فهناك مواد بكاملها لم تُذكر، والمذكور فيه اختصار، ثم رُتِّبت على أوائل أصول الكلم، المكتبة الشاملة.

الفراني، عبد الحميد جمال عبد الحميد. (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام(٤٩١-٦٩٠هـ/١٠٩٨-١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاسلامية، غزة.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري. (د. ت). كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، (د. ط.)، دار ومكتبة الهلال.

فورزيورغ، يوحنا. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). وصف الأراض المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن.

فوشيه الشارتري. (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م). الاستيطان الصليبي في فلسطين "تاريخ الحملة إلى بيت المقدس"، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم ، ط١، مكتبة الشروق.

الفيتري، يعقوب، بطريرك عكا. (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). تاريخ بيت المقدس، ترجمة: سعيد البيشاوي، ط١، دار الشروق، عمان.

قاسم، قاسم عبدو قاسم. (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج٣، بيروت.

قاسم، قاسم عبدو قاسم. (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). موسوعة الحضارة العربية الاسلامية، أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م): آثار البلاد واخبار العباد، دار بيروت، دار صادر، بيروت.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري. (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي. (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، *تاريخ دمشق*، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق.

القيسي، أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي. (١٤٠٨هـ/١٩٨٧م). *ايضاح شواهد الإيضاح*، تحقيق: محمد بن حمود الدعجاني، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

الكجراتي، جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي. (١٣٨٧هـ /١٩٦٧م). مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، ط٣، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

كرد، محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد، كُرْد عَلي. (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). *خطط الشام*، ط٣، مكتبة النوري، دمشق.

الكناني، مصطفى حسن محمد الكناني. (١٤٠١هـ/١٩٨١م). العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى(٤٨٨-٥٦٧هـ/١٠٩٥-١١٧١م)، ط١، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، كلية الآداب جامعة أسيوط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

كنعان، أحمد محمد كنعان. (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م). *الموسوعة الطبية الفقهية*، تقديم: محمد هيثم الخياط، دار النفائس، ط١، بيروت.

لوبون، غوستاف. (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م). حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.

ابن المستوفي، المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي، المعروف بابن المستوفي (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). تاريخ اربل، تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق.

ابن المظفر، محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، الأيوبي، أبو المعالي، ناصر الدين، المنصور (د. ت) *مضمار الحقائق وسر الخلائق*، المحقق: الدكتور حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي. (١٤١٤هـ/١٩٩٣م). لسان العرب، ط٣، دار صادر- بيروت.

ابن منقذ، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (د. ت)، *الاعتبار*، فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

أبو المحاسن، شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م). *ذيل تذكرة الحفاظ*، ط١، دار الكتب العلمية.

أبو المنذر، هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط٤، دار الكتب المصرية، القاهرة.

مجمع اللغة العربية المصري. (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م). معجم *القانون*، ط١، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار). (د.ت.). المعجم الوسيط، (د. تح)، (د. ط.)، دار الدعوة.

مجموعة مؤلفين. (د. ت). *مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي*، الناشر منظمة المؤتمر الاسلامي، الأعداد: (١٣) عدداً، جدة، المملكة العربية السعودية.

مجموعة مؤلفين، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي. (د.ت). نقلاً عن موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي،(د.ط)، نقلها وأعدها للشاملة: أبو سعيد المصري.

مختار، أحمد مختار عبد الحميد عمر. (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م). معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. (د. ت) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

مقامي، نبيلة ابراهيم. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، جامعة القاهرة.

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري. (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: غازي طليمات، ط١، دمشق: وزارة الثقافة والارشاد القومي.

المقريزي، أحمد بن عبدالقادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.

المقريزي، أحمد بن عبدالقادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، القاهرة : مكتبة مدبولي.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م): اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد حلمي محمد، وجمال الدين الشيال، عدد الأجزاء ٣، مطبعة الاهرام التجارية، القاهرة.

ملندي، ماهر. (١٤٣٩هـ/٢٠١٨م). القانون الدولي العام، من منشورات الجامعة الافتراضية السورية، سوريا.

المهلبي العزيزي، الحسن بن أحمد. (٣٨٠هـ/٩٩٠م)، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تحقيق تسير خلف.

مونروند، مكسيموس. (١٢٨١هـ/١٨٦٥م). تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة بحرب الصليب، ط١، ترجمه من الفرنسية إلى العربية: قدس السيد كيريو كيريو مكسيموس مظلوم، البطريرك الانطاكي، طبع في دير الرهبان الفرنسيسكانيين، مطبعة العمرانية، الجيزة، مصر.

النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي. (١٤١٠هـ-١٩٩٠م). الدارس في تاريخ المدارس، المحقق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد فوزي العنتيل، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

الهروي، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي. (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). السلاح، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ط٢، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

الهروي، علي بن أبي بكر بن علي الهروي، أبو الحسن. (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). الإشارات إلى معرفة الزيارات، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور. (١٤٢١هـ/٢٠٠١م). تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

هونكه، زيجريد. (١٤١٧هـ/١٩٩٦م). الله ليس كذلك، ترجمة غريب محمد غريب، ط٢، دار الشروق، ومؤسسة بفاريا، القاهرة.

الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. (١٤١٤هـ/١٩٩٤م). مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة.

ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس. (١٤١٦هـ/١٩٩٦م). *تاريخ ابن الوردي*، بيروت: دار الكتب العلمية .

ابن واصل، محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين. (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*، تحقيق: حسنين محمد ربيع، وجمال الدين الشيال، وسعيد عبد الفتاح عاشور، عدد الأجزاء: ٥، دار الكتب والوثائق القومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

ولتر،ج. (١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م). الهرطقة في المسيحية، ترجمة: جمال سالم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان اليافعي. (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

اليعقوبي، أحمد بن اسحاق. (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، البلدان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

يوسف، جوزيف نسيم. (١٤٠١هـ/١٩٨١م). العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط٣، دار النهضة العربية، بيروت.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني. (١٤١٣هـ-١٩٩٢م). ذيل مرآة الزمان، ط٢، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

ثانياً: المراجع الأجنبية

Asbrdge, Tomas, (2005). The first crusade a new history the Room of Conflict Between Christianity and Islam, 1 edition, Oxford University Press.

August C. Krey, (1921). The first crusade, The Accounts Of Eye-Witnesses And Participants. Associate professor of history in the university of Minnesota, Princeton University Press Princeton. London: Humphrey Milford Oxford University Press.

Boas, A. (2001). Jerusalem in the Time of the Crusades Society, Landscape and art in the Holy City under Frankish rule, London and New York.

Chalandon, F. (1925). Histoire de la premiere Croisade jusqu al election de Godefroi de Bouillon, Paris.

Grousset, R. (1943). Histoire de Croisades et du Royaum Franc de Jerusalem, 3 Vols., Paris.

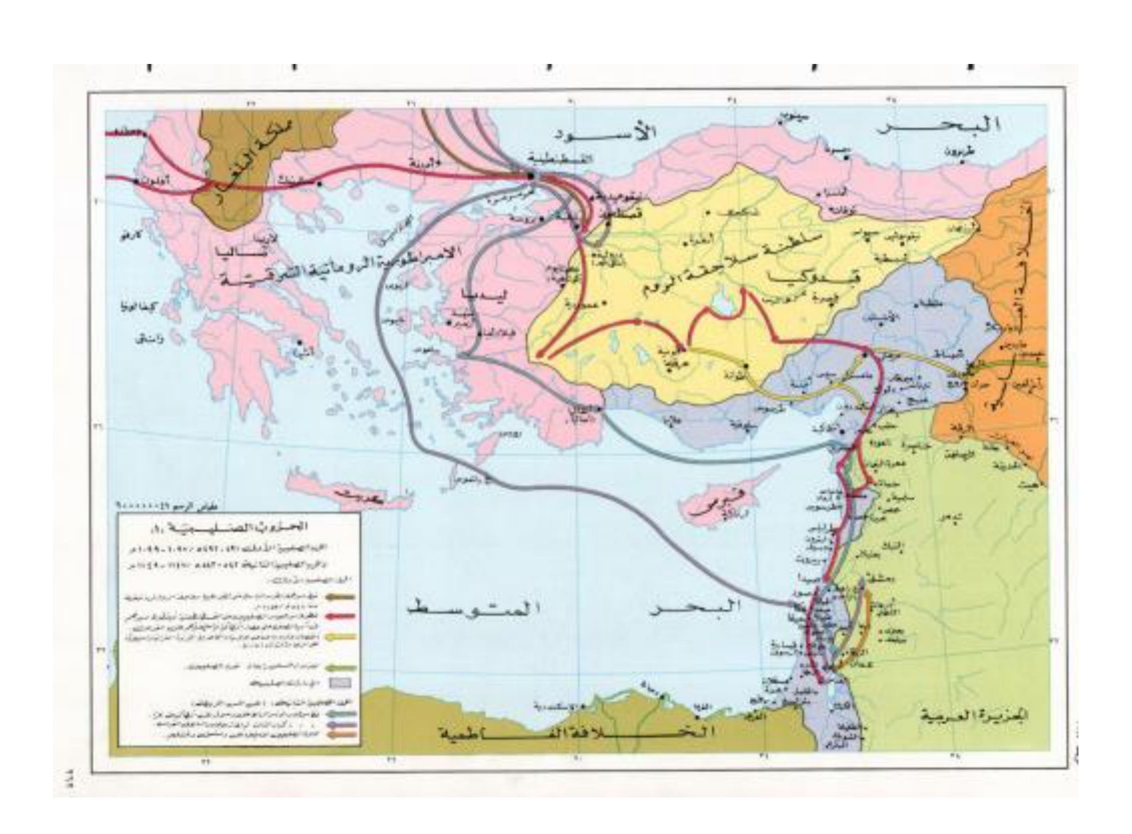
I Empire Byzantin au Xle et aux Xlle Siecle, (1900), 2 vols, Paris.

Smith.Riley,J. (1973).The Feudal Nobility, and Latin kingdom11771277, London,

الملاحق

ملحق رقم (1)

الحملات الصليبية



المصدر: أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس.

ملحق رقم (2)

حصار أنطاكيا واحتلالها



حصار الصليبيين لأنطاكية

المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (3)

الحملة الصليبية الأولى



المصدر: أطلس الحملات الصليبية

ملحق رقم (4)

رموز الحلمة الصليبية الأولى



المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (5)

زحف القوات الصليبية نحو أنطاكية



المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (٦)

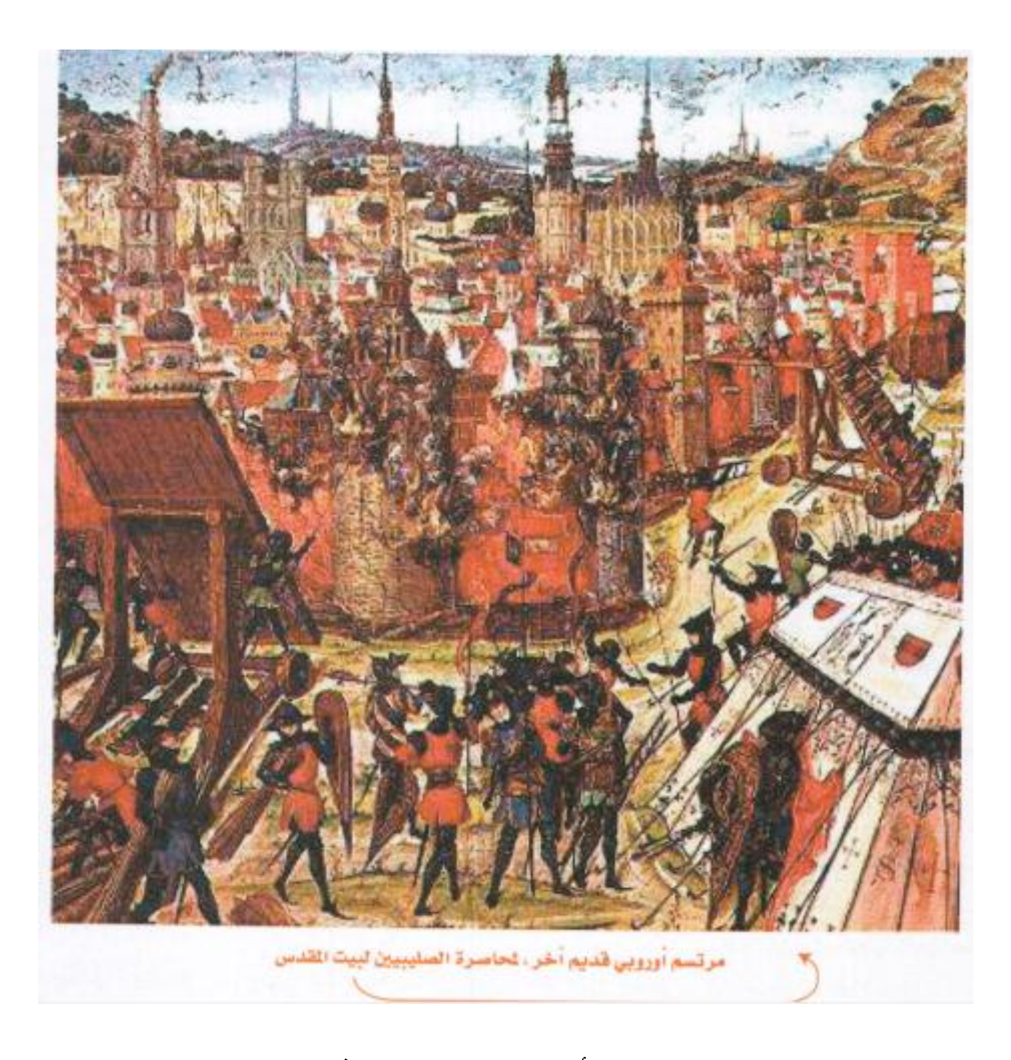
رسم أوروبي يظهر وحشية الصليبيين في التعامل مع المسلمين



المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (٧)

رسم يظهر حصار الصليبيين لبيت المقدس



مرتسم أوروبي قديم آخر، لمحاصرة الصليبيين لبيت المقدس

المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (٨)

زحف القوات الصليبية نحو الرها



المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (٩)

قلعة طرابلس الأثرية بلبنان



المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (١٠)

قلعة معرة النعمان



قلعة معرّة النعمان

المصدر: أطلس الحملات الصليبية.

ملحق رقم (١

نـهر العاصي يخترق أنطاكية



المصدر: أطلس الحملات الصليبية.